صفحه خالی

حول

الصحوة الإسلامية

الشيخ محمّد علي التسخيري

تسخيري، محمد علي.
حول الصحوة الاسلامية/ محمد علي التسخيري-
تهران: مجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلاميه، ۱۳۸۳
۲۰۰ ص.
ISBN: 964-7994-64-8 ۳۵۰۰۰ ریال
عربی.
فهرست نویسی براساس اطلاعات فیپا.
چاپ دوم.
۱. وحدت اسلامی. ۲. تقرب مذاهب. ۳. اسلام – قرن ۲۰م. ۱۰۴ اسلام – تجدید حیات فکری. الف. مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی. ب . عنوان.
BP ۲۳۳/۵/ت۵ح۹۴ ۲۹۷/۴۸۲
کتابخانه ملی ایران ۲۵۵۲۷- ۸۳م

الكتاب: حول الصحوة الإسلامية
المؤلف: محمد علي التسخيري
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية – المعاونية الثقافية
الطبعة: الثانية، ١٤٣٢ هـ . ق ــ ٢٠١١م مزيدة ومنقحة
الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
السعر: ٣٥٠٠ تومان
ردمك: ISBN ٩٦٤-٧٩٩٤-٦٤-٨
العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران / طهران
ص . ب : ٦٩٩٥ ــ ١٥٨٧٥

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الفهرس

مقدمة الناشر ٧

المقال الاول: حقيقة الصحوة وأعراضها ٩

أ – الصحوة : أسبابها ومظاهرها ودوامها ١١

ب – الإمام الخميني (ره) والصحوة ٣١

جـ – الصحوة وبعض الأعراض السلبية ٥٧

د – التنوّع المذهبي في المجتمعات الإسلامية ٦٩

هـ – الهوية بين تهديد التنميط وتداعيات التفريط ٩٠

المقال الثاني: الصحوة والتغيير ١٠١

المقال الثالث: الصحوة والإعلام ١٢١

أ – الغزو الفكري وأساليب المواجهة ١٢٣

ب – عناصر الضعف في الإعلام الإسلامي ١٤١

جـ – النقد الذاتي لحركة المفكرين الاسلاميين اليوم ١٥١

د – الخطوط الإعلامية العريضة لتوحيد العمل التبليغي في العالم الاسلامي ١٥٥

المقال الرابع: الصحوة والغرب ١٦٣

المقال الخامس: خلاصة الموقف الغربي من الصحوة ١٩١

ملحق: مقابلتان صحفيتان ٢٠١

حول هموم الثقافة والمواجهة والتغيير ٢٠٣

حول الصحوة الإسلامية والإعلام ٢٠٩

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه باقة من المقالات التي كتبها الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ــ في مناسبات شتّى ــ وألقيت في مؤتمرات أو نشرت في أعداد متفرقة من بعض المجلات .. إلاّ أنّ الذي يجمعها هو تركيزها على قضية الصحوة الإسلامية، هذا المارد الإسلامي العظيم الذي يقضّ مضاجع الاستكبار وعملائه. والإعلام وجه الصحوة ووسيلتها الناطقة، فلابدّ أن ينسجم تمام الانسجام معها وينشّطها ويعمّقها لتقوم بدورها الحضاري المطلوب.

ومن هنا آثرنا أن نجمعها في هذا الكتاب، سائلين المولى جلَّ وعلا أن ينفع به الواعين المخلصين.

وقد أعدنا طباعة الكتاب تارة أخرى لما وجدنا في ذلك من انسجام مع مجريات الأمور في العالم العربي وتبلور الثورات ونموّ واضح في الصحوة الإسلامية وتأثيرها على هذه الثورات. كما أنّنا أضفنا في هذه الطبعة أفكاراً ومقالات أخرى لم تكن في الطبعة السابقة.

المعاونية الثقافية

للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

صفحه سفيد

المقال الاول

حقيقة الصحوة وأعراضها

(أ)

الصحوة .. أسبابها ومظاهرها ودوامها [1]

يكاد الحديث في هذا الموضوع يعدُّ من أجمل الأحاديث، لأنّه يتعلّق بأهم قضية وأهم ظاهرة تعيشها الأمّة الإسلامية كونها تمثّل منعطفاً في تاريخها المبارك .. وما أجمل أن نركّز على قضايانا المعاصرة من زاويتها العقائدية والحضارية، بدلاً من الانشغال في مشاكل عقيمة، بعيدة عن الواقع الذي نعيشه والأهداف التي نرنو إليها.

وقد ارتأيت في مجال تناولي هذه الظاهرة المباركة أن أتعرّض لها من الزوايا الثلاث: (الحقيقة، الأسباب، الاستدامة) تحقيقاً للترابط المقوّم بين هذه الزوايا، وتأكيداً للنتائج العملية التي يجب أن ننتهي إليها من خلال البحث.

حقيقة الصحوة الإسلامية

من نافلة القول أن نتحدث عن التركيبة الإسلامية ـ ككل ـ إلاّ أنّ التذكير بها يحقّق تمهيداً جيداً لفهم حقيقة الصحوة الإسلامية. فالإسلام عقيدة تحدّد للإنسان موقفه من الكون والحياة والإنسان بتاريخه وحاضره ومستقبله. وتنبثق من هذه العقيدة مفاهيم تشكّل أساساً عملياً واسع الأبعاد. وعلى أساس العقيدة والمفاهيم الحياتية، تتخذ العواطف الإنسانية مساراً توجيهياً تختلف إختلافاً حقيقياً عنها عندما لا تعيش في هذا الإطار.

(١) ألقي في الملتقى الثامن عشر للفكر الإسلامي في الجزائر بتاريخ ١٩٨٤/٧/١٠.

وبعد كلّ هذه الأرضية المناسبة يأتي البناء الاجتماعي الإسلامي ليشمل تخطيط الإسلام كلّ نواحي الحياة الإنسانية.

وحينئذ فالمسلم الواعي حقاً يتمتع بالعناصر التالية:

أولاً: فهم الحقيقة الإسلامية فهماً مطّرد العمق.

وثانياً: إيمان منطقي بها.

وثالثاً: نفوذ إيماني إلى العواطف، وصياغتها الصياغة التي تنسجم بها مع الأسس.

ورابعاً: نقل واع لها إلى المجال العملي، الشخصي والعام.

إنّها العناصر التي يمتاز بها المسلم الواعي، والتي يصعد الإنسان بها مدارج الكمال من خلال تأصّلها في وجوده وحياته.

وعنصر الفهم يعمُّ فهم الإسلام ـ أساساً وبناء نظرياً ـ من جهة، والإطار العملي التنفيذي من جهة أخرى، وأعني بالفهم الإسلامي التطبيقي فهم التعليمات الإسلامية الهادفة لكيفية ملء المساحة المباحة، أو ما أطلق عليها أحد كبار المفكرين منطقة الفراغ، التي تركها الإسلام للحاكم الإسلامي ليقوم بملئها على ضوء التعليمات مع ملاحظة المصلحة الإسلامية العليا والظروف الموضوعية القائمة. ويعتبر ما يسمّى الأمر الموحى به مباشرة أسمى درجات هذا الفهم في حين يتلوه في الدرجة ما يتحصّل بالإجتهاد الأصيل الصحيح.

أمّا عنصر الإيمان فهو بدوره متفاوت الدرجة، ممّا يسوّغ أن يؤمر الذين آمنوا بالإيمان، وتصعيد هذه الدرجة أو توسيع المساحة الإيمانية، ويشمل الإيمان بالموقع المحدّد من الكون والمنطق الحياتي والهدف السامي ونوع السبيل إلى الهدف.

وإذا ركّزنا على الصعيد العاطفي رأينا التدريج نفسه فيه، حتى يصل الأمر إلى مستوى أن يملأ الحب الإلهي وجود العبد فيسمو حتى ليقول الحديث عن الزهراء ـ تلميذة الإسلام ـ : «إن الله تعالى يرضى لرضاها ويغضب لغضبها»[1]، وحتى يتحول

(١) الاعتقادات (الصدوق) ص١٠٥.

الدين إلى حب كله، «هل الدين إلاّ الحب»[١] كما جاء في بعض الروايات.

ومن هنا يُدعى المؤمنون إلى تجاوز مرحلة الإيمان العقلي المجرد، إلى مرحلة الخشوع والتحرّك العاطفي. فيقول تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقّ وَلا يَكُونُوا كَالّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ).[٢]

وأخيراً تصل المرحلة إلى عنصر العمل، الذي يأتي بشكل طبيعي بعد التحرُّك العاطفي، ذلك لأنَّ الإرادة الإنسانية هي حصيلة الشوق المؤكَّد إلى حد كبير.

وأشدّ الناس تمزّقاً في الشخصية هم: أولئك الذين تنفصل أعمالهم عن عقائدهم وعواطفهم، وأذكر هنا مقولة للفرزدق، قالها بعد أن سأله سبط رسول الله الحسين بن علي، عن وضع أهل الكوفة آنذاك فأجاب: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[٣].

والواقع أنَّ انعدام العمل يشكّل قرينة طبيعية على عدم فاعلية الأسس.

يقول القرآن الكريم:

(أَرَأَيْتَ الّذي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذلِكَ الّذي يَدُعّ الْيَتيمَ. وَلا يَحُضّ عَلى طَعامِ الْمِسْكينِ)[٤].

بعد هذا التحديد لمعالم الوعي والصحوة، يمكننا أن نشخّص تحققها في أي زمان ومجتمع، عبر ملاحظة تحوّلها إلى ظاهرة اجتماعية، وعدم اقتصارها على مجموعة صغيرة. نعم إذا شملت الصحوة قطاعاً كبيراً، وتعاطفت معها الأكثرية الجماهيرية المسلمة أمكن ـ بحق ـ أن يتحلّى ذلك المجتمع بحالة الصحوة الإسلامية.

هكذا كانت الغفوة

ولقد مرّت أمتنا الإسلامية بفترات زمنية طويلة، عمَّتها غفوة، وشملها تخدير وضياع مقيتان يعتصر لهما القلب ألماً.

---

(١) الخصال (الصدوق) ص ٢١.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) دلائل الإمامة (الطبري) ص ١٨٣.

(٤) الماعون: ١ـ٣.

فالفهم الإسلامي الصحيح غير متوفر إلاّ على صعد فردية محدودة المجالات، وحينئذ فمن الطبيعي أن لا تجد تعاليم الإسلام المحيية للنفوس مجالها الطبيعي المؤثّر في القيام ببناء النفوس والمجتمع.

والتجزيئية تعمل عملها الخبيث في تمزيق الفرد المسلم من كلّ الجهات، فهو ممزّق في رؤيته الكونية، وقد أراد له الإسلام أن يتّخذ رؤية واحدة تجاه الأشياء، وهو ممزّق في شخصيته، حائر بين الإلتزام بقوانين السماء والاتجاه مع الواقع الفاسد، والولاءات المتعددة، وآلهة التاريخ والتمدُّن، والعنصرية، والقومية، والوطنية، واللون وحتى العلم، وكلها تشكل مطلقات يجردها الذهن الإنساني من نِسبيتها، ويمنحها صفة الإطلاق لتشكّل ـ بالتالي ـ قيوداً على التحرُّك الحضاري إلى الأمام، ويصبح الانشغال بالهموم الضيقة والشخصية هو الديدن العام؛ وقليل أولئك الذين يفكرون لصلاح الأمّة كلّ الأمّة، ويعيشون قضاياها الرئيسة، وجراثيم الكفر والانحراف الفكري والخلقي تسود الساحة، فلا تجد أمامها من يقف في وجهها، والروح الحماسية ميتة، إلاّ تعصباً لمال أو تجمّع أو مذهب خاص أو حاكم طاغٍ.

ومن الطبيعي ـ والحال هذه ـ أن تكون هذه القابلية محفزاً للاحتلال على مختلف الصعد ومنها الصعيد العسكري.

وهكذا كان الحال، وبدأت ـ الصحوة شيئاً فشيئاً ـ حتى بلغت ما نحن فيه من حال.

معالم الصحوة

وقد تمثّلت معالم الصحوة اليوم في أمور كثيرة، لسنا بصدد استيعابها بقدر ما نحن فيه من الإشارة، حيث نجدها في:

ـ هذا الاتجاه العام نحو تفهُّم الإسلام ومعرفة جوانبه الحياتية.

ـ وهذا الإتجاه الصارم للقطاعات المختلفة ـ وخصوصاً قطاع الجيل الشاب ـ نحو تطبيق الإسلام، في كلّ شؤون الحياة الاجتماعية والفردية، والنظر للإسلام كمنقذ من كلّ المهالك والمشاكل، التي تورّطت فيها مسيرة الأمّة .

ـ وهذا التفهُّم الواعي لدور قوى الاستكبار العالمي في التخطيط لمسخ الشخصية الإسلامية ثم العمل على امتصاص دمائها،

ـ وكذلك تفهّم الطاقات الضخمة التي تملكها الأمّة المسلمة، وطبيعة المرحلة التاريخية التي تعيشها.

ـ وكذلك هذا الترابط الإحساسي والشعوري بين أفرادها، حتى ليهتزَّ المسلم اليوم في أقصى المعمورة لألم المسلم في الجانب الآخر منها.

ـ وهذا الاتجاه الرائع نحو الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب، وتناسي الصراعات الجانبية.

ـ ثم هذا التخطيط الحثيث هنا وهناك لاستعادة المجد الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية الموحَّدة على كلّ الأرض الإسلامية. ورغم اختلاف مستويات التخطيط فإنّها تكشف جميعاً عن التطلع والعمل على صنع المستقبل.

ـ وهذه الحرارة الثورية المتصاعدة، والتي راحت تقضّ مضاجع اللصوص الكبار، وتهزّ عروش العملاء الصغار، وتمزّق أستار المتستّرين والمتبرقعين. إنّها حرارة الخشوع والتضحية والفداء في سبيل العقيدة، وهي تستمد أوارها من انطلاقة المسلم في الصدر الأول نحو الجهاد في سبيل إعلاء راية الإسلام، ناسياً دنياه ومتعه، في سبيل متعة تحقيق الهدف السامي العظيم.

ـ وأخيراً وليس آخراً: هذا الاتجاه الجماهيري نحو تعميم الأخلاق الإسلامية على المجتمع، ونفي مظاهر الطاغوت والعصيان، إذ رأينا الحجاب الإسلامي يسري سريان العافية في أوصال المجتمعات الإسلامية، ورأينا النفور من مظاهر الخلاعة والخمر والميسر وباقي العادات السيئة؛ وذلك يمثل ظاهرة إسلامية حميدة.

كل هذا أرعب دهاقنة الكفر وعملاءهم، حتى أيقنوا أنّ ما كانوا يخشونه قد تحقّق، واستعادوا ـ من جديد ـ إلى ذاكرتهم مقولة غلادستون عن القرآن، كأكبر عنصر دفاعي لدى المسلم، ومقولة ديغول حين حذّرهم ـ في الأربعينات ـ من هذا العملاق النائم، والذي تداعب خصلات شعره مياه الأطلسي، وتغسل رجليه مياه المحيط الهادئ...

ومقولة الجنرال غلوب باشا (إنَّ تاريخ مشكلة الشرق الأوسط يعود الى القرن السابع للميلاد) فراحوا يكررون التحذير.

فوزير الخارجية الأمريكي يحذر العالم من اليقظة الإسلامية ووزير الخارجية الإسرائيلي يكرر التحذير، وهذان العملاقان المتعاديان في الشرق والغرب يضعان يداً بيد لمواجهة المدّ الإسلامي. لقد اشتدّ التخطيط لمواجهة هذا السيل الإسلامي العارم، الذي يهدد حضارتهم بالزوال، لأنّه يحمل العلاج الناجع، والذي يمزّق أحلامهم، ويقضي على منافعهم الرخيصة.

وكأنَّ الاستعمار ـ بين عشيّة وضحاها ـ وجد أنَّ كلّ أحابيله وبؤره السرطانية التي زرعها في قلب هذه الأمّة تزول، وكل الآلهة التي نصبها أمامها ـ كما أشرنا إليها من قبل ـ تتهاوى وتتمزق تماماً، كما وجد المبشر المسيحي نفسه في حيرة، عندما حدّث بعض المسلمين عن معاجز (الرب المسيح) فرحوا يصلّون على محمد وآل محمد.

لقد وجد الاستعمار أنَّ القوى والأساطيل الجامدة تذوب عند كلّ صرخة تكبير يطلقها مجاهد مسلم، واستولى الرعب على الطغاة عندما وجدوا أنَّ القيود والسجون ترتجف، أمام تكبير الأسير المسلم وصرخته الربانية الهادرة.

أسباب الصحوة

وليس من الصعب على من ينطلق في تفكيره من زاوية إسلامية موضوعية أن يكتشف، أسباب هذا التحول العظيم في حياة الأمّة . نعم قد يعمى عنها الحُوَّل القُلّب، أمّا البصير، فلا يشك في كونه لطفاً إلهياً محضاً، شمل هذه الأمّة بعد فترة، وأهّلها لأن تطرح نفسها في الساحة العالمية، وتمكّن إسلامها من قيادة العالم من جديد، موطئةً لليوم الموعود، حيث (يكون الدين كله لله).

أمّا العناصر التي أهّلت الأمّة لشمول هذا اللطف الإلهي لها، فهي:

أولاً: العمل الدؤوب للعلماء والمفكرين الذين أحسّوا بداء هذه الأمّة ، وراحوا يخططون ويرسمون لها سبل العلاج. والواقع أنَّ عمل العلماء انصبّ على أن يستعيد

الإسلام دوره في النفوس والعقول، وحينئذ فهو يتكفّل بدفعها نحو سبل السعادة، بما يحمله من طاقات ذاتية، وإبداع متدفّق يفجر طاقات الفطرة، ويستخرج مكنوناتها، ويستثير دفائنها، وإذا تجلّت الفطرة النفسية على صعيد الحياة، كان الفلاح كله.

والجدير بالذكر أنَّ هؤلاء المفكرين لم يستطيعوا أن يحققوا ما حققوا إلاّ بعد أن حرروا نفوسهم من المتع الرخيصة، ونذروا أنفسهم للهدف، وتخلّصوا من قيود التبعية، للحكّام الذين شكّلوا ـ في فترة الغفوة ـ قيوداً ظالمة، وإلا بعد أن اتصفوا بالعلمية والروح التغييرية الإسلامية معاً.

ولن تستطيع كلّ أساليب التمويه والخداع والاتهام أن تمحو من أسماع الأمّة صرخات الأسدآبادي (الأفغاني) وعبده، والبنا، وسيد، وعودة، والمودودي، وابن باديس، والإبراهيمي، والمطهري، والشهيد الصدر، والإمام الخميني، بعد أن أدّت دورها العظيم في تحقيق هذه الصحوة المباركة.

ثانياً: الدور الرائع الذي قامت به الحركات الإسلامية، في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمّة . وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة عن تلك، إلاّ أنّها جميعاً قد أجّجت الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتدٍّ بها، بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت، والعودة للإسلام... وإنّي لأعلم أنَّ الكثير من أبناء هذه الأمّة قد اهتدى بفعل تأثير هذا العامل، كما أعلم أنَّ الكثير من المحاولات الاستعمارية، والعميلة، قد جرت لجرٍّ بعضها إلى سبيل الاحتواء، أو الانضواء تحت الرايات الخادعة، أو الاعتماد على أنظمة لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة. وطبيعي أنَّ هذه المحاولات لابدَّ أن ينكشف زيفها في فضاء الوعي السائد، وهكذا كان الأمر، وراحت حركة التوعية تقطع أشواطها الضخمة التأثير.

ثالثاً: ردود الفعل التي اعقبت الهجوم الغربي الفاشل على العالم الإسلامي، فبالرغم من التخطيط الدقيق لهذا الهجوم، والعمل على أن يستوعب مختلف الجوانب الحياتية ويستكمل كلّ عناصر النجاح المطلوب، بل وبالرغم من هذا النجاح الظاهري، الذي

تصوّر الاستكبار العالمي أنّه حققه، فسلب الأمّة فكرها، وإيمانها بإسلامها، وعاطفتها الحماسية، وشخصيتها، وبالتالي ثروتها المادية، حتى ظنَّ أنّها قد ماتت، أو هي توشك على الموت، بعد أن شدَّ وثاقها بالحدود المصطنعة، ومزّق وجودها بالتناحر القومي، والوطني، والعنصري، والتاريخي، وزرع في وجودها البؤر السرطانية الخبيثة، وأثقل كاهلها بالحكام العملاء، وسرّب إلى أوصالها سمومه الفكرية والعاطفية، وملأ حياتها بالمجون والترف والفسق [١].

وبالرغم من كلّ هذا انتج الهجوم نتيجة عكسية، فقد أيقظ الأمّة وعلّمها أنّ سرَّ وجودها هو إسلامها العظيم، وأنّها لن تجد السعادة إلاّ في ظله.

وقد كان تأثير الهجوم الغربي لصالح الصحوة على طريقين:

الأول: أنّه كشف نفسه وحضارته، وأخلاقه أمام أبناء هذه الأمّة . فلقد أثبتت كلّ الآراء والنظم التي خططها للحياة الاجتماعية فشلها، وعقمها، وغربتها عن فطرة الإنسان، وشعور المسلم وعقليته. وهي حقيقة أدركها الاستعمار تماماً قبل غيره، فراح يستر فشله بعملية الترقيع، أي عملية إلباس الأفكار الغربية لبوس العروبة والشرق والإسلام، ممّا فضح به نفسه أكثر فأكثر.

لقد أثبتت الفلسفة الغربية خواءها أمام الفلسفة الإسلامية، وأعلنت التنظيمات الغربية عن إفلاسها أمام عمق التخطيط الإسلامي. أمّا الحرية والإنسانية فلا يستخدمها الغرب إلاّ كشعارات لا مضمون لها على الإطلاق... كلّ هذا ترك أثره ـ بلا ريب ـ في التوعية من حيث لا يريد العدو.

الثاني: أنّه دفع المؤمنين الحريصين على مستقبل هذه الأمّة لاتخاذ موقف المواجهة والتخطيط الدؤوب للصحوة المباركة.

وبعد هذا الفشل لم تنفع الاستعمار كلّ أساليب التطبيع الخبيثة، ولم تجده نفعاً حتى

---

(١) إنّ من كان يرى ايران في عهد الشاه يصيبه الذهول لمصير هذه الأمّة ، واليأس القاتل من هداها، وعودتها إلى الإسلام.

الأقنعة الإسلامية، والمظاهر الخادعة التي تعلن الدفاع عن الإسلام، ولكنّها تحرف الإسلام نفسه في أذهان الأمّة ، وتفرغه من محتواه الثوري والتغييري، فإذا بعاداته طقوس واجترار عقيم، وإذا بنظمه قيود للحياة الفردية، وانزواء عن الحياة الاجتماعية.

إنَّه التحريف والتخريف، وهو أمر لا ينطلي على الفطرة التي سرعان ما تكتشف زيفه فينقلب الأمر لصالح الحقيقة.

وكان من جملة ما انكشف زيفه للجماهير المسلمة، تلك الصيغ الرجعية للحكم (الإسلامي)، وتلك الأطروحات البديلة المموّهة للوحدة الإسلامية، والتي صورتها للأمة وحدة بين الحكام، وراحت تعلن للأمة ـ كلّ يوم ـ أنَّها تسير على خطى تحقيق الوحدة. وتمرُّ أعوام وأعوام، وإذا بالأمة تجد نفسها أسيرة الخداع من أول الطريق، فلا الشخصية عادت، ولا الأرض السليبة استعيدت ولا الفوارق الظالمة الاجتماعية رفعت، بل سار الحال من سيئ إلى أسوأ، يغضب له الرب العظيم، ويفرح له الشيطان الرجيم.

نعم، فشلت كلّ أساليب مقاومة الهجوم الغربي بالأسلوب الغربي، لا لشيء إلاّ لأنّها كانت من صنع الغرب نفسه، وأنّى تنقذ الأمّة من ورطتها الحادة الأساليبُ الشيوعية أو الليبرالية.

رابعاً: الأحداث الكبرى في العالم الإسلامي وفي مقدمتها نجاح الثورة الإسلامية المباركة بقيادة الإمام العالم الزاهد الشجاع الخميني، والتي هزّت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وحقّقت حلماً كان يبدو بعيد التحقق، من شعب أعزل، لا يملك إلاّ إيمانه وقبضاته العزلاء. وقد كان لهذه الثورة المباركة، الكثير الكثير من المعطيات التي أثّرت أثراً كبيراً في تحقق الصحوة، وتناميها، وانتشارها.

وشملت تلك المعطيات الصعد الحياتية المختلفة، وأعطت الأمّة الإسلامية والعالم دروساً رائعة. إنّها أكّدت للشعوب المسلمة:

ـ قدرتها على أن تقارع أقوى القوى وتهزمها.

ـ وضرورة القيادة الحكيمة، والتفاف الشعب حولها.

ـ ولزوم تحرر العلماء من سيطرة الحكومات، ليقودوا شعوبهم.

ـ وكيف تتدخل يد الغيب في نصرة المؤمنين وإرعاب الطغاة.

ـ ونوعية ومقدار المعاجز التي يحققها الدور الفعّال للشعب المسلم، في الساحة السياسية والتشريعية.

ـ وكيف يتلاحم مبدأ قيادة الفقيه العادل ونظام الشورى، في عملية رائعة الأثر.

ـ وكيف يتحوّل كلّ التآمر الاستعماري لصالح القضية الإسلامية.

ـ وأنّ الإسلام يستطيع ـ نظرياً وعملياً ـ أن يشمل جميع الجوانب الحياتية.

ـ وكيف يتم تطهير الجو من الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية وفضح الأنظمة التي ادّعت الإسلام وخدمت قضية الاستكبار.

ـ ولزوم تقديم القرابين من أجل الإسلام، والدروس المعبرة في الشهادة والتسابق نحوها، بما لم يعهد إلاّ في الصدر الإسلامي الأول.

ـ وتحدّي هيبة الدول الكافرة (العظمى) وتمريغ أنوفها في التراب.

وقد استطاعت الثورة الإسلامية أن تهزم كلّ الأساليب القومية، والوطنية الضيّقة، والشيوعية الملحدة، والليبرالية غير الملتزمة، وكل الطروحات التي موّه الغرب بها على الأمّة الإسلامية. كما دعت إلى توحيد المسلمين ضد العدو الكافر، بأروع الخطى في هذا السبيل، وانتهجت سياسة اقتصادية مستقلة، قائمة على أساس تحقيق الاكتفاء الذاتي، فاستطاعت أن تقف على قدميها، رغم كلّ أنماط الحصار والظروف القاسية التي فرضها الاستعمار وعملاؤه، وغيّرت كلّ أساليب التعليم وأضفت عليها الصبغة الإسلامية الخالصة. وطهّرت كلّ وسائل الإعلام من أدران الانحراف والتخريف، واضعةً أسس إعلام إسلامي نزيه، واتّبعت نظاماً تربوياً إسلامياً، شمل كلّ الجوانب. ونجحت في القضاء على التناقضات الحادّة بين الفئات الاجتماعية، عاملة في سبيل الارتفاع بالطبقة المحرومة، مانعة من الإسراف وتجاوز الحد، دون أن تخرج عن الحدود الإسلامية، ولا نستطيع أن نستمر في تعداد المعطيات فهي ممّا لا يمكن عرضه بهذه العجالة.

كل هذه المعطيات وغيرها كثير كثير أحدثت ثورة في كلّ مكان، وهزّت الجماهير هزّاً، وفتحت آفاق الأمل نحو الغد الإسلامي، الأمر الذي لاحق شبحه الاستعمار وعملاءه في كلّ مكان، فراح يعيد النظر في حساباته من جديد، بعد أن أعلنت عقوله الالكترونية المعقدة فشلها في تقرير الموقف الجديد.

على أنّنا يجب أن لا ننسى وجود بعض العوامل الأخرى للصحوة، ولكنها ـ مهما تسامت ـ ثانوية جداً، لا تستطيع أن تحظى بهذا الشرف الكبير.

ديمومة الصحوة

أولاً: صيانة الصحوة

إنَّ هذه الصحوة من أعظم النعم علينا، فينبغي أن نشكر الله تعالى عليها، وشكر هذه النعمة يعني الانسجام معها، ووعيها جيداً، والعمل على تعميمها وتعميقها وديمومتها في الحياة. فالتحوّل الكبير لا يتم إلاّ في فترات الصحوة العامة، والقائد الفذ هو الذي يستطيع أن يضمن الوعي المتأجّج حماساً في شعبه لقضيته الكبرى، فإذا ما خبا ذلك التأجّج، كان ذلك ايذاناً بموت المسيرة بلا ريب. إنّ التأجّج الواعي ليحوّل كلّ العقبات إلى جسور، وكل المؤامرات المعادية الى ضربات معاكسة، يزكّي بها نفسه، وينفي عن وجوده النفايات الضارة.

ويجب أن لا تغيب عن بالنا حقيقة مهمة هي: أنَّ الإيمان قد يحصل في لحظة صحوة وبكل سهولة، ولكن الأمر الصعب هو الاستقامة على خطّه، والعمل بمقتضياته، والصمود أمام الضربات والعقبات الداخلية والخارجية. وربما كانت هذه الصعوبة هي السر الكامن في قوله ’: «شيبتني سورة هود»[1]. وذلك لمكان آية الاستقامة فيها: (**فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ**)[2].

وهكذا يمكن أن ينطبق الأمر على التحوّلات التي تحدثها صحوة اجتماعية ما، فقد يكون السيل عارماً، والثورة ضخمة بحيث لا يقف أمامها الطغاة، وقد تحدث بارقة فتعمُّ الصحوة قطاعاً واسعاً.

أمّا الأمر المهم فهو المحافظة على الصحوة، ونتائج الثورة المباركة، وإدامتها بعد أن يهدأ الطوفان، ويملك العدو الفرصة الكافية للمواجهة والتخطيط، بل وتنسحب من

(١) كنز العمال ج١، ص ٥٧٤.
(٢) هود: ١١٢.

الميدان العام عناصر فقدت فاعليتها، أو رأت الأمر على خلاف مصلحتها الذاتية، أو غير ذلك ممّا يوجد ـ عادة ـ في سبيل العاملين.

ومن هنا فإنَّ على كلّ الواعين القادة، وكل مسلم يدعو ربّه أن يجعله للمتقين إماماً، أن يجعلوا الحفاظ على الصحوة، بل وتوسعتها وتأجيجها، في طليعة ما يفكرون به، ويعملون على صيانته، وإلا فالخيانة العظمى، والتفريط المخزي، وأنَّ عليهم أن يديموا دفع عجلة النهضة الفكرية والعملية، بكل ما يملكون من طاقة، وبعد أن يحرروا وجودهم وفكرهم من سيطرة الطواغيت، والعمالة للأجنبي، فالتحرير الذاتي شرط أساس لعملية التحرير الإجتماعي.

وينبغي لهم أن لا يتوانوا في عملية ضخ الزخم الثوري في العروق النابضة. فأي فتور في ذلك يعني النكوص بلا ريب، وعندما أتحدّث عن الثورة فلا أعني إلاّ التغيير على الخط الفطري الصاعد، والذي تتلاحم فيه العقيدة والمفاهيم، والعواطف والأعمال، وهو ما أشرنا إليه آنفاً.

ثانياً: الصحوة والتطرُّف

لابدّ أن ننبه إلى أنَّ هناك أعراضاً قد تصاحب عملية الصحوة، أو عملية الثورة، ينبغي للعاملين أن يلتفتوا لها:

فمن أعراض الصحوة ما قد يبدو لدى بعض الأشخاص من تطرُّف في تقييم الجهاد، حتى ليرفض الدخول في أي حوار فردي بنّاء، أو حكم لسلوك خاص، بحجّة الانشغال في عملية الجهاد، بل قد يكون التركيز كله على نصوص الجهاد، مع إهمال النصوص الأخرى. وما هي ـ جميعاً ـ إلاّ أجزاء لنظام فكري وعملي متلاحم، لا يتم عطاؤه إلاّ بالتركيب والتناغم والانسجام، وقد ابتلينا في ايران وغيرها بأناس جهلة، تصوّروا أنّ الإسلام ينحصر في هذا المعنى، وانحرفوا إلى الحد الذي نبذوا معه الإسلام نفسه، وانخرطوا في المسلك اليساري الالحادي.

كما أنَّ من أعراضها على الصعيد الاجتهادي أن يفرط المرء في التجديد، حتى لينبذ الأسس القويمة التي أسّسها القدماء من المفكرين المسلمين، وحتى ليتصوّر الإنسان أنَّه ينبغي أن ينفصل عن كلّ تراثه، بحجّة الصحوة الجديدة.

إلا أنّ الصحوة إذا امتلكت قيادتها الوعي، وأحست في شتّى مجالاتها بالشمول الإسلامي والتفاعل الإنساني، كهدف إسلامي، لم تنحرف إلى مجالات التطرُّف.

على أنّنا يجب أن لا نغفل أمراً آخر هو أنَّ الكثير ممّا توصم به الصحوة الإسلامية اليوم من تطرّف يعبّر عن لؤم، أو تقاعس، أو تخطيط خبيث للقضاء عليها، أو استسلام لفهم جامد، أو لهوى حاكم فاسق، أو ما إلى ذلك من الأدواء التي يصاب بها بعض الناس.

ثالثاً: الصحوة والتهم

رأينا أنَّ صحوة الأمّة الإسلامية أمر حذّر منه دهاقنة الكفر على مرّ العصور، بعد أن أدركوا أنَّ الإسلام إذا انطلق من عقاله تحمله جماهيره الواعية فلن يبقى لنظمهم ومصالحهم وخططهم المستقبلية باقية، وقلنا إنَّ الاستقامة على الصحوة هو الأمر الأصعب، بعد أن تنتشر الشبهات، ومن هنا فقد بدأت التهم الاستكبارية تنهال، وتتشكل بأشكال مختلفة، ورحنا نستمع إلى عبارات من قبيل: الفئة التقليدية، الفئة الرجعية، الفئة التي تخرق الأعراف الاجتماعية، الفرق الانتحارية، الإرهاب الإسلامي، وما إلى ذلك.

وإذا كانت التهم قد استطاعت أن توقف مسيرة الإسلام العظيم الهادرة في الصدر الأول، فإنَّها تستطيع أن تؤثّر أثرها اليوم، أما والوعي الثوري الأصيل ينتشر، والجماهير حاضرة في الساحة الإسلامية العامة، والمفكرون الواعون يتصدون لنشر الحقيقة، فإنّ كيد الشيطان الأكبر، والشياطين الصغار، يرد إلى نحورهم بلا ريب، بفضل الله تعالى وعنايته.

رابعاً: الصحوة الاسلامية والاحتواء

عملية الاحتواء ثم التحريف هي من أخطر العمليات التي واجهها الإسلام خلال تاريخه الطويل، وهي ـ نفسها ـ أخطر ما تواجهه الصحوة الإسلامية اليوم... لقد تمثّلت الصحوة في عطش جماهيري حاد لتطبيق الإسلام على كلّ شؤون حياتها، وطرحه على الساحة العالمية مبدأ يهزم أمامه كلّ المبادئ المنحرفة، ويعمل على نفي كلّ البؤر الطاغوتية في الحياة والمسيرة... وما أن أحس الاستكبار بأنّه لا يستطيع أن يواجه هذا السيل حتى خطّط لاحتوائه أو امتصاص كلّ ذلك الشوق الجماهيري من خلال مسرحيات وعمليات وشعارات برّاقة تخلب الألباب، دون أن تحمل مضموناً خاصاً، وصرنا حينئذ نشهد على الساحة الإسلامية اتجاه الكثير من الأنظمة لطرح الإسلام، وإعلان الكثير من الحكّام التدين المصطنع، وعقد الكثير من المؤتمرات الضخمة المترفة باسم الإسلام، بل وتشكيل المنظمات الدولية (الإسلامية)، وتفرعها الأخطبوطي، بما يشمل مختلف الجوانب، بحيث ينبهر المرء المسلم عندما يواجه هذا العمل الإسلامي الضخم، وراحت القرارات تصدر الواحد تلو الآخر، لتعبّر عن الطموح الموحّد، بل وأُنشئت عدة تنظيمات وجمعيات كبرى، باسم العمل على حمل هم الإسلام الى العالم. هكذا شهدنا تتابع الرجوع إلى الإسلام من قبل الأنظمة، حتى أُتخمنا بهذا الحديث.

وظنَّ الاستكبار أنَّه يستطيع من خلال ذلك خداع الجماهير المسلمة، وامتصاص شوقها، وزاد في تصوّره هذا انجذاب بعض الأفراد والفئات إلى اللعبة.

أما الحقيقة فبقيت كما هي ناصعة بعد أن شهدت الجماهير المسلمة هذا الهوان والتراجع المتزايد أمام العدو، وهذا البيع المتزايد للثروة وتقوية العدو، وهذا الترف والسرف والفجور الذي يمزّق الحجب والأقنعة، وهذا التآمر السافر على الأمل الإسلامي الجديد، وهذه الفوارق الطبقية الهائلة، بل وهذه المذابح هنا والمراقص هناك، وهذه المجاعة هنا والتخمة هناك، «وما جاع فقير إلاّ بما متع به غني»[1] كما يقول أمير المؤمنين علي.

(١) نهج البلاغة ج٤، ص٧٨.

وكلمة أخيرة نقولها لهؤلاء الذين يقفون في وجه الصحوة: إنَّ الله تعالى أذن لعصر العودة أن يبدأ، ولمسيرة الإسلام الحاكم أن تنطلق، ولن تستطيع كلّ أنماط التآمر والخذلان، والتهم والاحتواء، أن توقف الزحف الإسلامي المقدس.

كما أقولها لجماهيرنا الإسلامية الواعية: إنَّ علينا أن نطمئن دائماً إلى نصر الله وعونه ـ تعالى ـ فإذا ما حققنا في أنفسنا قابلية الفيض الإلهي، فإنَّه تعالى فياض لا ينقص فيضه ولا يبخل به، ولتعلموا أنَّ العقبات والضربات أمر طبيعي في المسيرة، بل هي مصدر قوة، إذا وعينا كيف نتلافاها، أمّا الألم والقرح فهو أمر يصيبنا كما يصيب العدو في حين نتفوّق عليه بالأمل العظيم بالله تعالى، وهو أعظم دافع للنصر والفوز:

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللّهِ ما لا يَرْجُونَ) [1].

الصحوة الإسلامية بين الترشيد والتضليل

قضية الصحوة الإسلامية ـ اليوم ـ هي الشغل الشاغل للاستكبار العالمي، ولكل العملاء الذين نصبهم قيوداً على حركة هذه الأمّة ، كيف يجهضها؟ وكيف يفرغها من محتواها؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى، هي تشكّل القضية الرئيسية للواعين الداعين إلى الحق، كيف يرشّدونها ويزيدون من حرارتها، ويستثمرون فرصتها لإعادة الإسلام إلى واقع الحياة؟

فهي إذن قضية كبرى، وهناك إذن اتجاهان:

ـ اتجاه الإجهاض والاحتواء.

ـ واتجاه الترشيد والتصعيد، الفكري والعاطفي.

أمّا اتجاه الترشيد والتصعيد، فتقوده قيادات العمل الإسلامي وفي مقدّمتها الثورة الإسلامية المباركة وقائدها العظيم؛ لأنّها كانت أعظم الأسباب في إيجاد هذه الصحوة. وهذا الاتجاه المبارك يمتدُّ إلى القلوب، وخصوصاً الواعية القوية الشابة

(١) النساء: ١٠٤.

منها، فلا توقف إشعاعه الفكري والحماسي سدود أو حدود، بل ينغرس في أعماقها، ويمتدُّ كشجرة طيبة، ويفرع ويثمر، وعياً وحماساً وانشداداً للإسلام، ونقمةً على أعدائه، وملاحقةً لنظم الكفر، وضغطاً على الحكام العملاء؛ كي يقلعوا عن عمالتهم.

وهذا الامتداد والتوسُّع هو مصدر القلق العظيم الذي طفح على ألسنة المسؤولين في دول الإستكبار العالمي، فراحوا يخططون ويخططون، لبلورة الاتجاه المقابل له، اتجاه الاحتواء والتوجُّه المنحرف، وتفريغ الشحنة دون التعرُّض للخطر، فما هو الأسلوب الذي أعدّوه؟

إنَّهم رأوا المقاومة عقيمة، وأنّ الصحوة والثورة آتية، فيجب الالتفاف عليها، من خلال العملاء المزروعين هنا وهناك، أو من خلال المخدوعين، وطيبي القلب إلى حد السذاجة. فكان الأسلوب هو محاربة الثورة الإسلامية من خلال الأساليب الدينية نفسها، تماماً كأسلوب الإسرائيليات الذي حاول أن يضرب الإسلام بأساليبه وبطرقه هو. وتنوّعت تطبيقات هذا الأسلوب:

فمنها: عقد المؤتمرات والندوات الإسلامية من جهة، وتقليل الشكل الظاهري للانحراف من جهة أخرى، مع التركيز على التضليل الخفي.

ومنها: طرح الأفكار الاستسلامية، وأنصاف الحلول، والاستشهاد بالنصوص الإسلامية، مع فصلها عن واقعها وشروطها الصحيحة.

ومنها: اتّهام أولئك الذين لا يستسلمون بالتطرُّف، والهمجية والتقليدية، والرجعية، والخروج على طريقة السلف، وعصيان أولي الأمر، وشقّ عصا المسلمين، متناسين أنّ بعض الحكام اليوم يمثّلون معاول تحطّم الوحدة الحقيقية، وعقبات كبرى في سبيلها.

وكانت أهم الأفكار مكراً الفكرة التي دعت الى مدّ الجسور بين الحكّام والشباب المسلم الناهض على حساب الإسلام نفسه ومع التنازل عن مقتضياته، بل وربما طلبت من العملاء أن يكونوا هم الجسور بين هاتين الشريحتين المتنازعتين اليوم، فلا يخيفوا أي طرف من الآخر، ويهدئوا من ثورة هذا وعنف الآخر، لكي تمرَّ الأزمة بسلام!

ولكن ماذا يعني ذلك غير ترسيخ أقدام الحاكمين بعد أن تزلزلت الأرض تحتهم، وغير تكريس عمالتهم للأجنبي، وغير إجهاض هذه الصحوة واحتوائها بالأساليب التي

تنصبغ بالصبغة الدينية؟ وماذا تعني غير إرجاع العجلة إلى الوراء بعد أن توافر الجو المناسب لكي تتقدّم إلى غدها الإسلامي المشرق، غد الحكم الإسلامي في كلّ الأرض الإسلامية، غد تطبيق الإسلام في كلّ شؤون الحياة، وغد مقارعة الطواغيت الكبار، وتحقيق حلم الأنبياء؟

وعلى أية حال؛ فما أن أعلن عن عقد مؤتمر الصحوة الإسلامية في الجزائر، حتى رأينا التنظير (الإسلامي) الكاذب يبثُّ هذه الفكرة بين العقول، ويطلب من كلّ المرتزقين أن يتّبعوا هذا الخط، وهكذا طلعت علينا مجلة (المجلة) وفيها ما يناسب كلّ ذوق من (الفنانين والراقصين إلى العلماء والمحققين) في عددها ٢٢٩ والمؤرخ ٣٠/ حزيران ـ ٦ تموز/ ١٩٨٤ الموافق ١ ـ ٧/ شوال/ ١٤٠٤ هـ (أي قبيل انعقاد المؤتمر تماماً) طلعت لترسم لنا الخط المذكور تماماً، وأنّ من طالع ما كتبه المنظّر الديني لمجلة (المجلة) يدرك أبعاد التآمر ـ الآنف الذكر ـ إذ كتب تحت عنوان: حسن النية في علاقة الحكام ودعاة الإسلام:

لابد من كسر تلك السلسلة النكدة من الفعل ورد الفعل في العلاقة بين الحركة الإسلامية ودعاة الإسلام من جهة، والسلطات الحاكمة من جهة أخرى، فهي ـ كما أسلفنا القول ـ سلسلة لا تجرّ إلاّ إلى الأحقاد والعداء، بل تزيدها وتواصلها، وهذا أمر يعود بالضرر على الطرفين في هذه العلاقة، ويعود بالضرر الكبير على الأمّة كلها، ولا يفيد إلاّ أعداء الأمّة . (أما التسليم والحل الوسط فهو في صالح الأمّة وليبق الوضع على ما هو عليه)[1].

ولكن كيف يتم الخروج من هذه السلسلة، وحلقاتها المتتابعة المشؤومة، وقد أوجدت ما أوجدته من مشاعر تبدأ بعدم الثقة ولا تنتهي عند التوجّس والخوف الذي يساور كلاً من الطرفين؟ [وإنما تسير إلى حد الثورة ضد الظالمين] .

إذا عرف كلّ من الجانبين ما يريده الجانب الآخر، واعتبره حقاً مشروعاً له،

(١) تعليقات المؤلف وضعت بين قوسين معقوفين [....]

واستطاع أن يقنع نفسه بأنّه يستطيع التعايش مع هذا الحق، أمكن أن ننتقل إلى الخطوة التالية، وهي بذل محاولة لإحلال حسن النية، في نفس كلّ من الطرفين تجاه الطرف الآخر، محل التوجّس والخوف وعدم الثقة، بل ومحل التفكير بالإساءة والأذى، ثم تنفيذ ذلك، أي لابدّ من نقض ما يحدث في البلاد العربية منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

ترى ما الذي تريده أية حكومة من أية مجموعة من المواطنين في بلادها، لا تشاركها الرأي، ولا تقتنع باسلوبها في الحكم؟ لو ذهبنا نسأل لأتانا الجواب أن الحاكم يريد أن يطمئن أولاً إلى أنه غير مستهدف بشخصه أو نظامه من قبل تلك المجموعة [فلا يُسأل ولا يُنتقد، كيفما حكم، ومهما فعل] ،

ويريد بعد ذلك أن يلتفت إلى تنفيذ برنامجه دون معوقات غير مشروعة(!)

وهكذا تتلخّص المسألة في استمرار الحاكم في السلطة وتطبيق البرامج لا غير...، [وليست هناك أية أهداف استعمارية والحمد لله!!] .

أمّا الذي تريده الحركة الإسلامية ودعاتها فهو ـ على ما يردده رجالها وقادتها ـ أن تبلّغ دعوتها للناس بحرية ليكون أمامهم الخيار مفتوحاً بكل حرية، فإما أن يقبلوا دعوة الإسلام أو يرفضوها، وأن يكون دعاة الإسلام أحراراً في مخاطبة الناس ليبينوا لهم خير الإسلام ومزاياه، دون أن يخافوا عسفاً واضطهاداً من جانب السلطة، بل يجدوا الأمن والطمأنينة على أنفسهم وأسرهم وهم يقومون بمهمتهم هذه، فالهدف هو حرية الدعوة لا غير [أمّا العمل على تطبيق الإسلام ونفي الظلم فهو غير منظور] .

ومعنى هذا أنّ المطالب الأساس لكلٍّ من الطرفين هي الأمن وحرية العمل، كلّ في مجاله، وليست هذه المطالب بالتي يصعب الاتفاق عليها، أو تنفيذها، إذا ما توفر حسن النية لدى الجانبين، وتوفره ليس بالمطلب العسير، أمّا على صعيد الدول فقد كانت الدول والأقوام تتخاصم وتتحارب، وتستمر الحرب بينها سنين طويلة، ثم تصطلح فتحسن علاقاتها، وتحل الصداقة محل العدواة القديمة، ويكفي أن تنظر إلى وضع ألمانيا مع فرنسا وبريطانيا اليوم. وأمّا على صعيد الأفراد فالمسألة تنطبق بشكل أوضح، والمثل يقول: لا تأتي الصداقة إلاّ بعد عداوة، والمقصود أنّ الصداقة الحميمة هي التي تأتي بعد العداوة،

[والمطلوب هو الصداقة الحميمة مثلاً بين ببرك كارمل والمجاهدين، وشاه ايران والثورة الإسلامية] .

فأمّا الأمن فالمفروض أنّه متحقق أصلاً. فواجب الحكومة أن تكفل الأمن للمواطنين، ودعاة الإسلام فئة من المواطنين اختارت دين الله منهاجاً ودستوراً وأحبت أن تدعو الناس إلى الخير الذي يشتمل عليه هذا الدستور، وليس في اختيارها ما يخرج بها عن دائرة من يجب على الحكومة أن تكفل لهم الأمن. ومع توفّر حسن النية المتبادل لا يبقى سبب يمكن أن يساق في تبرير حرمان دعاة الإسلام من الأمن.

وأمّا أمن الحاكم على نفسه ونظامه من دعاة الإسلام، فقد ذكرنا من قبل أنّ الاغتيال السياسي ليس من الأساليب التي تنتهجها الحركة الإسلامية، كما أنّ فكرة الانقلاب غريبة على حسها، إذن هنالك أمن مبدئي للحاكم ونظامه، بالرغم من حوادث الاغتيال التي وقعت فعلاً، فتلك كانت ـ كما بينا ـ عمليات فردية استهدفت رد اعتداء على الإسلام نفسه، أو كان ذلك من أوهام القائمين بتلك العمليات، وعلى أي حال، فإنّ العمليات الفردية لا يحسب لها حساب في هذه المبادئ العامة.

ولا يمكن أن يؤخذ قطاع من المواطنين بجريرة أفراد، لمجرد الاشتراك في الفكرة العامة والمبدأ، ثم إنّ إحساس كلّ من الطرفين بأنّ الآخر يبادله حسن النية أكبر ضمان لعدم تكرارها.

وحرية العمل كذلك يفترض أن تكون متحقّقة، فنحن نفترض في أية حكومة تقوم في بلد إسلامي أن لا تعادي الإسلام، وأن لا تسعى إلى إخماد صوته، وطالما أنّ الحركة الإسلامية تجعل هدفها تبليغ دعوة الإسلام فإنّ المفروض ـ نظرياً ـ أن لا تحول الدولة بينها وبين هدفها هذا [نعم، إذا كان هدف الحركة الإسلامية هو الوعظ فقط فما الضرر منه؟] .

وأما حرية الحاكم في العمل فإنّ الأصل أنّ للحاكم على الأمّة حق النصح، فالدين كما يقول رسول الله ’: «هو: (النصيحة)» وعندما سئل «لمن؟» أجاب ’: « لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [وهكذا يعدُّ هؤلاء العملاء أئمة للمسلمين] فالحاكم ـ كلّ حاكم ـ يحتاج إلى النصح الأمين ليتجنّب المزالق والكوارث التي تعود بضررها على

الأمّة ، والمفروض أنّ النصح للحاكم حق الأمّة وواجبها، فإذا وجد دعاة الإسلام من الحاكم أنّه يستمع إلى نصح الأمّة ، وهم ـ كقطاع من الأمّة يستطيعون تقديم النصح له، فما يطالبونه بعدها بشيء، قبل نصحهم أو رفضه [فالنصيحة ـ أنّ لم تستتبع مخاطر ـ هي أقصى هدف] .

هنا قد يقول قائل: «وهل نسيت أن دعاة الإسلام يجعلون هدفهم تطبيق شريعته، وهو أمر قد لا يرضاه الحاكم، أو لا يحدث هذا تناقضاً بين الطرفين يجلب العداء والخصومة؟»[1].

أمّا جواب السؤال فيتحفنا به (هذا المنظّر) بعد هذا المقال في الأعداد التالية يتلخّص في السعي لإقناع الحكام بضرورة التغيير، وأنّه أنفع لهم، ثم يكتب:

«وإذا تمّ ذلك فقد تجاوزنا المرحلة الصعبة بكل نجاح».

والواقع، أنّنا لا ندري أيّها أشدّ خطراً على الصحوة الإسلامية، هل المساومة النصفية مع حكّامهم هؤلاء، أم اتجاه حكامهم نحو تحقيق المثل الأعلى المضروب، حيث تتحوّل الأرض الإسلامية إلى بقرة حلوب ذلول للاستكبار وعملائه المفضوحين؟! أما الذي نعلمه ـ جيداً ـ فهو أنّ كلّ هذه الأساليب التي نبذتها أمتنا الإسلامية وكل هذا (التخدير الإسلامي!) قد انتهى مفعوله أمام وعي جماهيرنا الإسلامية لطريقها ولأهدافها وللعقبات المزروعة في هذا الطريق، وإن صبح الإسلام سيتنفس بعد ليل الغفوة البهيم.

ومع هذا فإنّنا نؤكّد أنّ ردم الهوة بين الحكام والمحكومين إذا كان يؤدي إلى خدمة القضية الإسلامية فنحن معه بكل قوة.

---

(١) مجلة (المجلة)، العدد ٢٢٩.

(ب)

الإمام الخميني (رحمه الله) والصحوة

مقدمات

أولاً: أنّ الإمام، وإن كان شخصاً عظيماً، إلاّ أنّنا هنا لا نبحث عن جوانب العظمة فيه بقدر تلمّسنا لأبعاد رؤيته للواقع، وبرنامجه لتطوير هذا الواقع، ومدى تحقيق هذا البرنامج واقعاً، أو مدى ما يمكن تحقيقه منه مستقبلاً، وذلك لكي نتخذه مثلاً وقدوة في مسيرتنا الجهادية، في مجال زرع بذور الصحوة أو إيجادها أو ترشيدها في أي منطقة من عالمنا الإسلامي، أو بالأحرى من امتدادنا الإسلامي حتى في المساحات الأخرى.

ثانياً: ممّا لا ريب فيه أنّه (رحمه الله) كان يمتلك تصوّراً متكاملاً عن قضية الصحوة بكل أبعادها، وهو ما يشهد له استقراء كلماته ومواقفه وخططه الثورية. فالمتتبع لكلماته في مطلع دخوله ساحة العلن الكلامي، وقيامه بتأليف كتبه يشهد وحدةً في نمط الكلام من الوضوح والنفوذ إلى عمق المشكلة القائمة والتركيز على التركيبة الروحية للفرد والمجتمع ـ من جهة ـ وعلى سرّ المشكلة من جهة أخرى.

والمتتبع لمواقفه يجدها وكأنّها تشكّل خطوات متتابعة مرسومة من قبل، تتناغم مع الظروف، وتتصاعد مع الحوادث، إلاّ أنّها كلها يربطها خيط واعٍ واحد، ولا أدل على ذلك من استعراض مواقفه من نفسية الشعب الإيراني، من جهة، والنظام الشاهنشاهي القائم من جهة أخرى.

وهكذا يمكن ملاحظة تخطيطه الحديث الذي سار بعملية التوعية الفكرية منذ البدء

وحتى الختام، والذي استهدف إثارة الحماس الثوريّ بالمدى المتناسب مع ما تسمح به الظروف المتغيرة والمناسبات الإسلامية، ومن ثمّ التخطيط لتحويل ذلك الحماس إلى فعل جماهيري حاشد مزق كلّ حسابات الكمبيوتر البشري، وبالتالي صنع أروع ثورة عرفها التاريخ المعاصر، حيث انفلت الشعب الإيراني المسلم من طوق الهيمنة العالمية عليه.

ثالثاً: أنّ الإمام يؤمن تماماً بمبدأ (تصدير الثورة) وهو أمر لا يمكن أن ينكره أحد على الرغم ممّا حاوله بعض الناس مما يعبّر عن انهزامية أمام النقود المطروحة. إلاّ إنّه لم يكن ليقصد الصورة التحريفية التي منحها إياه الإعلام الغربي، أي صورة التصدير بالسلاح وإيجاد الانقلابات العسكرية وما إلى ذلك. إنّه كان يركّز على الجانب الثقافي والحماسي في آن واحد، فهو يقول (حين يتحدث مع سفراء الاقطار الإسلامية بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ):

«إنّنا نعتبر الاقطار الإسلامية جميعاً جزءاً من وجودنا دون أن يعني ذلك أن تفقد وجودها المستقل، وإنّما نريد لها أن تتمتع بما تمتّع به الشعب الإيراني من مزايا الخلاص من براثن القوى الكبرى، وقطع أيديها عن منابعه الحياتية، نريد لهذه الحالة أن يتّسع مداها لتشمل كلّ الشعوب، إنّنا نعني بتصدير الثورة أن تستيقظ كلّ الشعوب وكل الحكومات وتتخلّص من قيود التبعية والتسلط».[1]

وفي حديث آخر يقول سماحته وهو يتحدث إلى سفراء الجمهورية الإسلامية:

«إنّنا ثرنا لنحيي الإسلام، ومن ثم لنصدر الثورة ـ بمشيئة الله ـ إلى كلّ مكان، ذلك أنّنا أخوة وأحبّة، ممّا يزيد فينا الأمل للعمل سوية وبكل ما نستطيع لتعميم هذا الجهاد وتحقيق هذا الهدف».[2]

بل كان (قدس سره) يرى أنّ بالإمكان تعميم هذا التصدير إلى كلّ الشعوب فيقول بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ:

«إنّنا إذ نعلن عزمنا على تصدير الثورة إلى كلّ الأقطار الإسلامية بل كلّ الأقطار

(١) كتاب (كلام الإمام) ج١٥، ص٣١٧.
(٢) كلام الإمام ج ١٥، ص ٣١٧.

التي يرزح فيها المستضعفون تحت نير المستكبرين، فإنّما نريد من ذلك أن نحيي في الشعوب روح التحرك ضد المستكبر الفتاك، ونردم تلك الهوة بين الشعب والحكم المسلط عليه».[١]

فالتصدير – إذن – يعني (تصدير نموذج في إيران) وهذا يعني بدوره تصدير الخصائص المشتركة أو التي يمكن لها أن تمتدّ إلى أنحاء العالم الإسلامي، وتجريدها من المزايا المحلية الخاصة.

والذي نريد أن نخلص إليه أنّ الإمام الخميني إذ يتحدّث عن الثورة الإسلامية في إيران وعن مزاياها وخصائصها ودوافعها، ومحركاتها ونتائجها وعوائقها وموانعها، فإنّه إنّما يتحدّث عن مسيرة الصحوة الإسلامية عبر مصداق من مصاديقها وتطبيق أمثل لها في إيران، وهو بالتالي يبرز نظريته العامة في مجال الصحوة الإسلامية، وإلاّ فما معنى التصدير؟ ومن هنا نجده – رحمه الله – يؤكد مثلاً أنّ ما نشاهده من تخطيط لضرب الثورة إنّما هو تخطيط لضرب الإسلام والصحوة الإسلامية عموماً، والقضاء على كلّ أملٍ للجماهير المسلمة في صياغة تشكيلة حكومية إسلامية في أي مجال آخر.

فهو يقول مخاطباً مجموعة من الأخوة الباكستانيين في خريف عام ١٩٨٠:

«هل تتصوّرون أنّ هدف الخطط الاستعمارية هو القضاء على إيران؟ كلا، إنّ الهدف هو القضاء على الإسلام، فليس الأمر يقتصر على قطر واحد فحسب، إنّه يعمُّ الأقطار الإسلامية جميعاً».[٢]

ومن هنا جاز لنا أن نعمّم حديثه إلى مجموع العالم الإسلامي حتى ولو كان يتحدّث عن الثورة الإسلامية في إيران وعواملها ونتائجها.

رابعاً: أنّنا إذا شئنا أن نتعرّف على منهج أو خطة أو أبعاد شخصية معينة فلابدّ من تتبع أقوالها وأفعالها وتقريراتها، لنقوم – بعد التأكُّد من دلالاتها – باستنباط مجمل

(١) المصدر نفسه ص٣١٦.

(٢) كلام الإمام ج١٥، ص٤٦ – ٤٧.

الأبعاد، ومعرفة أجزاء النظرية المتكاملة، وهذا بالضبط ما يجب أنّ نفعله عندما نحاول اكتشاف مذهب معين أو نظامٍ عام للإسلام. ذلك أنّ علينا أن نكتشف هذا من خلال مجموعة النصوص النظرية أو المفهومية المطروحة، والأحكام المتفرقة المبنية على ذلك المذهب أو التي تشكل أبعاد النظام، وبالتالي أن نلاحظ نوع التطبيقات الفعلية التي قبلها الإسلام ونفّذها في الحياة. وبنفس هذا الأسلوب نستطيع أنّ نكتشف أبعاد الشخصيات المنظّرة، ونعرف مجمل نظراتها إلى الواقع والحياة، وهذا ما نرجو أن نتبّعه في دراستنا السريعة هذه، راجين التوفيق.

حقيقة الصحوة

قلنا إنّ أمتنا الإسلامية مرّت بفترات زمنية طويلة، عمّتها غفوة، وشملها تخدير وضياع مقيت، يهتزُّ له القلب ألماً.

فالفهم الإسلامي الصحيح غير متوفر، إلاّ على صعد فردية محدودة المجالات، وحينئذ فمن الطبيعي أن لا تجد تعاليم الإسلام المحيية للنفوس مجالها الطبيعي المؤثر في القيام ببناء النفوس والمجتمع.

والتجزيئية تعمل عملها الخبيث في تمزيق الفرد المسلم من كلّ الجهات، فهو ممزق في رؤيته الكونية، وقد أراد له الإسلام أن يتخذ رؤية واحدة تجاه الأشياء. وهو ممزق في شخصيته، حائر بين الالتزام بقوانين السماء والاتجاه مع الواقع الفاسد، والولاءات متعددة وآلهة التاريخ والتمدن، والعنصرية، والقومية، والوطنية، تمزق وجوده؛ هذه المفاهيم كلها سوف نشهدها في كلمات الإمام الخميني وهو يتحدّث عن إيمانه بمستقبل الصحوة، ومظاهر الصحوة وثمارها، وعواملها وأسلوب ترشيدها والحفاظ عليها والأخطار التي تواجهها من قبل أعدائها.

فمن الظواهر التي أكّدها الإمام الخميني في كلماته، وسعى بجد لتحقيق الإيمان بها في ذهن الجماهير، موضوع الإيمان بمستقبل الصحوة الإسلامية، بحيث لا تشوبه أية شائبة ولا يساوره أي شك في تحقيق هذا الغد المرتقب، وطبيعي أنّ الأمل الكبير يلعب دوره في تحريك الهمم نحو صنعه ويشد العزيمة على تحقيقه.

فنجده تارة يذكّر بالوعد الإلهي الذي لا يتخلّف مطلقاً، باعتباره قاعدةً لهذا الأمل الكبير، فيقول في رسالته التي وجهها بمناسبة قيام الجمهورية الإسلامية وذلك بعد أشهر من نجاح الثورة الإسلامية:

«إن الله تعالى قد وعد بانتصار المستضعفين على المستكبرين بتوفيقه ووعده وجعلهم أئمة، وها هو الوعد الإلهي يقرب من تحققه، إننا لنأمل أن نشهد نحن هذا التحقق».[١]

وأخرى تنبّأ بالانتصار حتى على القوى العظمى، فيقول في حديثه لمجموعة من أعضاء حركة أمل اللبنانية (أواخر عام ١٩٨٠):

«يجب أن نحذف من قاموسنا منطق الهزيمة القائل بأنّنا لا نستطيع الالتحام مع القوى الكبرى. إنّكم إذا شئتم حققتم ما تريدون بإذن الله».[٢]

ونجده (رحمه الله) تنبّأ بسقوط المعسكر الشيوعي وانهياره بسرعة، وذلك قبل تحقق هذا الانهيار الذي نشهده، فقد أرسل رسالته المشهورة لغورباتشوف في مطلع عام ١٩٨٩ وهي إحدى الرسائل النادرة التي بعثها إلى زعماء الدول، وقد قال له فيها بالحرف الواحد:

«إن البحث عن الشيوعية ينبغي أن يتوجّه من الآن فصاعداً إلى متاحف التاريخ».[٣]

وربما كانت هذه الرسالة من أعظم الوثائق التي تؤكد لنا أنّ المؤمن الصادق ينظر بعين الله تعالى فيفتح الله له آفاق الحقيقة.

ومن ثم نجده (رضي الله عنه وأرضاه) يركّز عنصر الإيمان بنمو الانتفاضة الإسلامية في كلّ مكان، ويبشر دائماً بانفتاح الآفاق أمام الصحوة بعون الله.

ففي عام ١٩٧٠ يجيب على رسالة للطلبة الجامعيين المسلمين في أوروبا فيقول:

«إنّني ـ على الرغم من شيخوختي وعدم حصولي على ما كنت آمله ـ لآمل بكل ثقة أن تستمر شعلة هذه النهضة التي انطلقت في السنين الأخيرة بتأييد الله تعالى وأدت للتقارب بين العلماء والمثقفين».[٤]

(١) كلام الإمام ج١، ص٢٤.
(٢) المصدر نفسه ج١٥، ص٢٦١.
(٣) مجلة التوحيد، العدد ٥٣، ص٧.
(٤) كلام الإمام ج٦، ص٢٨.

ويتحدّث الإمام الخميني عن الثورة الإسلامية وانتصارها عام ١٩٧٩ فيقول:

«لقد تحقّق ذلك على الرغم من الحسابات المادية التي كانت تطرح استحالة أن تنهار قوة تقف القوى كلها مساندة لها، وحتى الحكومات المنتسبة للإسلام أيضاً كانت تقف موقف الدعم لها ولكنها انهارت بالتالي».[١]

ويقول في كتابه الرائع (ولاية الفقيه) والذي كان الموجّه الكبير لقيام الثورة الإسلامية:

«أنت أيّها الشعب إذا أصررت على الطريق المستقيم وقمت بالأمر فإنّك ستمسك أزمّة الأمر بيديك، وستصدر منك الأمور وإليك تعود، وإذا تحققت الحكومة التي أرادها الإسلام فإنّ الحكومات الفعلية في العالم لن تستطيع الوقوف أمامها».[٢]

ويقول أيضاً مخاطباً الطلبة الجامعيين في أمريكا وكندا في ١٧/ رمضان/ ١٣٩٥هـ:

«إنّ نقطة الوضوح التي تزيدني في أواخر عمري أملاً تتركّز في هذا الوعي واليقظة التي تسري في هذا الجيل الشاب، إنّها روح سارية بكل سرعتها وهي بحول الله تعالى ستصل إلى نتائجها الحتمية فتقطع أيادي الأجانب وتبسط العدالة الإسلامية» [٣].

وفي بيان أصدره إلى عموم الشعب الإيراني في عام ١٩٧٢ ـ أي قبل سبع سنوات من الانتصار ـ يقول:

«إنكم تملكون طاقات شابة عظيمة تستطيع أن توصل الإسلام والبلاد إلى أوج العظمة والعزة وتقطع أيدي الجناة عن البلاد الإسلامية وبلدكم أنتم، تلك الطاقة التي لو بذلت في طريق الحق لتحوّلت إلى طاقة أبدية واتصلت بالقدرة الإلهية الأبدية... فاستيقظوا وأيقظوا الغافلين.. عودوا أحياءً وامنحوا الحياة للأموات، وانطلقوا تحت لواء التوحيد لتطووا ملف الاستعمار بنوعيه الأحمر والأسود».[٤]

ويقول في لقائه الضباط الباكستانيين أوائل عام ١٩٧٩:

(١) المصدر نفسه ج١٥ ص٦٦.
(٢) كلام الإمام ج١٠، ص٣١.
(٣) المصدر نفسه ج١٠، ص٦٩، ونداء الثورة، ص١٩٨.
(٤) المصدر نفسه ج١٠، ص٦٥ (الخميني والثورة) ص١٠٢.

«على المسلمين أن ينهضوا، فهم منتصرون في نهاية المطاف وسينتصرون.. وإنّ أمريكا لن تستطيع أن تقف في قبال المسلمين».[١]

وهكذا نجده مطمئناً واثقاً بمستقبل الصحوة الإسلامية، ساعياً بكل قوة وبمنطق سليم لتعميق هذا الإيمان في نفوس أبنائه الثوّار.

ومن غريب الأمر أنّ الاستعمار حاول أن يتغافل عمق الصحوة الإسلامية، ومدى اتساعها، بل الأغرب من ذلك أن نجد بعض المنتمين إلى المدرسة الرجعية يحاولون جاهدين إنكار حدوث صحوة إسلامية مطلقاً.[٢]

والإمام يعتبر هذه الغفلة الاستكبارية تغافلاً يجب على المسلمين أن يردوا عليه رداً عملياً.

فهو يقول في جوابه على الرسالة التي وجهتها إليه المنظمات التحررية في أنحاء العالم والتي عقدت اجتماعها في الجزائر أوائل عام ١٩٧٩ ما يلي:

«إنّنا نعدُّ عدم إدراك عمق النهضة الإسلامية في العصر الحاضر والجيل المعاصر أحد الأخطاء الكبرى للسيد كارتر وأمثاله، وأنّ على الشعوب الإسلامية ـ عبر وحدتها الإيمانية المستمدة من الله ـ أن تخرج هؤلاء من غفلتهم.

فيا أيها المسلمون في أنحاء العالم ويا أيها المستضعفون الثائرون، ويا أيها البحر الإنساني اللامتناهي، انهضوا ودافعوا عن كيانكم الإسلامي والوطني».[٣]

ولكن لم هذا التغافل والتجاهل؟ الحقيقة هي أنّه يستهدف أن لا تعي كلّ الجماهير حقيقة ما يحدث، وإلاّ فإنّ النهضة ستسري سريان العافية في العروق اليبيسة، والنار في الهشيم، وهو ما أصرّ الإمام الخميني على توضيحه أمام الجماهير. إنّه يقول في حديث له أمام عوائل الشهداء عام ١٩٨١:

(١) كلام الإمام ج١٥، ص١٦٧.

(٢) حاول بعض المفكرين أن يعلن ذلك بصراحة في مؤتمر الفكر الإسلامي في الجزائر فتم التصدي لدعوته وفضحها.

(٣) كلام الإمام ج١٥، ص١٦٧.

«إنّ هؤلاء يرون حديث سقوطهم وفنائهم في كلّ مكان من العالم، فحتى السود في أمريكا يعلنون ذلك، إنّهم يرون الإسلام قدرة متقدّمة تعبّئ بنفسها الشعب والأجنحة المتدينة والعناصر المظلومة، وإنّنا لنرجو بمشيئة الله أن يؤدي هذا لثورة المستضعفين في العالم للقضاء على القوى العظمى.. إنّهم يخافون من هذا التحرُّك...».[١]

وهكذا راح يستعرض مظاهر هذه النهضة والصحوة ليؤكّدها في وعي الجماهير.

١. التحرك الإسلامي الواسع

من أهم المظاهر التي أكّد عليها وعلى قوتها، هذا التحرك الجماهيري الإسلامي في عدّة أماكن من العالم الإسلامي، ومنها هذه الثورة الإسلامية الكبرى في فلسطين. وكلنا يعلم أنّ الإمام عاش لهذه القضية وسخّر لها طاقاته، وبقي وفياً لشعاراته الواضحة حتى انتهاء حياته، وأوصى بها بعد وفاته.إنّه أعلن كون إسرائيل غدة سرطانية يجب اقتلاعها، وأنّ المسلمين قادرون ـ مهما عتت أمريكا وإسرائيل ـ على القضاء على منبع الفساد هذا.

وكم كان يتألم حينما يرى هذا التخاذل والتراجع المستمر، وعلى أي حال فإن الإمام الخميني (رحمه الله) كان يأمل كثيراً في الصحوة الإسلامية في الجماهير الفلسطينية، وكان يعتبر ذلك سبيل الخلاص الوحيد، وملف القضية الفلسطينية في أقوال الإمام واسع جداً لا يمكننا أن نستوعب حتى جزءاً يسيراً منه.[٢]

إنّه يعتبر يوم القدس يوم الإسلام، ويوم الحكومة الإسلامية التي ستسود العالم الإسلامي كله، يوم قهر القوى العظمى، ويوم انطلاقة المسلمين من عقالهم لإحقاق حقوقهم، ويوم الرد العملي على تغافل القوى الكبرى لحقيقة الصحوة الإسلامية.[٣]

ومن أنماط ذلك التحرّك الواسع ثورة الشعب الأفغاني المسلم بوجه الطغاة الملحدين،

(١) كلام الإمام، ص٢٢١.

(٢) تراجع الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا الشأن، ومنها الجزء ١٩ من كتاب (كلام الإمام)، وهو تحت عنوان (كلمات الإمام في فلسطين والصهيونية).

(٣) كلام الإمام ج١٩، ص١٢٩.

بل وقوفه أمام القوة الشرقية العظمى بكل جبروتها وبمنتهى الضعف في السلاح والقوة في العزيمة،ممّا أدّى في النهاية إلى انهيارها.

وهنا يخاطب الإمام الخميني كارتر قائلاً:

«من المستحسن أن يعتبر كارتر بأفغانستان: حيث الحكم المسلط يدعمه الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية واليسارية... إلاّ أنّ هؤلاء لم يستطيعوا أن يخضعوا الشعب الأفغاني المسلم لإرادتهم».[١]

ويقول في رسالته إلى حجاج بيت الله الحرام عام ١٤٠٤هـ:

«لقد ردّ الشعب الأفغاني العدوان السوفيتي الغادر، عدوان تلك القوة الاسطورية والجيش الضخم والحكم الغاصب والحزب الخائن، رده بقدرة الإيمان والتوكّل على الله العظيم والاعتماد على النفس بحيث يمكن القول إنّ الاتحاد السوفيتي يعيش الآن الحيرة والندم على هجومه الظالم، وهو يحار كيف ينقذ نفسه ويحفظ ماء وجهه».[٢]

٢. انتفاء الأساطير الاستعمارية

ومن مظاهر الصحوة الإسلامية هذا الوعي السياسي الكبير لحقائق الأمور وانتفاء الأساطير التي حاول الاستعمار زرعها في النفوس من قبيل: أُسطورة إسرائيل التي لا تقهر، وأُسطورة انحصار سبيل السعادة بأحد المذهبين الرأسمالي أو الاشتراكي، وأُسطورة (التخدير الديني) و(تضاد الاتجاه الديني والثورة) وأُسطورة انحصار السبيل بالمعسكرين دونما ثالث.

وهنا يقول الإمام الخميني (رحمه الله) في رسالته بمناسبة يوم القدس العالمي في أوائل العقد الثامن من هذا القرن:

(١) كراس (القيادة وأفغانستان): ص٦ من حديث للإمام مع طلاب كلية الإلهيات أواخر عام ١٩٧٩.
(٢) المصدر نفسه ص١١.

«إلى متى تسحر أسطورة الشرق والغرب الكاذبة المسلمين الأقوياء وتوحشهم الأبواق الإعلامية الجوفاء»[١] وفعلاً فقد حطّمت الثورة الإسلامية هذه الأُسطورة.

٣. معالم كبيرة أخرى

ومن يستعرض كلمات الإمام التي تركّز على معالم الصحوة الإسلامية يستطيع اكتشاف الكثير من هذه المعالم:

ـ فهذا الاتجاه العام نحو تفهّم الإسلام ومعرفة جوانبه الحياتية.

ـ وهذا الاتجاه الصارم للقطاعات المختلفة، وخصوصاً قطاع الجيل الشاب نحو تطبيق الإسلام، على كلّ شؤون الحياة الاجتماعية والفردية، والنظر للإسلام كمنقذ من كلّ المهالك والمشاكل التي تورّطت فيها مسيرة الأمة. كلّ هذا بعد الجهود الكبرى التي بذلها الاستعمار لكي تنسى الأمة إسلامها.

يقول (رحمه الله) مخاطباً مجموعة من حراس الثورة عام ١٩٧٩:

«إنّ الإسلام كاد أن يُنسى وكادوا يقضون عليه، وكادوا يسحقون القرآن، إلا أن ثورتكم يا شباب إيران، ونهضتكم يا أبناء الشعب الإيراني – وهي نهضة إلهية ـ أحيت القرآن وأحيت الإسلام وأعطت الإسلام حياة جديدة).[٢]

ـ وهذا التفهّم الواعي لدور قوى الاستكبار العالمي، في التخطيط لإفناء الشخصية الإسلامية ثم العمل على امتصاص دمائها.

ـ وكذلك تفهّم الطاقات الضخمة التي تملكها الأمة المسلمة، ونوع المرحلة التاريخية التي تعيشها.

ـ وكذلك هذا الترابط الإحساسي والشعوري بين أفرادها، حتى ليهتزّ المسلم اليوم في أقصى المعمورة لألم المسلم في الجانب الآخر منها.

(١) كلام الإمام ج١٥، ص٣٢٠.
(٢) كلام الإمام ج١٠، ص٣٧٨.

ـ ثم هذا التخطيط الحثيث هنا وهناك لاستعادة المجد الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية الموحدة على كلّ الأرض الإسلامية.

ـ ثم هذا التخطيط العلمي الرائع للتقريب بين المذاهب الإسلامية وتطبيق قاعدة «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه».

.. ورغم اختلاف مستويات التخطيط فإنّها تكشف جميعها عن التطلّع والعمل على صنع المستقبل.

ـ وهذه الحرارة الثورية المتصاعدة، والتي راحت تقضّ مضاجع اللصوص الكبار، وتهزُّ عروش العملاء الصغار، وتمزّق أستار المتسترين والمتبرقعين، إنّها حرارة الخشوع والتضحية والفداء في سبيل العقيدة، وهي تستمدُّ أوارها من انطلاقة المسلم في الصدر الأول نحو الجهاد في سبيل إعلاء راية الاسلام، ناسياً دنياه ومتعه، في سبيل متعة تحقيق الهدف السامي العظيم.

يقول الإمام الخميني في رسالته إلى الشعب عام ١٩٨٠:

«إنّني لأخجل حقاً حينما أُشاهد هذا الجيل الشاب الذي يطالبني ـ وهو في عنفوان شبابه ـ أن أدعو له كي يرزق الشهادة».[١]

ويقول أيضاً مخاطباً الشبان:

«أنتم ذخائر الإسلام، وإن هذا التحول الذي حدث بين شبابنا إنّما هو صنع إلهي».[٢]

ـ وأخيراً وليس آخراً، هذا الاتجاه الجماهيري نحو تعميم الأخلاق الإسلامية على المجتمع، ونفي مظاهر الطاغوت والعصيان، إذ رأينا الحجاب الإسلامي يسري سريان العافية في أوصال المجتمعات الإسلامية، ورأينا النفور من مظاهر الخلاعة والخمر والميسر وباقي العادات السيئة، وذلك يمثّل ظاهرة إسلامية ضخمة. وأضحت المرأة المسلمة في

(١) كلام الإمام ج٦، ص١٠٦.

(٢) المصدر نفسه ج١٠، ص١٣٩.

طليعة الثائرين حتى قال فيها الإمام الخميني: «أنتن قدتن الثورة الإسلامية».[١]

يقول الإمام الخميني في حديثه إلى مجموعة من المحرومين في أواخر عام١٩٧٩:

«إنكم إذا أمعنتم النظر فستجدون قادة القوى العظمى يعيشون الاضطرابات والقلق، إنّه ليقلقهم أن تنطلق جماعة تعمل باسم الله ولا ترجو إلاّ ثوابه. إنّها نعمة إلهية ولن نستطيع أن ندرك عظمة النعم الإلهية الخفية».[٢]

كل هذه المظاهر أشار لها الإمام وعمل على تكرارها على مسامع العالم ليحقّق غرض العزّة والشعور بالكرامة والثقة بالمستقبل في نفوس جماهير الأمة، في حين يبعث الرعب في قلوب المستكبرين، وللرعب جيش لا يقهر وله دوره الذي تحدّثنا عنه الآيات القرآنية الشريفة في دحر العدو الكافر.

عوامل الصحوة

ومن يستعرض عوامل الصحوة الإسلامية المعاصرة كما يصوّرها الإمام الخميني (رحمه الله) ربما يحار في وضعها في سلسلة العوامل أو في سلسلة النتائج، إلاّ أنّ هذه الحالة حالة طبيعية، ذلك لأنّنا نتحدّث عن ظاهرة اجتماعية تعيش مع الإنسان، فهي بالقدر الذي تصنع فيه تأثيرها تتأثّر بدورها وتكبر وتقوى في نفس الوقت.

خذ على ذلك مثلاً عامل توفّر القيادة الواعية الصبورة، فإنّه عامل حاسم في صنع التغيير، إلاّ أنّ التغيير نفسه يهب القيادة وعياً أكبر وجلداً أقوى ونظرة أكثر خبرة لكي تواصل مسيرتها الطويلة.

وهكذا يمكن القول عن باقي العوامل، وهذا ما سنعرفه من خلال هذا البحث الشيّق في كلمات الإمام الخميني وتصوّراته عن الصحوة المباركة.

وأهم ما لاحظنا من عناصر هي كالتالي:

(١) المصدر نفسه ج٦، ص٨٤.

(٢) المصدر نفسه ج١، ص٥٠.

ـ التأييد الإلهي.
ـ توفّر القيادة الواعية.
ـ توفّر مجموعة من العلماء والمفكّرين المربّين.
ـ تأهُّل الشعب لعملية التغيير.
ـ ظلم الطغاة.
ـ قدرة الإسلام نفسه من خلال تصوّراته وتعاليمه ومناسباته على صنع التغيير.
ـ الأماكن والمناسبات والشعائر الاسلامية وحسن استثمارها.

ولعلنا نجد هذه العوامل هي الأهم في صنع الثورة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول الأكرم محمد (ص) فلقد كان التأييد الإلهي ـ قبل كلّ شيء ـ هو العامل الأهم، كما كانت شخصية الرسول (ص) صاحبة الأثر العظيم، في حين كان استعداد الأمة للعمل – وهو استعداد نما شيئاً فشيئاً – ذا أثر ضخم في صنع ذلك التحوّل التاريخي الكبير. وطبيعي أنّ الرسالة التي حملها أولئك المؤمنون كانت ذات خصائص كبرى وفّرت السبيل للنصر ودخلت إلى القلوب وتعمّقت مع الجذور الإنسانية، ولعل الآية الشريفة التالية تشير إلى أهم هذه العوامل.

يقول تعالى:

(هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَميعًا ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ).[1]

فلنستعرض إذن باختصار دور هذه العوامل في كلمات الإمام:

العامل الأول: تأييد الله تعالى

وهذه حقيقة أكّدها الإمام مراراً وأعلن أنّ الذي صنع هذه الصحوة هو لطف الله ورحمته، وإنّنا لم نكن إلاّ وسائل لنزول هذه الرحمة الإلهية، ولعله لم يكن يخلو كلام

(١) الأنفال: ٦٢ – ٦٣.

للإمام من ذكر هذه الحقيقة، وهو ما شهدناه في بعض النصوص الماضية.

وكمثال على ذلك يقول في رسالته إلى الطلاب في أمريكا عام ١٩٨٠:

«إنّ الثورة الإسلامية بتأييد الله المنّان تتسع على المستوى العالمي وهي بمشيئة الله سوف تجر القوى الشيطانية إلى التقوقع والانزواء».

العامل الثاني: توفّر القيادة المطلوبة

وهذه بدورها حقيقة مهمة وما أكثر ما كانت بعض أنماط الصحوة تتجلّى هنا وهناك إلاّ أنّها تؤول إلى الاضمحلال بسبب عدم توفّر القيادة الكفؤة أو ضعف هذه القيادة، ومن هنا فالقائد دائماً هو المستهدف من قبل أعداء الصحوة للتصفية الجسدية أو المعنوية، وكلنا يعلم دور الدعايات المشركة ضد الرسول العظيم' وأتباعه المخلصين.

وأول ما يشترط في القائد الإخلاص للقضية والتواضع الخلقي والعمل في سبيل تحقيق رضا الله، فهو روح العمل وسرّ استمراره وتوفيقه، فهو ينظر للواجب قبل أن ينظر لنتيجة العمل.

يقول الإمام الخميني في حديثه لسكان كردستان عام ١٩٧٩:

«إلهي إنّك تعلم أنّنا ما طلبنا في نهضتنا هذه سوى رضاك، وإنّك لتعلم أنّنا ننفر من الظلم حتى ولو أصاب فرداً واحداً».[1]

ويقول لمراسل صحيفة بالتيمورسان قبيل نجاح الثورة:

«إنني بعون الله تعالى سأقوم بواجبي في خدمة الإسلام والمسلمين وسأستمرّ ما لم يكن هناك منع (إسلامي) للاستمرار».[2]

وفي حديثه لوزير الداخلية والمحافظين في أواخر عام ١٩٧٩ يقول:

«إنّ علينا واجباً يجب أن نقوم به وهو ما نفعله، والذين يعملون بواجباتهم ليس المهم لديهم النصر أو الهزيمة، فإذا انتصرنا فهو حسن، وإذا انهزمنا فقد هزم من قبلنا أمير

(١) كلام الإمام ج١٥، ص١٨٧.
(٢) المصدر نفسه ج٦، ص٤٠.

المؤمنين والحسين ولكنهم قاموا بواجباتهم وها نحن نعمل بواجبنا».[١]

وعندما يسأله مراسل التايمز اللندنية قبيل نجاح الثورة عن حياته الشخصية يجيب:

«حياتي الخاصة حادثة فردية من مجموع حوادث العالم ولا تحتاج إلى توضيح، أما عقيدتي فهي كعقيدة سائر المسلمين في تلك المسائل الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة والقادة الصادقين، بعده، وروح هذه العقيدة وأهمها وأجلّها عقيدة التوحيد».[٢]

وعندما تحدّث أحد النواب في مجلس الشورى بحضوره فأطنب في وصفه رد عليه قائلاً:

«إنّني لأخشى أن تكون هذه الأقوال وأمثالها سبباً لحدوث حالة من الغرور والانحطاط لي وإنّي لاعوذ بالله – تبارك وتعالى – من الغلو، ولو كنت أعتبر نفسي حائزاً على مرتبة أعلى من سائر الأفراد فذلك انحطاط فكري وتسافل روحي»[٣].

ويقول في حديثه في لقائه بالطلاب الدارسين في الهند عام ١٤٠١هـ:

«إنّ علينا تحقيق مفاد الآية الكريمة (**وَقُلْ جاءَ الْحَقّ وَزَهَقَ الْباطِلُ**)[٤] وعلى الشعوب الإسلامية أن تحقق الحق في مجتمعاتها وتبطل الباطل».[٥]

ومن شروط القائد أن يكون شعبياً متواضعاً يعيش مع الجماهير المسلمة ولها، ويفكر في ما يصلحها ولا ينعزل عنها، كلّ همه خدمتها ورضاها، يعي آلامها ويعيش آمالها، ويحكّم قلوبها قبل أبدانها. وهو ما طّبقه الإمام الخميني نفسه على حياته الشخصية والسياسية. يقول الإمام في رسالته إلى الشعب في عيد انتصار الثورة الأول:

«إنّ الأطباء منعوني من الاشتراك في عيد الشعب الغيور والجيش الإسلامي إلاّ أنّ قلبي مع الشعب الشريف، والجيش الإسلامي الوطني والحرس، ودعائي المتواضع

(١) المصدر نفسه ج٦، ص٦٠.
(٢) كلام الإمام ج٦، ص٧٧.
(٣) المصدر نفسه ج٦، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٤) الإسراء: ٨١.
(٥) المصدر نفسه ج١٥، ص١٧٣.

يودّعهم وسأبقى ما بقي فيّ رمق من الحياة خادماً مضحياً في خدمة الجميع».[١]

ويقول في كلمته إلى الخطباء والعلماء في طهران عام ١٩٨١:

«إنّنا جميعاً رهن لمنة هذه الجماهير العظيمة. إنّها تعطي كلّ شيء في سبيل الإسلام ولا تطلب شيئاً».[٢]

ويقول قبيل الثورة وهو يقيم بباريس:

«إنّ شعبنا يعتبرنا خدماً للإسلام والوطن، والمسائل التي نطرحها كانت في ضمير هذا الشعب، ولذا فنحن نتحدث عن مطاليب الشعب».[٣]

ويقول مخاطباً الوفد المرسل للتحقيق في الحرب المفروضة، وكان يضم بعض القادة الكبار عام ١٩٨٠:

«إنّني أنصحكم أيّها السادة وأنتم على رأس بعض الأقطار الإسلامية أن تسعوا لتحكّموا القلوب لا أن تحكّموا الأبدان والقلوب عنكم بعيدة».[٤]

وهكذا كانت سيرته العملية، فلم يكنز شيئاً ولم يسكن قصراً ولم يترك شيئاً يذكر. كانت حياته تتلخّص في بيت مستأجر وغرفة صغيرة ومصحف وبعض الكتب المهداة، هذا وهو الرجل الذي يهدّد القوى العظمى وينغّص حياة ذوي القصور الفارهة في أنحاء العالم.

كان يعيش مع شعبه بكل وجوده، وهذا ما يشهد له به التاريخ.

ومن الأمور المشتركة في القائد بشكل طبيعي أن يتمتّع بالأهلية العلمية، ذلك أنّه يريد أن يقود تحركاً عقائدياً ويسعى لتطبيق منهج إنساني متكامل وأُطروحة جامعة. وطبيعي أنّ القائد يجب أن يطبّق الأُطروحة على نفسه، كما يسعى للالتزام بتوجيهات الأُطروحة ومناهجها في أسلوبه العملي حتى إذا ما انتصر راح يعمل على تطبيقها على الحياة الاجتماعية تطبيقاً ترضاه أدلتها ومنابع رؤيتها للواقع والحياة. وهذه أمور تتطلّب

(١) كلام الإمام ج٦، ص٥٨.
(٢) المصدر نفسه ص١٠٤.
(٣) المصدر نفسه ص٢٩.
(٤) المصدر نفسه ص١٨١.

أن يكون القائد متمتعاً بالصفات العلمية والخلقية العليا، وهي في الواقع ما يسمّى بالأساس العقلي، أي الأساس الطبيعي لنظرية ولاية الفقيه، فلابد لقيام الحكومة الإسلامية من وجود ولاية تسوّغ إصدار القوانين والتحديدات التي تستتبعها هذه القوانين للحرية الأصلية للأفراد تحقيقاً لطموحات الرسالة ومصالح المجتمع، وهذه الولاية إنما تمنح للشخصية التي تتمتع بالقدرة الفقهية والسلوك الملتزم العادل والأهلية القيادية المطلوبة، ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبعاد هذه النظرية الإسلامية الأصيلة بقدر ما أردناه من الإشارة إلى ضرورة تمتع القائد بهذه الصفة العلمية.

يقول الإمام الخميني في حديثه إلى الناس في أوائل عام ١٩٧٩:

«إلهي إنّك تعلم أنّني لا أدافع عن العلماء (ودورهم) لأنّني منهم بل لأنّني أعلم أنّ هذا الصنف من الناس هو الذي يستطيع إنقاذ الشعب».[١]

وكان من تأكيداته أن يتم الالتحام بين المجامع العلمية الدينية (الحوزات) والتي كانت المدرسة الفيضية مثلاً لها، والمجامع العلمية الحديثة (الجامعات الأكاديمية)، وذلك بعد أن عمل الاستعمار على إيجاد الهوة السحيقة الملأى بالتهم والسخرية بينهما.

لذلك نراه يقول مخاطباً مجموعة من العلماء الدينيين والأساتذة والطلبة الجامعيين في أوائل عام ١٩٨٠:

«لقد هدمتم ذلك السد الكبير بين ما نسميه بالفيضية[٢] والجامعة، إنّها الخطوة الأولى والتي يجب أن تستتبعها خطوات فتعملوا على أن تكونوا مستقلين غير تبعيين... إنّ الأجيال الآتية يجب أن تعلم بضرورة وحدة هذين المركزين، وإنّما يتم ذلك من خلال العلم والعمل. العلم والتهذيب، يشكلان جناحين لا يمكن الطيران بأحدهما فقط».[٣]

وطبيعي أنّه إذا تمّ الالتحام وقفت كلّ المجامع العلمية تسند القيادة علمياً وعملياً.

وعندما حاول بعض المفكرين الجامعيين النيل من مكانة الفقهاء وذلك قبيل نجاح الثورة الإسلامية عاتبهم الإمام الخميني قائلاً:

(١) كلام الإمام ج٦، ص٥٢.

(٢) المقصود هو الحوزة العلمية بقم، والفيضية واحدة من المدارس الدينية في الحوزة، لكنها أصبحت من رموزها.

(٣) كلام الإمام ج٦، ص٦٣.

«لقد عمرتُ ثمانين عاماً وعشتُ ستين عاماً في الجامعات العلمية، ولي منذ حوالي ثلاثين عاماً اشتراك في مسيرة الأمور الاجتماعية، وأمامي هذه العقود الأخيرة بكل حوادثها، ومعنى ذلك أنّني لا أفتقر للخبرة في هذا المجال، ولذلك فإنّني أعلن من خلال معلوماتي عن مسيرة الإسلام منذ الصدر الأول وحتى اليوم، أنّ الذين حفظوا المسيرة الدينية بكل أبعادها هم العلماء».[١]

العامل الثالث: قيام العلماء بواجباتهم

إدراكاً منه لدور العلماء نجده يتوجه إليهم ويذكّرهم بدورهم في عملية النهضة الاجتماعية ويعمل على نفي العناصر العميلة والتي يسمّيها بوعّاظ السلاطين، وهو مصطلح طرح من قبل على ألسنة بعض المفكّرين الاجتماعيين إلاّ أنّه كان معبّراً عن روحية هذه الطبقة. وقد هاجمها الإمام الخميني بشدّة، وحذّر الناس منها وطردها من المسيرة الاجتماعية.

إنّه يؤكد في حديثه لأهالي مدينة قم في أوائل عام ١٩٨٠:

«لقد قلت مراراً إنّ العالِم الذي يعمل خلافاً لشأن العلماء وتعاليم الإسلام ويتآمر علينا، إنّه أشد من السافاك[٢]، بل هو سافاك معمَّم... إنّ لي نفوراً من الكثير منهم ولا أؤمن بالكثير منهم...».[٣]

ويؤكّد في كتابه (ولاية الفقيه)[٤] قائلاً:

«إنّ ذلك الفقيه الذي يدخل في جهاز الظلَمة ويعود من حواشي البلاط ويطيعهم ليس أميناً ولا يمكن أن يحمل الأمانة الإلهية، والله وحده يعلم مدى المصائب والمحن التي صبّها علماء السوء هؤلاء على الإسلام».

وفي قبال ذلك يؤكّد الإمام الخميني في أماكن كثيرة وبتأكيد شديد على قيام العلماء

(١) المصدر نفسه ص٧٣.

(٢) اسم جهاز المخابرات عهد شاه ايران.

(٣) كلام الإمام ج٦، ص٦٢ -٦٣.

(٤) المصدر نفسه ص١٩٩.

بواجباتهم في سبيل دفع عجلة الصحوة إلى الأمام:

«لقد رأينا أُناساً كانت مجرد معاشرتهم وملاحظة سيرتهم تترك أثرها التنزيهي على الآخرين. إنّ عليكم أن تهذّبوا أنفسكم إلى الحدّ الذي يترك سلوككم فيه وأخلاقكم وإعراضكم عن الدنيا أثره في إصلاح الناس، فيقتدون بكم، وتُعدّون أسوةً للأنام، وجنداً لله، لتستطيعوا أن تعرفوا الإسلام، والحكومة الإسلامية. لا أريدكم أن تتركوا التفقّه، بل عليكم الدراسة المتواصلة بكل جدية، وأؤكد على هذه المسألة. لا تُخلوا الحوزات من الفقهاء، وما لم تتفقهوا فإنّكم لن تستطيعوا أن تخدموا إسلامكم، إلاّ أنّ عليكم خلال دراستكم أن تعرّفوا الإسلام للناس».

ويضيف:

«إنّ تحطيم الطاغوت ـ أي القوى السياسية المنحرفة الحاكمة ـ في وطننا الإسلامي إنما هو من واجباتنا».[١]

وقبل أكثر من خمسة عشر عاماً من نجاح الثورة، كان الإمام الخميني يؤكّد هذه الحقيقة:

«على علماء الإسلام الدفاع عن أحكام الإسلام المسلّمة، واستقلال الأقطار الإسلامية، والنفور من الظلم وإسرائيل وعملائها وأعداء القرآن المجيد، والإسلام، والوطن... إنّ السكوت في هذا العصر في قبال الظلم إنّما هو إعانة عليه».[٢]

ويقول أيضاً (رحمه الله):

«إنّ الفقهاء يجب أن يقودوا الشعب ويمنعوا من اندراس معالم الإسلام وتعطيل أحكامه... إنّهم اليوم حجّة على الشعب تماماً كما كان الرسول حجّة على الأمّة وكانت الأمور كلها موكولة إليه، فكل راد عليه محجوج، والفقهاء منصوبون من قبل الإمام عليه السلام حججاً على الناس».[٣]

(١) ولاية الفقيه ص٢٠٣.

(٢) بيان صادر بمناسبة الخامس عشر من خرداد عام ١٩٦٣.

(٣) ولاية الفقيه ص١٠٦ و١١٨ وغيرهما.

ولا ننسى هنا أن نشير إلى صفة كان الإمام القائد يؤكّد عليها في القيادة، وهي صفة الشجاعة في قول الحق، وهي صفة تمتع هو بها في القمة إذ يقول مثلاً:

«إن (رجال السلطة) يعاملونني معاملة العبيد في القرون الوسطى، إنّني أُقسم بالله العظيم بأنّي لا أريد حياة كهذه. (إني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما)[١]، ليتهم يقبضون عليّ حتى أعلم إنّي قد أديت واجبي).[٢]

ويقول (قدس سره):

«لقد أعددت قلبي لرماح عملائكم ولكني لن أتقبل الخضوع أمام الجبابرة».[٣]

والحقيقة هي أنّنا نستطيع أن نجعل من أهم عوامل الصحوة قيام العلماء بواجباتهم.

العامل الرابع: التحوّل الشعبي باتجاه الإسلام والمعنويات

والواقع أنّ عمل العلماء انصبّ على أن يستعيد الإسلام دوره في النفوس والعقول، وحينئذ فهو يتكفّل بدفعها نحو سبل السعادة، بما يحمله من طاقات ذاتية، وإبداع متدفق يفجّر طاقات الفطرة، ويستخرج مكنوناتها، ويستثير دفائنها، وإذا تجلت الفطرة النفسية على السطح الحياتي كان الفلاح كله.

والجدير بالذكر أنّ هؤلاء المفكّرين لم يستطيعوا أن يحقّقوا ما حقّقوا إلاّ بعد أن حرّروا نفوسهم من المتع الرخيصة، ونذروا أنفسهم للهدف، وتخلّصوا من قيود التبعية للحكّام الذين شكّلوا ـ في فترة الغفوة ـ قيوداً ظالمةً، وما زال الكثيرون منهم يشكّلون ذلك، وإلاّ بعد أن اتصّفوا بالعملية والروح التغييرية الإسلامية معاً.

يقول الإمام الخميني (رحمه الله) عام ١٩٧٩:

«إنّ ما حدث في إيران من ثورة معلول لعاملين: الأول: ـــ وهو الأهم من غيره ـ هو أنّ الشعب التحم مع الإسلام في مسيرته، بمعنى أنّ إيران من أقصاها إلى

(١) العبارة التي قالها الإمام الحسين (ع) في كربلاء قبيل استشهاده.

(٢) بيان إلى الشعب عام ١٩٦١.

(٣) في بيان صادر عام ١٩٦٢.

أقصاها كانت تطالب بالإسلام. والأمر الثاني: أنّ جميع الأصناف والقطاعات اتّحدت وتلاحمت فيما بينها».[١]

ويقول في حديثه إلى بعض الجنود في نفس السنة:

«سر انتصارنا يكمن في أنّ نهضتنا لم تكن سياسية فقط أو لانقاذ النفط من التبعية فحسب، وإنّما كانت تمتلك بعداً معنوياً إسلامياً، شبابنا كانوا يتمنون الشهادة ويستقبلونها تماماً كما كان المسلمون في صدر الإسلام».[٢]

ويقول أيضاً:

«هذه الهدية الغيبية، وهذه الحرية، وهذا الخلاص من تحكُّم الظالمين، وهذا الاستقلال الذي منحنا الله إيّاه وقطع عنا أيادي الأجانب إنّما هو لقوّة الإيمان ووحدة الكلمة والاتجاه إلى الله – تبارك وتعالى – حيث ألقت يد العناية الإلهية على رؤوس هذا الشعب ظلها، وحقّقت هذا النصر، فلتحفظوا هذه الهدية الإلهية».[٣]

ويقول مخاطباً مندوبي السودان والأردن بعد عام من نجاح الثورة:

«إنّ على المسلمين أن يوجدوا التحوّل المطلوب؛ التحوّل من الخوف إلى الشجاعة، التحوّل من التوجُّه للدنيا إلى الإيمان وإلى الله، فإنّ منشأ كلّ الانتصارات أن نتحوّل إلى موجودات إسلامية إنسانية إيمانية كما أراد الله لنا».[٤]

ومن الملاحظ هنا أنّ القائد الحكيم هو الذي يراقب مسيرة الثورة بكل دقة، فإذا ما حدثت حالة (الإقبال الثوري) لدى الأمة عمل على استثمارها على أفضل وجه، في سبيل تحقيق مصالح الشعب، وتصعيد الوعي لتحقيق الصحوة المطلوبة. ولنا من القرآن الكريم وعمل الرسول الأكرم والقادة خير الأدلة والتطبيقات لهذه القاعدة الأساس.

(١) كلام الإمام ج١٠، ص١٤٧.
(٢) المصدر نفسه ج١٠، ص١٢٩.
(٣) كلام الإمام ص١٣٦.
(٤) المصدر نفسه ج١٥، ص٦٠.

العامل الخامس: اشتداد ظلم الطغاة وتصاعد الهجوم الاستعماري

عندما يتصاعد هذا العامل، وبالخصوص عندما يتصاعد الإحساس الشعبي بهذا الظلم، يترك أثره في تحريك الجماهير نحو بذل الغالي والرخيص للخلاص منه، وتحقيق التغيير الاجتماعي المطلوب.

يقول الإمام الخميني (ره) في جوابه على رسالة الرئيس الليبي أواخر عام ١٩٧٧:

«الشعب الإيراني وبعد انقضاء المراحل الزمنية السود الملأى بالعنف، وبعد تحمّل أزمة مرعبة، وفقدان الاستقلال، وضياع الشعائر الإسلامية والوطنية على أيدي الجناة الذين تقف على رأسهم عائلة بهلوي المجرمة، وبعد مشاهدة كلّ ذلك السلب والنهب، وأنماط الخيانة اللامتناهية للمقدسات الدينية والوطنية، والذخائر الوطنية العظمى وفي طليعتها القوى الإنسانية والتراث الثقافي، هذا الشعب ـ وبمشيئة الله تعالى وتوكله على الإسلام والقرآن ـ عاد إلى ذاته وراح من خلال نهضته الإسلامية يتقدم كسيلٍ عارم لتحطيم السدود الكبرى للاستعمار والاستبداد...».[١]

ويقول (رحمه الله) مخاطباً مجموعة من عشائر محافظة (بويرأحمد):

«أحد العوامل التي حقّقت لكم النصر، هذا التصاعد في الظلم والإرهاب. ذلك أنّ الرعب والإرهاب عندما يطغى فإنّ الانفجار سيتبعه، ويتجمّع الحقد الشعبي لتطلقه صرخة شجاعة، وفي إيران تجمّعت هذه العقد النفسية وحصل الانفجار، والأهم من كلّ ذلك أنّ هذا الانفجار رافقه اتجاه نحو الإسلام، ولقد كانت صرخة الإيمان هي انطلاقة هذا التحرّك».[٢]

العامل السادس: الأماكن والمناسبات والشعائر الإسلامية وحسن استثمارها

وهذا عامل واسع الأبعاد بدوره، ذلك أنّ الإسلام – بمعنى من المعاني – يربّي الإنسان على أن يكون تغييرياً ثورياً دائماً لا يقبل مطلقاً بواقع فاسد. ومن أساليبه

(١) كلام الإمام ج١٠، ص٨٠.
(٢) المصدر نفسه ج١٠، ص١٣٧.

المهمة مسألة تعيين بعض الأماكن والأزمنة والشعائر لتمتلك زخماً معنوياً ثورياً يفوق الحالة الاعتيادية، ويعمل على إيجاد ضخ معنوي وحالة يقظة وصحوة، ويدفع نحو تحقيق المعاني الكبرى التي يريدها الإسلام.

فعلى الرغم من أنّ الله تعالى له ما في السماوات والأرض، وهو معكم أينما كنتم، إلاّ أنه شاء أن يعيّن بعض الأماكن وينسبها خصوصاً له بما يسمى (بيوت الله)، كما شاء أنّ يعين مكاناً معيناً له في الأرض ليكون بيته الحرام، وعلى الرغم من أن الزمان ملك لله تعالى وحده، لكنه شاء أن يعين شهر رمضان المبارك شهراً له، وعلى الرغم من أنّ الأيام كلها له، لكن هناك أياماً تثير الكثير من المشاعر لذا سميت أياماً لله، وهذه المحطات الزمانية والمكانية لها دورها الكبير في تحقيق عودة إلى الله وسرعة في العملية التغييرية.

والقيادة الواعية الحكيمة هي التي تستثمر هذه المناسبات الإسلامية لتحقيق التغيير المطلوب في مستوى الوعي والصحوة. وكم كان الإمام يردد: إنّ كلّ ما لدينا من عطاء ثوري إنّما هو نتيجة عطاء شهر محرم والمجالس التي يعقدها المؤمنون لإحياء ذكرى ثورة الحسين بن علي (عليهما السلام).

وهو يؤكّد في وصيته الخالدة قائلاً:

«وليعلموا أنّ تعاليم الأئمة عليهم السلام لإحياء هذه الملحمة التاريخية الإسلامية ـ ثورة الحسين (ع) ـ ... إنّما هو بأجمعه صرخة بطولية شعبية بوجه الحكام الظلمة على مرّ التاريخ وإلى الأبد».[1]

وعن أثر المساجد يقول في أحد أحاديثه عام ١٩٧٩:

«كل الحركات الإسلامية منذ صدر الإسلام إنّما استمدّت انطلاقتها من المسجد، لقد كان المسجد محلاً لتعبئة القوى ضد الكفر والشرك، وأنتم باعتباركم من روّاد المساجد يجب أن تحوّلوا المساجد إلى قواعد للإسلام وللحركة الإسلامية ليتمّ قطع أيادي الشرك والكفر وتأييد المستضعفين في قبال المستكبرين».

(١) كلام الإمام ج١٥، ص٧٩.

اما الحج فحدّث عنه ولا حرج، ففي تصوّرات الإمام الخميني عن الحركة الإسلامية يحتل الحج الدور الأكبر، وكان يحرص (رحمه الله) على أن يحقق الحج دوره العظيم في صياغة المجتمع الإسلامي المؤمن العابد الموحد والمكافح ضد الطغيان.

ولقد كان يضمّن أروع توجيهاته في رسائله المطولة التي كان يوجّهها إلى الحجاج كلّ عام، وإنّنا لنعتقد أنّ هذا الجانب يحتاج إلى دراسة معمّقة فاحصة لكي نصل إلى الأبعاد الكبرى التي كان الإمام يرمي إليها في هذا العمل الإسلامي الكبير.

ولم تكن هذه النظرة وليدة نجاح الثورة الإسلامية، بل كان يبشّر بها قبل ذلك بسنين، فهو يؤكّد في كتابه (ولاية الفقيه) على ذلك قائلاً:

«يجب استثمار هذه الاجتماعات لأهداف الإعلام والتعليمات الدينية وتوسعة مدار النهضة العقدية والسياسية الإسلامية».[1]

ولسنا نريد التوسّع في هذا المجال، وتكفي نظرة سريعة على رسائله إلى الحجاج لنكتشف الأهمية البالغة التي أولاها الإمام لذلك.

ومن المناسبات الإسلامية الأعياد الكبرى باعتبارها يوم العودة إلى الله، وهنا يطلب الإمام من خلال تهانيه أن تدرك الجماهير أبعادها، وقد كانت انطلاقة الثورة الإسلامية الكبرى من يوم عيد الفطر المبارك، فلنلاحظ كيف يبارك الإمام الخميني مناسبة عيد الاضحى المبارك لكل المستضعفين قائلاً:

«أُبارك هذا العيد الإسلامي الكبير لكل أولئك المستضعفين في العالم والذين ثاروا بوجه المستكبرين وأولياء الطاغوت».[2]

العامل السابع: نجاح الحركات الإسلامية والثورة الإسلامية الكبرى في إيران نفسها

فعلى الرغم من أنّ هذا العامل معلول للصحوة المباركة إلاّ أنّه بدوره يشكّل أكبر العوامل لتوسعتها ونموّها في كلّ العالم الإسلامي.

(١) ولاية الفقيه ص١٨٠.

(٢) كلام الإمام ج١، ص١١١.

العامل الثامن: الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمة.

وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة عن تلك، إلاّ أنّها - جميعاً - قد أجّجت الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتدٍّ بها، بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت، والعودة للإسلام. وكثيراً ما رأينا الإمام يذكّر بدور المرحوم الأفغاني والمدرس والنوري وحركة فدائيي الإسلام وغيرها.

وإنّي لأعلم أنّ الكثير من أبناء هذه الأمة قد اهتدى بفعل تأثير هذا العامل، كما أعلم أنّ الكثير من المحاولات الاستعمارية والعميلة قد جرت لجرّ بعضها إلى سبيل الاحتواء، أو الانضواء تحت الرايات الخادعة، أو الاعتماد على نظم لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة، وطبيعي أنّ هذه المحاولات لابدّ وأن ينكشف زيفها في أجواء الوعي السائد، وهكذا كان الأمر، وراحت حركة التوعية تقطع أشواطها الضخمة التأثير.

وهنا أؤكد أنّ على القادة الإسلاميين أن يديموا دفع عجلة النهضة الفكرية والعملية، بكل ما يملكون من طاقة، بعد أن يحرروا وجودهم وفكرهم من سيطرة الطواغيت، والعمالة للأجنبي، فالتحرير الذاتي شرط أساس لعملية التحرير الاجتماعي.

وبالتالي فإنّ التذكير بهذه القضايا وتعميق الرؤية نحوها سوف يترك آثاره الإيجابية على استمرارية عملية الصحوة وديمومة النهضة الإسلامية.

ثم إنّ عليهم عدم الانخداع بالنماذج التحريفية للإسلام التي يعرضها القشريون والمتنسكون كذباً والمتطفلون على الإسلام.

يقول الإمام الخميني بهذا الصدد:

«إنّ المجتمع الإسلامي اليوم مبتلى بمجموعة من القشريين المقدسين كذباً والذين يعملون على إيقاف مسيرة الإسلام والمسلمين، ويوجّهون الضربات للإسلام باسم الإسلام نفسه».[1]

(١) كلام الإمام ج١٥، ص١٧٦.

وهو خطر داهم يجب الوقوف ضده، فمن هؤلاء تنبع أفكار من قبيل:

الإسلام ليس إلاّ مجموعة تعليمات أخلاقية!

لا حكومة في الإسلام!

علينا الصبر حتى ظهور الإمام المهدي (ع)!

يجب الفصل بين الدين والسياسة!

الإسلام ينسجم مع كلّ النظم الأخرى!

أحكام الإسلام فردية أما الشؤون الاجتماعية فمتروكة للناس!

لا توجد روح تغييرية أو ثورية في الإسلام!

ليست هناك صحوة إسلامية!

لا مانع من فسح المجال للعدو الكافر كي يعشعش في أوكار المسلمين، دفاعاً عن بعض العروش!

وأمثال ذلك من السخافات التي لا نتعب أنفسنا في دفعها إلاّ أنّها تستطيع أن تترك أثرها السيئ في أذهان المسلمين.

(جـ)

الصحوة وبعض الأعراض السلبية

ذكرنا أنّه رغم المحاولات المشبوهة التي تعمل على إنكارها، فإنّ الصحوة الإسلامية عادت حقيقة واضحة لها ظواهرها وآثارها في سوح التصور عن الحياة، ودور الإسلام في صياغة مستقبل الأمّة ومسيرتها السياسية والاجتماعية، كما أنّ لها آثارها في عودة الجماهير الى الإسلام ومفاهيمه ونظمه والدعوة الى تطبيقها في شتّى المجالات، وطرح مسألة الحل الإسلامي للمشاكل المتنوّعة التي تعاني منها الأمة. ونحن نشهد اتساع ظواهر الالتزام بالتقاليد الإسلامية في قبال الأساليب المتنوعة التي يحاول البعض تسويقها للساحة الاجتماعية رغم كونها غريبة على الذوق والذهنية العامة لدى المسلمين. ومن مظاهرها فقدان الطروحات والأفكار الغريبة قدرتها التأثيرية، رغم التطبيل والإغراء الإعلامي الواسع.

يقول المفكر المرحوم كليم صدّيقي: «إنّ التاريخ قد دخل الآن طوراً جديداً، لقد تحقّق توقيف تدهورنا وانحطاطنا السريع ... وقد برز فينا إدراك جديد بالقدر والاتجاه والهدف».[1]

إنّ الصحوة الإسلامية بقيت على امتداد السنين الطويلة الموغلة في العمق تشكل الهاجس المرعب للغرب بعرضه العريض كما توحي كلمات قادته وسياسييه وكتابه

(١) افتتاحية (كرسنت) الكندية في ١٥ اغسطس، ١٩٨٠.

ومؤرخيه ومنظّريه محذرة من يقظة العالم الإسلامي والبديل الحضاري الذي يقدمه الإسلام ممّا يقلص من نفوذ الغرب ويقلل من فرص تفوقه.

وربما حاول بعض الكتاب الغربيين أن يدفعوا المسلمين الى التسامح بعد اليأس من وجود قوة منافسة للغرب، وهنا تقول السيدة (هانتر) في حديثها عن مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب: «إنّ إمكان ظهور ثقل مضاد اقتصادياً وسياسياً للغرب قابل للنمو، يوفر للدول الإسلامية حليفاً محتملاً ومصدر عون، قد يعزز ميولها التنافسية تجاه الغرب ويحثها على تحدي السياسة الغربية، وفي المقابل فإنّ فقدان هكذا ثقل مضاد من المرجح أن ينتج موقفاً إسلامياً أكثر تسامحاً»[1]. وهي في كتابها تؤكّد على عنصر تسامح المسلمين وربما تلمّح الى لزوم انصراف المسلمين عن حالة المنافسة.

الأعراض المرضية للصحوة

والذي نركّز عليه في هذا الحديث هو الأعراض السلبية الكثيرة التي ابتليت بها الصحوة الإسلامية والحركات التي تمثّلها ـ ولو في بعض نشاطاتها ـ أملاً في ارتفاع الوعي بهذه الأخطار، ومن ثم العمل على التخلّص منها، والسير على طريق الترشيد والتطوير والتأثير الأكبر في صنع غدها الواعد.

ويمكننا أن نشير فيما يلي إلى بعضها:

١. التركيز في عملية تطبيق الشريعة على بعض الجوانب الحياتية ونسيان الجوانب الأخرى

وهذه الحالة تُفضي إلى ترك انطباع سيّئ عن العملية وربما يفسح المجال لأعداء الصحوة كي يشهّروا بها، بالإضافة إلى أنّ عملية التطبيق نفسها لن تؤتي عطاءها المطلوب إلاّ في حالة تطبيق باقي جوانب الشريعة. ويبدو ذلك واضحاً من خلال فهمنا للإسلام كأطروحة جامعة مترابطة تحقّق توازناً وعدالة في إشباع الحاجات الإنسانية

(١) مستقبل الإسلام والغرب: تعريب زينب شوربا، ص ٢٢٥.

والتي هي بدورها مترابطة أشد الترابط واقعاً.

ويمكننا أن نمثّل لهذه الحالة بعمليات التطبيق الشرعي التي ركّزت على نظام العقوبات، وأهملت الحياة الاقتصادية والتربوية والحريات الاجتماعية وفكرة تحقيق العدالة الاجتماعية.

٢. الاتجاه القشري والسطحي في فهم الشريعة

ولا ريب أنّ هذه الحرفية في القراءة، والسطحية في التفكير أفرزت حلولاً ناقصة لا تنسجم مع المنطق، وأبعدت النفوس عن تصوّر الحل الأمثل للمشاكل الحياتية المعقدة عند تطبيق الإسلام، بل قد تدعو ـ واقعاً ـ للسخرية وتبرر للعدو اتهاماته الظالمة أصلاً لهذه العملية بالتخلّف والرجعية والتزمّت والجمود وأمثالها.

ولعلّنا نجد في التجربة الأفغانية الطالبانية الكثير من هذه الظواهر بما لا نحتاج معه الى التمثيل.

٣. الانفصال عن العلماء والمفكرين وحركة الاجتهاد الأصيل

وهذا المعنى يعني تحقق اجتهادات ناقصة خصوصاً في قضايا حساسة، ممّا يؤدي الى تطبيقات اعتباطية قد تؤدي الى مخالفات واضحة للشريعة ومقاصدها.. وهذا ما لمسناه في حركات الشباب المتحرّق لخدمة الإسلام والمنفصل عن حركة الإسلام الأصيل ممّا جرّه الى عواقب غير محمودة.

وربما شهدنا بعض المنظرين الغربيين يشجع هذا الاتجاه ومنهم بيدهام برايان، إذ يؤكد على لزوم المنع من احتكار الاجتهاد من قبل الفقهاء وفتح مجال (القراءة الحرة للإسلام) للجميع، فالعلماء هم المانع الأكبر لتقدُّم الأمة، وهو يشجع حتى قادة الصحوة الإسلامية على تجاوز هذا المانع.[1]

والغريب أن نجد في عالمنا الإسلامي كُتّاباً يدّعون انتماءهم حتى للحركة الإسلامية يدعون إلى رفض ما يسمونه بـ (طبقة العلماء) وفسح المجال لتعميم الاجتهاد، وأن يكون

(١) في مقالات نشرها تباعاً في الاكونوميست اللندنية عام ١٩٧٤.

لكلٍ قراءته المستقلة عن الدين، بل ربما دعوا إلى نوع من الهرمنوطيقيا المنفلتة.[1]

وما أكثر الحركات التي بدأت مخلصة ولكنها انحرفت بفعل جهل قادتها وعدم اتصالهم بالعلماء، فارتكست في المخالفات وكل ما لا يرضاه الإسلام، بل وانغمست في الالحاد، ولا ننسى ما ابتليت به حركات المسلمين السود في أميركا من (ادعاء نبوة الشريف درو علي) و(غيبة فارد علي المنتظر) و(ادعاء النبوة لاليجا محمد) و(الصبغة السوداء المعادية للبيض)، وأمثال ذلك.[2]

٤. الانبهار والانفتاح أمام بعض النظريات الغربية

وهذه الظاهرة تبرر بعناوين مختلفة؛ كالتجديد في الفكر الإسلامي، أو التحرُّك التنظيمي، أو برمجة عملية الثورة والاستفادة من النظريات اليسارية أو اليمينية باعتبارها من الحكمة ـ وهي ضالة المؤمن يطلبها أينما وجدها ـ دون ملاحظة أنّها جزء من كيان له أسسه وبناءاته، فما أن تقبل بالمقتضيات حتى تنجر للقبول بالأسس المرفوضة أصلاً. وهذا ما لاحظناه من بعض اليساريين أو اليمينيين في بلدان إسلامية متعددة، ممّا جرَّ البعض منهم إلى ما يقرب من الإلحاد، والعياذ بالله تعالى، أو إلى حالة من الهجنة الفكرية التي تجمع بين الإسلام والليبرالية أو الاشتراكية، رافعة شعار التطوّر دون أن تتقيد بضوابط التغيير.

٥. الاتجاه نحو العنف والارهاب

وهو الظاهرة الخطيرة التي قلبت الموازين والاستراتيجيات، ورفعت من حدة الصراع والاتهامات والتحديات وأنماط الحصار ضد الأمّة الإسلامية ومعالمها ومعاهدها ونشاطها الاجتماعي بما لا نحتاج لتوضيحه.

(١) يراجع كتابنا (الحوار مع الآخر) ص ١٦٢.

(٢) يراجع مقال الأستاذ آدم بمبا عن الداعية الأميركي مالكوم اكس في ندوة الحج الكبرى بمكة عام ١٤٢٣.

وإذا كانت هذه الظاهرة معلولة لعوامل غريبة على واقعنا، أحياناً، أو تشكّل رد فعل متطرف لأفعال معادية أحياناً أخرى، فإنّها على أي حال لا تعبّر عن تطبيق أمين لنظام الجهاد في الإسلام ـ كما يتصور البعض منا خطأ أو كما يتصوره الأعداء ـ فهم يخططون بما يستطيعون لحذف هذا النظام الأصيل وتعليماته من واقعنا التعليمي، ومن أدبنا وخطابنا السياسي.

ولسنا بصدد إثبات هذا المدَّعى بقدر اهتمامنا بالقول إنّ الإسلام يرفض الاستخدام العشوائي لأسلحة الدمار الشامل ـ كما يعبر عنها اليوم ـ سواء على صعيد العمل الفردي أو العمل الحكومي، والأنكى من ذلك أن يتم ذلك باسم الإسلام والصحوة.

نقول هذا دون أن ننسى أنّ أميركا التي تدّعي قيادة الحملة ضد الارهاب هي التي موّلت الارهاب في مختلف الأماكن وخصوصاً الارهاب الصهيوني، وهي تستخدم حملتها لفرض عولمتها المجنونة والمتوحّشة ـ كما يعبر الكتاب الغربيون أنفسهم ـ[1] على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، ناقضة بذلك القوانين الدولية ومجامعها، وطارحة مفاهيم ونظريات خطيرة، ومن أخطرها فكرة (الحرب الاستباقية)، وفكرة (الثنائية: فإمّا أن تكون معنا أو فأنت إرهابي)، وغيرها.

٦. الصنمية التنظيمية، واتّباع مصلحة التشكيلات قبل كلّ شيء[2]

وهي ظاهرة قد يمكن تفهمها في جو مادي أو ليبرالي مصلحي، ولكن لا يمكن قبولها في المنطق الإسلامي الذي لا يمانع بل ربما يفسح المجال لتنوع في الأحزاب والفصائل المختلفة في اجتهاداتها العملية ولكنه يرفض مطلقاً أن يتحوّل التنظيم إلى قالب فكري حديدي يميت الإرادة الفكرية وقدرة الاعتراض والتأكّد من الموقف، ويشجع الذوبان حتى اللاواعي في القادة.

(١) رسالة المسلم في حقبة العولمة ص ٥١٥.

(٢) يراجع ما كتب حول هذه الظاهرة في كتاب (ثقافة الدعوة) الصادر عن حزب الدعوة الإسلامية في العراق.

ونحن نجد في ثقافتنا الإسلامية الكثير ممّا يرفض ذلك، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ)[1]، أنّ المقصود هو إصغاؤهم لهم وإطاعتهم من غير قيد أو شرط، ولا يطاع كذلك إلاّ الله سبحانه، وقد اخذ المفسرون ذلك من روايات عديدة.[2]

٧. اليأس والتراخي

إذ أنّ الضربات الموجعة التي توجّهها القوى المعادية، وأنماط الحصار الظالم المضروب على الأمّة وحركتها الإسلامية، والتهويل الكبير للمصاعب وتشويه التجارب التي نجحت في كسر الحاجز، وكثير غير ذلك ربما يؤدي الى أن يتسرب اليأس إلى نفوس العاملين فيخلق حالة من التراخي ونسيان الأهداف الكبرى، بل وإلهاء النفس وإقناعها بالمكاسب الصغيرة، والأساليب الدعوية التي تبتعد عن مجالات التغيير وتكتفي باليسير، تاركة القضايا الكبرى بيد المصير المجهول. وما أتعس حال الفئة التي تفقد الأمل وتستكين للذل بعد أن كان الأمل بالله من مميزات المؤمنين، يقول تعالى: (إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ ما لا يَرْجُونَ).[3]

٨. الاتجاه نحو الاصلاحات الفرعية وعدم التركيز على التغييرات المركزية

ونحن نعلم أنّ الأمور الفرعية ـ إن لم تلحظ في إطار العملية التغييرية ـ قد تتحوّل إلى أساليب تحذيرية، وربما ساعدت القوى الاستعمارية، والمحتلة منها، على ترسيخ هذه الظاهرة لكي تؤمّن شيئاً من الرضا الشعبي. وإذا نسيت القضايا المركزية فقدت الأمّة حيويتها ومستقبلها.

(١) التوبة: الآية ٣١.

(٢) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي ج٩، ص ٢٥٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٤.

٩. عدم تفعيل امكانات الأمّة المتاحة

قد يجمَّد الكثير من الإمكانات الفنية والأدبية والإمكانات الحديثة، بل وربما أهمل الدور العظيم والتعبوي الذي يمكن أن تقوم به العبادات والاجتماعية منها بالخصوص، كصلاة الجمعة والحج في مجال تربية الإنسان المسلم التغييري الذي يرفض الخضوع لغير الله، والعيش في حياة لا يرضاها الله تعالى.

وقد ذكر باحثان جليلان هما الأستاذان السرياني وميرزا أثر الحج في استقلال اندونيسيا أن السلطات الهولندية التي احتلت هذه البلاد الإسلامية من عام ١٦٤١ وحتى ١٩٤٥ لاحظت أنّه تحدث ثورات قوية بعد كلّ موسم حج، ورغم أنّ الكاتبين أرجعا ذلك الى اتصال الحجاج بإخوانهم من الجاويين[١] إلاّ أنّنا نعتقد أنّ الدور الأكبر هو لعملية الحج نفسها، والتي تربّي في الإنسان الحاج الروح التغييرية عبر ربطه بحركة الأنبياء، وهم أكبر المغيّرين عبر التاريخ، وخصوصاً سيدنا إبراهيم (عليه السلام) والرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم). ويمكن أيضاً ملاحظة تخوّف سلطات الاحتلال الفرنسي من الحج الجزائري مما دفعها لمنعه أو تحديده بشدة[٢]، فإذا انتقلنا الى الصعيد الفردي نجد أنّ الحج ترك آثاراً ضخمة على الكثير الكثير من الحجاج ممّا لا يمكن إحصاؤه.

إن فئة تعمل على تعميم الصحوة الإسلامية وتعميقها واستمرار حيويتها يجب أن لا تغفل طاقات الإسلام والمجالات المفتوحة، بل تستغلها بكل قوة وإلاّ استغلها أعداء الصحوة أنفسهم.

١٠. فقدان الواقعية، وتجاوز المرحلية

ذلك أنّ عملية التغيير تحتاج الى تخطيط فكري ومراحل عملية ولا يمكن الإغراق في

(١) القيت المحاضرة في ندوة الحج الكبرى في موسم حج عام ١٤٢٤ هـ

(٢) نفس الندوة مقال عن مكة وعوالمها في فكر مالك بن نبي للاستاذ مولود عويمر.

التفاؤل والعمل على حرق المراحل، فإنّه يؤدّي في الغالب الى الارتكاس في الأخطاء، وكشف النواقص، والتراجع لفئات لم تتشبّع بعد بفكر الصحوة.[١] وربما لاحظنا ـ على العكس ـ حركات إسلامية أغرقت في المرحلية فلم تستغل الفرص المتاحة بحجة أنّها مثلاً مازالت في المرحلة الفكرية فلا يمكنها الإقدام على خطوة عملية.

١١. الدوران حول الذات وعدم فتح الجسور مع الآخرين

إنّ حركة الصحوة الإسلامية لا تتم ولا تتحرك في فراغ بل تعايشها اتجاهات أخرى، وعليها أن تمد الجسور معها.

فرغم أنّ الاتجاهات العلمانية والقومية والاشتراكية وأمثالها شكّلت في عقود خلت عقبات كأداء أمام الصحوة فإنّها بحاجة اليوم للتعايش مع الصحوة، ولابدّ للصحوة من فتح حوار معها. وربما يجرها الحوار إلى نوع من المهادنة وربما التعاون للقضاء على التخلّف والتفرقة القاتلة ومحاربة العدو الأكبر. أمّا الانغلاق ورفض الآخر فربما جمّع القوى ضدها وأفشل خططها. بل إنّ فتح جسور مع حركة المعنويات في العالم والجهات الخيرة، والمدافعة عن حقوق الإنسان والمحرومين والمستضعفين سوف يعود بالخير. وقد شهدنا أخيراً بعض محاولات الانفتاح.[٢]

١٢. الاتجاه القطري والاقليمي

ونحن نلاحظ أنّ بعض عناصر الصحوة والحركة الإسلامية يتجه اتجاهاً ذاتياً قطرياً أو إقليمياً ينعزل به عن اهتمامات مجمل التحرك العام بل ويعمل على تكوين خصائص جغرافية له ينذر نفسه لها ولا يهتمُّ بالخروقات التي تحدث في أماكن أخرى إلاّ اهتماماً عابراً بحجة (**الأقربون أولى بالمعروف**) متناسين أنّ العدو سيتفرد بهم بعد أن يفقدوا مدد الأمّة. على أنّ الأطر الجغرافية نفسها قد تتحوّل الى قيود وعوامل لتصفية النظرة

(١) (ثقافة الدعوة) نشر حزب الدعوة الإسلامية في العراق.

(٢) من قبيل مؤتمر الحوار الإسلامي القومي في بيروت، ومؤتمرات الحوار المسيحي الإسلامي المتعددة في بيروت والقاهرة وطهران والخرطوم وبعض الدول الأوروبية.

الإسلامية العالمية وهي أهم ركائز الصحوة ومميزاتها. ولا نريد أن نعطي أمثلة لهذه الحالة لما يستتبع ذلك من حساسيات ونكتفي بالإشارة العامة.

١٣. فقدان التخطيط الاستراتيجي المستقبلي

وهي حالة تعيشها الأمّة ويعيشها العالم الثالث فلا يوجد تنظير للمستقبل، ولا توجد أقسام لدراسة المستقبليات، ولا رؤى تحدد ما سوف يواجه الأمّة حتى في المستقبل المنظور. وواضح أنّ الذي يمشي دون تخطيط مكباً على وجهه مرشح للعثرات القاتلة، وحاطب الليل قد يقطع يده هو.

إنّ الدراسات المستقبلية عادت تشكل أقساماً جامعية مهمة في الغرب وتمهد الجو للنظريات الاستراتيجية. ونحن نعتقد أنّ زوبعة (الآيات الشيطانية) ذات المظهر الأدبي، ونظريات (صراع الحضارت) و(نهاية التاريخ) ذات المظهر التاريخي، وفكرة (الحروب الاستباقية) الواردة في السياق العسكري، وبعض إرهاصات (العولمة) وحتى بعض المصطلحات من قبيل فكرة (القرية الصغيرة) و(الحدود المفتوحة)[1] المطروحة في المجال الاقتصادي شكلت في مراحل ما بالونات اختبار قبل أن تتخذ سبيلها الى واقع العلاقات الدولية. فأين الصحوة الإسلامية من هذه المعادلات؟

١٤. ظاهرة التمزّق وتراشق الاتهامات

وهي ظاهرة يمكن قبولها في مجال الاتجاهات المادية، ولكن الاتجاه الإسلامي لا يتحمّل مطلقاً هذه الأعراض، فالهدف واحد وروح التسامح وقبول الاجتهاد الآخر والتعامل مع الآخرين بروح الأخوة وفي إطار الوحدة لا تنسجم مطلقاً مع عمل أحدنا على إجهاض مشاريع الآخر إلاّ أنّنا مع الأسف نلحظ وقع هذه الحالة إلى الحد الذي يهدّد وجود الصحوة وهويتها وهي الداهية الدهياء.

(١) وهي مصطلحات روّج الغرب لها لأغراض في نفسه.

١٥. العمل الإسلامي في أوقات الفراغ

كثيراً ما نجد العاملين يخصّصون أوقات فراغهم للعمل الإسلامي، أمّا وقتهم الرئيسي فمتروك لشؤونهم الشخصية أو حتى للعمل مع الهياكل التقليدية المرفوضة، وحينئذ تعود الحركة الإسلامية حركة هامشية ـ كما يعبّر كليم صديقي[1] ـ في حين أنّ الأمر يتطلب أن يكون رفد الصحوة هاجسنا الأكبر.

١٦. الطائفية

وهو عرض خطير عانت منه الأمّة الإسلامية وجرت لأجله أنهار من الدماء والدموع.

لقد سمح الإسلام ـ بمقتضى واقعيته ومرونته وتخطيطه ليبقى خالداً في توجيهه للحياة ـ بالاجتهاد، وتنوّعت الاجتهادات خصوصاً بعد أن تعقّدت الحياة، ونشأت المذاهب غنىً فكرياً لهذه الأمة.

ولكن تحول المذاهب بعد ذلك الى طوائف وتدخّل الأهواء الشخصية ومصالح حكّام السوء خلق النزاع بينها وأفقد الأمّة حلاوة الاجتهاد الحر، ممّا دعى البعض الى إغلاق باب الاجتهاد. ونحن نعلم أنّ الصحوة لم تنطلق انطلاقاً طائفياً بل تحركت في مسارٍ إسلامي عام فانتجت الكثير الكثير إلاّ أنّنا نلمح في الأفق بعض الاتجاهات الطائفية في بعض مجالات الصحوة ممّا يهدد إفشالها وتحويلها عن مسارها الصحيح والمطلوب.[2]

ملاحظات تعقيبية

الأولى: ما ذكرناه من ظواهر قد يكون بعضها داخلاً في عموم الآخر، كما قد يكون بعضها معلولاً للآخر ولكننا نعتقد أنّها جميعاً تستحق إفرادها بعنوان مستقل لأهميتها.

الثانية: نستطيع أن نعبر عن هذه الأعراض بأنّها تحدّيات داخلية تؤدي إلى نفس ما

(١) في محاضرته في اجتماع منظمة الشباب الإسلامي بالرياض عام ١٩٧٦م.

(٢) يراجع كتاب قصة الطوائف للأستاذ الانصاري ص١٥٥ ـ ٢٢٠.

تؤدي إليه التحديات الخارجية، أو فلنعبّر بأنّ التحدّيات الخارجية تمتدّ في الفراغ الذي تحدثه هذه التحديات، وربما كان بعضها معلولاً للتحدّيات الخارجية نفسها، فقد عمل الغرب لعشرات العقود وخصوصاً في القرنين ١٩ و٢٠ على تكريس حالتي التخلف والتمزق بشتّى أنواعه ومنها الطائفي، في الأمة.

الثالثة: تستحق عملية المعالجة وبالتالي ترشيد الصحوة أن يفرد لها بحث خاص إلاّ أنّ عناصرها تبدو واضحة عند استعراض هذه الأعراض ونشير فيما يلي إلى بعض ما يجب عمله على ضوء ما سبق:

١ـ ضرورة السعي لتشجيع عملية التطبيق الكامل والمترابط للشريعة.

٢ـ لزوم التعمق في فهم الشريعة ومقاصدها، والابتعاد عن السطحية.

٣ـ ضرورة تحكيم دور العلماء والمجامع العلمية، وتفعيل عملية الاجتهاد الحر.

٤ـ مراقبة التيارات الوافدة، والتحذير من الانبهار بها.

٥ـ بيان الوجه الرحيم للإسلام ونبذ الإرهاب، ولكن لا يعني هذا الانظلام، والسكوت على عمليات الكفر الإرهابية.

٦ـ نبذ المظاهر الصنمية في العمل الحركي.

٧ـ بعث روح الأمل في جماهير الصحوة.

٨ ـ التركيز على العمل التغييري، دونما نسيان للأعمال الإصلاحية الفردية في سياق العمل التغييري.

٩ـ الاستفادة من كلّ الإمكانات المتاحة.

١٠ـ التحلّي بالواقعية في العمل.

١١ـ نبذ الطائفية.

١٢ـ فتح الجسور المعقولة مع الآخرين.

١٣ـ تحكيم روح الإسلام السياسي العالمية.

١٤ـ اعتماد مبدأ التخطيط المستقبلي بعيد المدى.

وهناك أمور أخرى نوكلها للدراسات المفصّلة.[١]

الرابعة: وهذه التوصيات يمكن أن تقدّم إلى مؤتمر سياسي اسلامي كمؤتمر القمة الاسلامي. وربما يقال: إنّ هذه الأمور لا ترتبط بالقادة السياسيين فما معنى توجيه توصيات لهم بهذا الشأن؟ إلاّ أنّ من الواضح كون الأمر يرتبط بهم ولو بشكل غير مباشر ذلك:

أولاً: لأنّ بيدهم الكثير من أزمّة الأمور في هذه الأمة، وقضية الصحوة وترشيدها هي قضية الأمّة بلاريب، فلا يمكن أن يعفوا أنفسهم من المسؤولية.

وثانياً: لأنّ الكثير من هذه التوصيات ترتبط بهم مباشرة، خصوصاً بعد أن طالبت بعض المجامع العلمية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بأمثال هذه التوصيات.[٢]

وثالثاً: فإنّهم يستطيعون أن يوفّروا الأجواء المناسبة لقيام الجماهير وتنظيماتها المدنية بأدوار رئيسة لتحقيق ذلك.

---

(١) ـ تراجع مقالاتنا حول الموضوع: مجلة رسالة التقريب العددان ٣٤، ٣٥ ص ٢٢٧؛ كتاب قطر (رسالة المسلم في حقبة العولمة)، ص ٥١٠؛ الصحوة الإسلامية في مؤتمرات متنوعة.

(٢) من قبيل التوصية الصادرة من مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة حول تطبيق الشريعة الإسلامية (قرار رقم ١٠).

(د)

التنوّع المذهبي في المجتمعات الإسلامية

(عله وتاريخه وواقعه اليوم)

مقدمة:

يتميّز الإنسان بارادته الحرة، وهذه الارادة ـ وإن كانت نتيجة لأشواق وعواطف متناهية حتى تصوّر البعض من الفلاسفة والنفسانيين أنّ الارادة هي نفسها شوق متراكم ـ ولكنها تتميز عن الشوق الحيواني بأنّها ترتبط بقناعاته العقلية في مجال (ما ينبغي فعله وما لاينبغي) أو ما يسمّى بـ(العقل العملي)، وهي أمور لا تتوفّر في الحيوان. فالإرادة الإنسانية السوية ـ إذن ومهما كانت العواطف المتراكمة ـ تسير بهداية من العقل العملي، في حين تتحرّك الإرادة الحيوانية بدافع شهواني انفعالي أعمى. ومن هنا اعتبر الإنسان الذي يتحرّك بنفس هذا الدافع حيواناً، بل هو أضلّ من الحيوان؛ لأنّ الله منحه الكابح الفطري وهو العقل فأهمله، يقول تعالى: (**وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ**)[1].

فالحيوان يخلو من أي توجيهات عقلانية واعية محاسبة ومثله الإنسان الغافل عن ما يملكه من طاقات.

(١) الاعراف: ١٧٩.

ومن هنا كانت الحرية لدى الحيوان وشبيهه الإنساني حرية الشهوة والأهواء، وهي حرية منفلتة من عقالها ومخربة يجب السيطرة عليها في رأي الفلاسفة المسلمين بل والوضعيين أيضاً.

فهذا الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي يقول: «العقل العملي هو القوة التي تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل من الأمور الإنسانية التي يفعلها في معاشه ومعاده بخلاف القوة التي دونها فإنّ أفعالها حيوانية لا فكرية»[1].

ويوجّه الفيلسوف الألماني المادي هيجل نقداً إلى التعريف الرائج في زمانه للحرية بأنّها (القدرة على فعل شيء نشتاق إليه) واصفاً التعريف بأنّه يوضح عدم البلوغ الفكري؛ لأنّه لا يشير إلى الحق والحياة الأخلاقية وغير ذلك[2].

وهنا يذكر الاستاذ مرتضى مطهري أن «ملاك الشرف واحترام الحرية الإنسانية هو كونها في مسير الإنسانية فالإنسان السائر في هذا المسير يجب أن يكون حراً لا ذلك الذي اتبع شهواته حتى ولو كانت موجّهة ضد البشرية»[3].

ومن هنا وجدنا الإسلام يربّي في الإنسان المسلم العقلانية في الارادة الفردية والاجتماعية وذلك بشتّى الأساليب.

فهو يعتبر العقيدة الإسلامية بأركانها المركزية (التوحيد، النبوة، المعاد) هي الإطار العام الذي يوجّه هذه العقلانية بما يتبعها من مفاهيم عامة من قبيل:

ـ الهدفية في الكون: (**ربّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّار**)[4].

ـ والمسؤولية (**وَقِفُوهُمْ إِنّهُمْ مَسْؤُلُونَ**)[5].

(١) الأسفار الأربعة ج ٦، ص٣٥٤.

(٢) الفلسفة الاجتماعية والسياسية لهيجل تأليف جان بلامناتر. نقلاً عن كتاب (الحرية، العقل والايمان) للشيخ سروش ص٤٠.

(٣) التعرف على القرآن ج ٣، ص٢٢٤.

(٤) آل عمران: ١٩١.

(٥) الصافات: ٢٤.

ـ والحرية الواعية (إِنّا هَدَيْناهُ السّبيلَ إِمّا شاكِرًا وَإِمّا كَفُورًا) [١].

ـ والمحاسبة (وَيَخْشَوْنَ رَبّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ)[٢].

ـ والتوازن في الكون والموقف منه (وَالسّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْميزانَ أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْميزانِ)[٣].

ـ ورفض الظلم بشتّى أنواعه (وَسَيَعْلَمُ الّذينَ ظَلَمُوا أَى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) [٤].

ومن الظلم عدم إعطاء الحق لصاحبه والتطفيف (لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ) [٥]. (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفينَ) [٦].

نعم في هذه الأطر يربّي الإسلام العقلانية في المسلم ويعمل على تنمية الجانب العقلي فيه ورفع المعوقات عن التفكير الصحيح.

أ ـ أمّا عملية التنمية الفكرية والعقلية فلها برنامج متكامل يشمل ـ مما يشمل ـ الأمور التالية:

أ ـ فتح باب الحوار الإنساني البنّاء مع التحلّي بالموضوعية، واحترام الآخر، والتركيز على الأمور العملية، واتباع المنهج الأحسن وغير ذلك.

ب ـ دفع الإنسان للتغيير نحو الأحسن، وعدم الجمود على وضع متخلّف، والتأكيد على بدء التغيير منه (إِنّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّي يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) [٧]. وعملية التغيير هي من مختصات الإنسان عبر استفادته من قدراته العقلية.

ج ـ الدفع نحو التأمّل والتدبّر والتبيّن والاعتبار والتعقّل والوعي (لِيَدّبّرُوا آياتِهِ)[٨]

(١) الإنسان: ٣.
(٢) الرعد: ٢١.
(٣) الرحمن: ٧ـ ٨.
(٤) الشعراء: ٢٢٧.
(٥) الاعراف: ٨٥.
(٦) المطففين: ١.
(٧) الرعد: ١١.
(٨) ص: ٢٩.

(أَفَلَمْ يَسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا) [١] (إِنّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٢] (يا أَيّهَا الّذينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيّنُوا)[٣] (وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ) [٤] (لا تَقْرَبُوا الصّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكاري حَتّي تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ)[٥]، [٦].

د ـ فسح المجال لعملية الاجتهاد: «اجتهد رأيي ولا آلو»[٧].

هـ الدفع نحو التشاور (وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ)[٨].

كما عمل ـ على رفع ـ معوقات التفكير السليم ومنها:

أ. المطلقات النسبية الوهمية

(ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ) [٩].

ب. الخرافات

(ما جَعَلَ اللّهُ مِنْ بَحيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصيلَةٍ وَلا حامٍ)[١٠].

ج. التقليد

(وَإِذا قيلَ لَهُمُ اتّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ قالُوا بَلْ نَتّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ)[١١].

(١) يوسف: ١٠٩.
(٢) النحل: ٦٧.
(٣) الحجرات: ٦.
(٤) الحاقة: ١٢.
(٥) النساء: ٤٣ .
(٦) الاسفار الأربعة ج ٦ ص٣٥٤.
(٧) مقولة للصحابي معاذ بن جبل(رض) أمام الرسول(ص).
(٨) الشورى: ٣٨ .
(٩) يوسف: ٤٠.
(١٠) المائدة: ١٠٣.
(١١) البقرة: ١٧٠.

د ـ الغفلة

(وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ)[١].

نشوء المذاهب الإسلامية في ظل هذه الروح العقلانية

ومن الواضح أنّه لم يكن هناك شديد حاجة للاجتهاد في عصر الرسول ' بعد أن كانت الأحكام والمفاهيم تؤخذ مباشرة منه، وربما اجتهد بعض الصحابة فاقرهم الرسول على ذلك[٢].

وكان الاختلاف بسيطاً وعندما اتّسعت الرقعة الإسلامية نزلت آية النفر التي قررت واقعاً، وشرعت أساساً للاجتهاد وحجية خبر الواحد فقال تعالى: (وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كلّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلّهُمْ يَحْذَرُونَ)[٣].

ولكن وتيرة الاجتهاد ارتفعت بطبيعة الحال بعد وفاة الرسول ' وهكذا استمرّت بشكل أشد في عصر التابعين إلاّ أنّ المذاهب لم تظهر بشكل واضح محدد المعالم إلاّ بعد هذا العصر.

ويرى الأستاذ السياس أنّ العالم الإسلامي شهد منذ أوائل القرن الثاني وحتى منتصف القرن الرابع ١٣٨ مدرسة ومذهباً فقهياً، حتى أنّ الكثير من البلدان كان يمتلك مذهباً خاصاً به[٤]، في حين ذكر الأستاذ أسد حيدر أنّها كانت تزيد على الخمسين[٥].

وكانت هذه المذاهب التي ظهرت بعد طبقة التابعين كما يرى بعض العلماء مذاهب

(١) الاعراف: ٢٠٥.

(٢) كما في حديث معاذ عندما بعثه رسول الله (ص) إلى اليمن وقال له: بما تقضي إذا لم تجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله قال معاذ (اجتهد رأيي ولا آلو). وإن ناقش بعض العلماء في ذلك (راجع أصول المظفر ج٣ ص١٦٦).

(٣) التوبة: ١٢٢.

(٤) تاريخ الفقه الإسلامي ص٨٦.

(٥) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١، ص١٦٠.

فردية لم تتبن من قبل أتباع أصحابها، ولذلك انقرضت بانقراض أتباعها، وأخرى جماعية نضجت في ظلّ ما دوّنه أصحابها وأتباعها في مجموعات متكاملة[١].

ومن المذاهب البائدة:

١ ـ مذهب الحسن البصري (٢٣ ـ ١١٠هـ).

٢ ـ مذهب ابن أبي ليلى (٧٤ ـ ١٤٨).

٣ ـ مذهب الأوزاعي (٨٨ ـ ١٥٧).

٤ ـ مذهب سفيان الثوري (٩٧ ـ ١٦١هـ).

٥ ـ مذهب الليث بن سعد (توفي عام ١٧٥هـ).

٦ ـ مذهب إبراهيم بن خالد الكلبي (توفي عام ٢٤٠هـ).

٧ ـ مذهب ابن حزم داوود بن علي الاصبهاني الظاهري (٢٠٢ ـ ٢٧٠هـ).

٨ ـ مذهب محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ).

٩ ـ مذهب سليمان بن مهران الأعمش (توفي عام ١٤٨هـ).

١٠ ـ مذهب عامر بن شرحبيل الشعبي (توفي عام ١٠٥هـ).

وغيرهم كثير.

أمّا المذاهب التي استمرّت مع الزمن وحتى اليوم فهي:

١ ـ المذهب الإمامي الاثنا عشري وقد وسع معارفه الإمامان الباقر والصادق من أهل البيت(ع).

٢ ـ المذهب الزيدي.

٣ ـ المذهب الحنفي.

٤ ـ المذهب الشافعي.

٥ ـ المذهب المالكي.

٦ ـ المذهب الحنبلي.

٧ ـ المذهب الأباضي.

(١) طبقات الفقهاء: القسم الثاني من المقدمة ص٥٧.

سر تنوّع المذاهب

ولا نستطيع هنا البحث المفصّل عن مقدمات نشوء المذاهب ولا عن عوامل الانقراض أو الانتشار، وهي عوامل علمية وموضوعية ذكرها العلماء عند عوامل الاختلاف.

فذكر ابن رشد[١] ما يرتبط بتنقيح صغريات حجية الظهور أو حجية القياس وأضاف إليها السيد الحكيم[٢] الخلاف في الأصول ومباني الاستنباط، ويمكن أن نضيف إليه الخلاف في مناهج الاستدلال ومراحله.

وبالاضافة إلى العوامل الموضوعية يمكن تصور عوامل معرفية ذاتية من قبيل سعة المعلومات وضيقها، وعوامل نفسية وفردية كمدى القدرة على التحليل الذهني، وكذلك لا يمكن أن نغفل دور العوامل السياسية والتاريخية والمصلحية والاجتماعية وغيرها.

إلاّ أنّ الأهم من ذلك في بحثنا هذا هو ذكر النقاط التالية:

أولاً: لقد كان ظهور المذاهب تعبيراً عن تطور في العقلانية الإسلامية سداً لفراغ غياب الرسول الأعظم وانقطاع الوحي من جهة، وتوسع الحاجات، وكثرة الحوادث، وتعقّد المجتمعات من جهة أخرى، وربما لتراكم المعارف الفقهية وانطراح الفروع المتصورة من جهة ثالثة. فهي إذن حالة طبيعية صحية حضارية.

ثانياً: وهذه المذاهب تشكّل ثروة فكرية غنية للحضارة الإسلامية لا يستهان بها، كما تمنح الحاكم الإسلامي كما الفرد المسلم مساحة للاختيار الأفضل في مجال عملية تطبيق الشريعة في الحياة الفردية (خصوصاً إذا لم يتعيّن تقليد الأعلم)، والاجتماعية باعتبار أنّ الرأي الذي ينتج عن عملية اسلامية معترف بها، وهي الاجتهاد، تصح نسبته إلى الإسلام، وحينئذ ينفتح أمام الحاكم الشرعي مجال واسع للمناورة وانتخاب الأصلح

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد المقدمة.

(٢) أصول الفقه المقارن ص١٩.

من الآراء ممّا يحقق المصالح (حتى لم لم يتفق الحاكم مع الرأي في اجتهاده الشخصي) بل يمكنه أن يقوم بعملية توفيق وتركيب بين الآراء للوصول إلى النظرية والمذهب الاجتماعي الأصلح ممّا يعبر أصدق تعبير عن المرونة الإسلامية[١].

ثالثاً: هذه المذاهب ـ كما قلنا ـ شكّلت غنى للحياة الإسلامية وحالة طبيعة عقلانية كان الوصول إليها متوقعاً، إلاّ أنّ الذي حوّل هذه الظاهرة الطبيعية إلى ظاهرة سلبية على المسيرة الإسلامية هو ما نسمّيه بالتحوّل إلى الطائفية الضيقة، حيث سعت هذه الروح الطائفية للابتعاد عن التعقل والحوار الذي دعى إليه القرآن الكريم، ونسيان حالة التسامح والمداراة الإسلامية، والخوض في جدال عقيم في بعض الأحيان وممقوت أخلاقياً. ورحنا نشهد فترات مريعة وأساليب لا إسلامية من التكفير والتفسيق والتبديع ـ كما يعبر الشيخ القرضاوي[٢] ـ ممّا أدّى بعد ذلك إلى نزاع عريض سالت على أثره أنهار من الدماء والدموع، ممّا مزق الأمّة وأزالها عن موقعها الحضاري المطلوب[٣]، وقتل أو أضعف الروح العقلانية التي ربّاها الإسلام بكل ما يلازمها من (الاجتهاد الحر) و(التشاور المثمر) و(التغيير البنّاء) و(الحوار المنطقي)، وسيطرت مطلقات وهمية من قبيل (المذهبية المتفردة) و(الحق المحتكر) و(كفر الآخر) و(الاختصاص بالفرقة الناجية) وغير ذلك.

ومن هنا فنحن ندعو بجد لاعادة الحالة المذهبية إلى وضعها عبر إشاعة العقلانية المطلوبة وروح الحوار الإسلامي البنّاء، والتآلف القلبي، والبحث عن المساحات المشتركة، وهو ما نعبّر عنه بـ (حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية).

(١) وهذه بحوث علمية قمنا بطرحها في مجامع فقهية رفيعة المستوى ونشرناها من قبل، ولا داعي هنا للتفصيل (تراجع تقريرات المؤلف عن بحوث مجمع الفقه الإسلامي وقد بلغت لحد الآن ستة مجلدات) وتراجع تجربة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر في التعرّف على المذهب الاقتصادي في الإسلام.

(٢) مجلة رسالة التقريب العدد ٣٦، ص٢١٠.

(٣) راجع كتاب قصة الطوائف للأنصاري ص١٥٥ ـ فيما بعد.

حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية

إنّ ما اطلق عليه اسم (حركة التقريب) في العقود الأخيرة يمتلك جذوراً تمتد إلى أقدم الإسلامية؛ لأنّها تستمد أصالتها وحيويتها من أصول الشريعة الغراء، وتتوضح ضرورتها كلما اتسع نطاق مسؤولية هذه الأمّة في صنع الحضارة الإنسانية أو الإسهام الفاعل فيها على الأقل.

وقد نجحت في الفترة الأخيرة في التحول إلى استراتيجية فاعلة.

لقد وضع علماء وشخصيات كبيرة في الأربعينات من القرن الميلادي الماضي للبنات الأولى لهذه الحركة المباركة وجاهدوا حقاً في تبيين معالمها وكتبوا العديد من المقالات لترسيخها في النفوس، بعد أن أصّلوها وبيّنوا جذورها الشرعين وضرورتها المتنامية.

ونحن سعداء حقاً إذ نجد هذه البذرة قد نمت وتحوّلت إلى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين باذن ربها. حيث اهتمت بها المجامع العلمية كمجمع الفقه الإسلامي والايسيسكو وجعلتها من أهم أهدافها. وادخلها القادة المسلمون في اجتماعهم الاستثنائي بمكة المكرمة في الخطة العشرية للبلدان الإسلامية، واستقبلها العلماء بكلّ رحابة صدر.

خصوصاً بعد الحوادث التي جرت وتجري في باكستان وافغانستان والعراق ولبنان وغيرها.

عقبات.. في طريق التقريب

ولقد أثمرت جهود العلماء والمفكرين والمصلحين اتجاهاً عاماً نحو التقريب بين المذاهب الإسلامية، وميلاً عاماً نحوتغليب لغة الحوار المنطقية. وترجيحها على أية لغة أخرى انسجاماً مع توجهات الإسلام الأصيلة وتناغماً مع الميل العالمي نحو هذا الاسلوب فيما بين الحضارات والثقافات والأديان.

ونحن إذ نستبشر خيراً بهذا الأمر نعتقد بلزوم تعميقه في الأذهان والنفوس؛ لأنّه اتجاه علمي ونفسي خلقي في آن واحد، يريد أن يتعالى في الإنسان المسلم على خلافه في

الرأي مع الآخر، ويتغاضي عمّا يرتّبه هذا الخلاف من مقتضيات التنوّع في السلوك وصولاً إلى الموقف الموحَّد من التحدّيات الكبرى التي تواجهها الأمّة، وكذلك من الأمور الداخلية التي هي لوازم الشخصية الواحدة لها.

وتستلزم عملية التعميق هذه القيام بكل ما من شأنه تحويل الرغبة في التقارب وبالتالي في التفاهم إلى ملكة وخلق اجتماعي أصيل وعام حيث يعود معه كلّ صوت تبعيدي حالة نشازاً وخروجاً على الجماعة، وسعياً خارج الدائرة وتحركاً خارج السرب تنفر منه الطباع وتتقزّز منه النفوس.

ولن يتحقق هذا الهدف إلا إذا قام العلماء والمفكّرون بعملية الاستيعاب الكامل للفكرة أولاً ودراسة تاريخها، آثارها في مسيرة الأمّة التاريخية والحضارية ثانياً، وتوعية الجماهير وبأثارها ثالثاً ونقل الفكرة ـ بالتالي ـ إلى الممارسة العملية اليومية المستمرة حتى تتحقق تلك المملكة ويسود ذلك الخلق المطلوب.

وربما تطلّب الأمر تنفيذ مشروعات اجتماعية مشتركة في المجالات البحثية أو الاجتماعية وغيرها.

ولعل أهم نقطتين يجب التركيز عليهما في البين هما:

أ ـ استقصاء الدوافع الدينية والاجتماعية وحتى السياسية باعتبارها مقتضيات التحرّك نحو التقريب في الفكر والتوحيد في العمل.

ب ـ معرفة العقبات والموانع التي تقف بوجه ذلك. أمّا النقطة الأولى فهي تمتلك مخزونها الواسع في النصوص الإسلامية ويمكن الاستعانة فيها بأساليب القرآن الكريم المتنوعة في الدفع نحو الوحدة من خلال الدعوة المباشرة، وتركيز روح التعامل العقلاني والحوار المنطقي مع الآخر، والتذكير بتوحّد العدو ـ رغم تناقضاته ـ في جبهة المواجهة مع الأمّة الإسلامية، والنتائج الايجابية للوحدة، والسلبية للتمزق وأمثال ذلك، وله حديث مفصل يذكر في محله.

وأما النقطة الثانية فهي موضع تركيزنا هنا رغم أنّنا بلحاظ محدودية الزمان لا نستطيع التوسع في الأمر.

موانع في طريق التقريب

ولعل أهمها ما يلي:

أولاً: العامل الخارجي

من الواضح تماماً أنّ أعداء هذه الأمّة يخلقون كلّ الظروف التي تؤدّي لتمزيق هذه الأمّة ويقفون في وجه كلّ ما يعمل لتوحيدها. وقد لاحظنا أنّ الاستعمار الغربي عمل خلال فترة احتلاله للعالم الإسلامي، وخصوصاً في الفترة التي احتل فيها العالم الإسلامي كله تقريباً، وقضى على آخر دولة إسلامية شمولية في الربع الأول من القرن الميلادي العشرين، لاحظنا أنّه اعتمد سياسة ثلاثية تستهدف:

١ ـ إبقاء الأمّة على تخلّفها العلمي والاقتصادي والتعليمي وغير ذلك.

٢ ـ اشاعة الحالة العلمانية الغربية على الروح الإسلامية في العالم الإسلامي إلى جانب تحريك النزاعات القومية والعنصرية ولكن سرعان ما فشل مشروعه ممّا دعى بعض الكُتّاب المعاصرين لتسميته بـ«النصر سريع الزوال للعلمانية (١٩٢٠ ـ ١٩٧٠)».

٣ ـ تمزيق العالم الإسلامي إلى دول وشعوب متفرقة، وتحريك العنعنات المذهبية الجغرافية والقومية والعنصرية حتى التاريخية كلّ ذلك خوفاً من هاجس الوحدة الإسلامية الذي يجري الحديث عن والتخوّف منه باستمرار من قبل القادة والمفكرين والكتاب الغربيين ويتم لصراع دائم مع العالم الإسلامي على أساسه. تقول الكاتبة هانتر في مقدمة كتابها:

«قامت الرواية التي ألّفها جون بوشان، وكان لا يزال رائداً في استخبارات الجيش البريطاني عام ١٩١٦، على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها، إذا ما اندلعت، أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى في غير مصلحة القوات الحليفة.

كتب بوشان في روايته، العباءة الخضراء The Green Mantle: الإسلام عقيدة قتالية، إذ لا يزال ذلك الشيخ يقف في المحراب حاملاً القرآن باليد والسيف المشهور في اليد الأخرى. فإذا افترضنا أنّ هناك أملاً بالخلاص يعيد الروح حتى إلى الفلاحين في المناطق النائية ويدغدغ أحلامهم بالجنة فماذا سيحدث ياصديقي؟ ستفتح جهنم أبوابها في هذه الأرجاء عما قريب. لدي تقارير من العلماء في كلّ مكان، صغار التجار في

جنوب روسيا، وتجار الأحصنة في افغانستان والتجار التركمان، والحجاج في الطريق إلى مكة، والأشراف في شمال أفريقيا، ولابسي جلود الغنم من المغول، والفقراء الهندوس والتجار اليونانين في الخليج، فضلاً عن القناطر المحترمين الذين يستخدمون الشيفرة. هؤلاء جميعاً يجمعون في رواياتهم التي يرسلونها إليّ على الأمر نفسه، أنّ الشرق في انتظار إشارة إلهية.

بعد ذلك بنحو ثلاثة أرباع القرن، عبّر المعلق السياسي الأميركي، تشارلز كراوثمر، عن مخاوف مماثلة عندما قال: إنّ الولايات المتحدة تواجه خطرين جيوسياسيين محتملين، يتأتّي أحدهما من المنطقة نفسها التي ذكرها جون بوشان في روايته، فهو يتخذ شكل عالم إسلامي متّحد تحت راية أصولية على النمط الايراني تخوض صراعاً وجودياً ضد الغرب الكافر»[1].

وهي من أهم النقاط التي ركّز عليها المرحوم السيد جمال الدين في خطته العامة لتحقيق نهضة إسلامية كبرى.

وها نحن نشهد دور اليد الأجنبية الممتدة لتحرّك النزاعات الطائفية في باكستان والعراق وافغانستان ولبنان وسائر البلاد التي يتعايش فيها أتباع المذاهب. وربما استخدمت وسائل الاعلام والأقلام والألسنة المأجورة لتحقق الهدف.

ثانياً: المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام

وهو أمر شهدناه في عصور الظلام الماضية، ونشهده اليوم أيضاً حيث يستغل البعض نفوذه ليثير البسطاء بل ربما بعض المنتسبين لأهل العلم لتحريك الإحن والنزاعات الطائفية.

يقول أحد الكتّاب المؤرخين واصفاً بعض حروب الطوائف بتحريك من السلطات الحاكمة:

«وكانت لاتمرّ سنة دون عنف بين ما وصف بفرق السنة وفرق الشيعة في سائر أرجاء المنطقة العربية الإسلامية فقد تولّى الترك بأنفسهم عام ٢٤٩هـ عمليات القمع الطائفي ضد الشيعة... وكان أكثر الضحايا من منطقة (الشاكرية) ببغداد وبنتيجتها هوجم السجن

(١) مستقبل الإسلام والغرب. شيرين هنتر تعريب زينب شوربا ص١١١.

المركزي وأحرق أحد الجسرين الواصلين بين جانبي الكرخ والرصافة».

ويستمر في الحديث عن دور حكومات الطوائف في تحريك الفتن في مصر، وعن الاقتتال الطائفي بعد قيام حركة الزنج في سواد جنوب العراق، وامتداد النزاع إلى المدينة المنورة والي طبرستان، وتواصلت إلى شمال افريقيا وهكذا[١].

وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذه الظاهرة كمقدمة ابن خلدون وغيرها.

ويكفي أن نذكّر بدور النزاع العثماني الصفوي في خلق الفتن الطائفية الداخلية واضعاف الأمّة الإسلامية مما جرّ بالتالي إلى أن تفقد شوكتها وعزتها أمام التحدّيات.

فلقد سيطرت الدولة العثمانية (١٢٨٠ ـ ١٩٢٤م) على الشام وأجزاء من العراق اضافة إلى مناطق في شمال أفريقيا، وسيطرت الدولة الصفوية (١٥٠٦ ـ ١٧٣٤م) على ايران. وراحتا تتنافسان وتؤكدان هويتهما المذهبية.

ممّا أفرز نزاعاً طائفياً مقيتاً سبّبه نزاع المصالح ونهم الغزاة والقبائل والمستبدين لا المذاهب، وشهدنا استعار موجة التكفير والقتل وإهانة المقدسات في كلا الطرفين.

ونحن إذ نشير إلى هذا النزاع لا ننكر الخدمات التي قدمتاها للحضارة الإسلامية ولكننا ننعى عليهما استخدام النزعات المذهبية لأغراض سياسية.

وإذا كنا ننكر أي إكراه أو عنف للاجبار على تغيير المذهب فإنّنا ننكره على الطرفين معاً وبمستوى واحد.

ثالثاً: التكفير

وتعدُّ هذه الظاهرة من أهم العقبات بوجه التقريب. ورغم أنّ الإسلام وضّح تماماً الحدود الفاصلة بين الكفر والايمان، وحددها بدقة فإنّ هذه الحالة الغريبة حدثت بقوة.

فعن عبادة بن الصامت قال رسول الله ’:

من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ عيسى عبدالله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

وفي رواية أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية أيّها شاء، وروى الشيخان والترمذي:

(١) قصة الطوائف للدكتور فاضل الأنصاري ص٢٣٣.

من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله حرم الله عليه النار[١].

وروى سماعة عن الإمام الصادق (ع) قوله:

الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهرة جماعة الناس[٢].

وربّى القرآن الكريم الرسول الكريم ’ أتباعه على التعامل العقلاني والحوار المنطقي والقبول بالتعددية الاجتهادية إذا كانت على أسس شرعية منضبطة.

إلا أنّ هذه الظاهرة حدثت في ظل ظروف عصبية في مطلع الأمر كما في قضية الخوارج.

ورغم أنّ الأمّة عبرت هذه الحالة وعادت إلى التعامل المنطقي في عصر أئمة المذاهب وقدم الأئمّة أروع صور منطقية وربّوا أتباعهم عليها ولكن العوامل الكثيرة الأخرى قادت إلى عودتها من جديد.

وإنّي اعتقد أنّ أهم ما قاد لهذه الظاهرة هو ما يمكن تسميته بمؤاخذة الآخر بلوازم كلامه رغم أنّ هذا الآخر لا يؤمن بهذه الملازمة مطلقاً.

فقديماً كفّر الخوارج علياً (ع) معتقدين أنّ لازم موقفه من التحكيم كفره والعياذ بالله.

فقد ذكروا أنّه شك في نفسه حين قال للحكمين:

«انظرا فإن كان معاوية أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فاثبتاني» فإذا هو شك في نفسه ولم يدر أهو أحق أم معاوية فنحن فيه أشد شكاً».

وردّ الإمام عليهم بقوله: «فإنّ ذلك لم يكن شكاً مني، ولكن انصفت في القول، قال الله تعالى: (**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)[٣]. ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيه على الحق»[٤].

وبعد عصر الأئمّة دبّت هذه الحالة بوتيرة أوسع وذلك كما لاحظناه في الاختلاف

(١) ذكرتها الصحاح في أول ما ذكرته من روايات وجمعها صاحب جمع الفوائد في مطلع كتابه.

(٢) الكافي ج ٢، ص٢٥.

(٣) سبأ: ٢٤.

(٤) الاحتجاج للعلامة الطبرسي ج ١، ص ٤٤٤.

حول (زيادة الصفات على الذات الإلهية) و(التحسين والتقبيح العقليين) حيث رأى الطرفان المتنازعان أنّ الطرف الآخر يقوده رأيه إلى الكفر وهكذا نجد هذه الظاهرة في قضايا كثيرة من قبيل (التوسل) و(الشفاعة) و(البداء) وحتى في مثل (الاستحسان) و(القياس) و(المصالح المرسلة) وغيرها. في حين لواحتكم الجميع إلى الحوار المنطقي لاكتشفوا على الأقل لدى الطرف الآخر ما يبرّر له الايمان بهذه القضية أو تلك وربما اكتشفوا أنّ النزاع لفظي لا حقيقة له.

وزاد الجهل والتعصّب الطين بلة حيث يدخل في عملية الفتوى من ليس أهلاً لها فيفتي بغير ما أنزل الله. وهذا ما شهدناه بكل وضوح في الحركات التكفيرية في عصرنا ممّا أدّى إلى سفك الدماء البريئة على نطاق واسع باسم الدفاع عن الدين والأمّة وهما من هذه الحالة براء.

رابعاً: التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار

لا يحقق التشكيك الجو الهادئ المطلوب، ويدفع لنوع من التهرّب أو المماطلة أو تلمس العثرات مما يمنع من تحقق النتيجة المطلوبة. وهذا ما شهدنا نظيره في عمليات الحوار بين أتباع الأديان نتيجة ما يحمله كلّ طرف من تراكمات ذهنية عن الآخر فالطرف المسيحي مثلاً يحمل أحقاده الصليبية وإيحاءات المستشرقين بما يسمونه بـ(الهرطقة الإسلامية) وما يدور في نفسه من هواجس الصحوة الإسلامية التي تنافس مشروعه في السيطرة، في حين يحمل الطرف الإسلامي سوابق ذهنية كبيرة عن خدمة التبشير المسيحي للاستعمار على مدى قرون.

ولكن العمل الجاد والتوجّه للتعليمات الإسلامية الهادية والداعية لحسن الظن في الأخ المسلم يمنع من أن يلعب هذا العامل دوره في المنع من التقريب خصوصاً إذا تمّ على مستوى العلماء العاملين الذين خبر بعضهم بعضاً في مجالات العلم والاخلاص والعمل في سبيل الأمّة بمجموعها.

خامساً: التهويل والتضخيم واستحضار الماضي والتهجم على المقدسات وعدم احترام الآخر

وكلّ واحد من هذه الأمور يمكن أن يشكل بنفسه مانعاً من تحقّق الحوار المطلوب

وبالتالي الوصول إلى التقريب، وقد وجدنا النصوص الإسلامية تتظافر في المنع من هذه الأمور:

فقوله تعالى: (**قُلْ إِنّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنى وَ فُرادي ثُمّ تَتَفَكّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنّةٍ**)[1]. يمنع من الحوار في الأجواء الانفعالية المصطنعة.

وقوله تعالى: (**قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمّا تَعْمَلُونَ**)[2] يمنع من الانشغال بالماضي ويفرض احترام الآخر وذلك أيضاً واضح في الآية التي تنهي حتى عن سبّ آلهة المشركين.

سادساً: الاختلاف في المناهج

اضف إلى كلّ ذلك أن اختلاف مناهج الاستدلال وطرق الاستنباط يمنع من التقارب في النتائج فينبغي السعي إلى ما يأتي:

١ ـ الفراغ من المفروضات المسبقة قبل بدء عملية الحوار.

٢ ـ الاتفاق على منهج واحد للاستنباط وليس هذا الاتفاق أمراً صعباً.

٣ ـ تحقيق محل الحوار بدقة لئلا ينظر كلّ طرف إلى قضية ومفهوم لا ينظر ومفهوم لا ينظر إليه الطرف الآخر.

وهناك موانع أخرى من قبيل:

١ ـ اعتبار القول الشاذ علامة على المذهب كله.

٢ ـ أخذ تصوّرات المذهب من أقوال خصومه.

٣ ـ دخول من ليس أهلاً في عملية الحوار.

٤ ـ اتّباع الأساليب الملتوية للظفر بالآخر.

وغير ذلك ممّا لا يسعنا المجال للتعرض له ولكن يجب حذفه حتى نصل إلى التقريب المطلوب بل الضرورة في عالمنا الملتهب.

---

(١) سبأ: ٤٦ .

(٢) سبأ: ٢٥.

تنوع المذاهب بين الماضي والحاضر

انتشار المذاهب بين الماضي والحاضر

لقد تغيرت الخارطة المذهبية على مرّ التاريخ نتيجة عوامل كثيرة، ويكفي أن نقارن بين نصين ذكرهما الشيخ أسد حيدر[١] أحدهما للمقدسي وهو يتحدث عن انتشار المذاهب في القرن الرابع الهجري فيقول: «سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وجهر وصعده شيعة. والغالب على صنعاء أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم، وفي نواحي نجد واليمن مذهب سفيان. وفي العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة، وبه مالكية وأشعرية، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة فإنّها سنة، وأكثر أهل البصرة قدرية (وشيعة) وثم حنابلة.

... إقليم اقور وهو اليوم شمال العراق ـ أي الموصل ونواحيها ـ مذهبهم سنة وجماعة،إلا عانة فإنها كثيرة المعتزلة ولا ترى في الرأي غير مذهب أبي حنيفة والشافعي، وفيها حنابلة وجلبة للشيعة، واقليم الشام مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة ولا ترى فيه مالكياً، والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث.

اقليم مصر على مذهب أهل الشام، غير أنّ أكثر فقهائهم مالكيون،... وأعلى القصبة شيعة وسائر المذاهب في الفسطاط موجودة ظاهرية.

واقليم المغرب، فالمذاهب على ثلاثة أقسام، وأما في الاندلس فمذهب مالك، وقراءة نافع، وهم يقولون: لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي إلاّ مذهب أبي حنيفة ومالك.

... اقليم جانب خراسان للشيعة والمعتزلة والغلبة لأصحاب أبي حنيفة إلاّ في كورة الشاش فإنّهم شوافع وفيهم قوم على مذهب عبدالله السرخسي.

واقليم الرحاب مذاهبهم مختلفة، فالغلبة للحنيفة وهم بخارية، وبالري حنابلة كثيرة، وأهل قم شيعة، وفي الدينور جلبة لمذهب سفيان الثوري.

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١، ص٢٩٢ طبعة مجمع أهل البيت.

اقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة، ونصف الأهواز شيعة، وبه من أصحاب أبي حنيفة كثير ولهم فقهاء وبالأهواز مالكيون.

اقليم فارس، العمل فيه على أصحاب الحديث، وأصحاب أبي حنيفة، وللداودية دروس ومجالس وغلبة، ويتقلدون القضاء والأعمال.

اقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي.

اقليم السند مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث. ورأيت القاضي أبا محمد المنصور داودياً إماماً في مذهبه وأهل الملتان (شيعة يحيعلون في الأذان ويثنون في الاقامة) ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة وليس بهم مالكية، ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة[١].

ومن الواضح أنّ هذه الجغرافيا المذهبية تغيّرت بشكل كبير حتى في القرن الرابع والخامس نفسيهما.

أمّا عن القرن الثالث عشر الهجري فيحدّثنا العلامة أحمد تيمور[٢] بما يلي:

المغرب الأقصى يغلب عليه ـ الآن ـ المذهب المالكي. وعلى الجزائر وتونس أيضاً.

(طرابلس) المذهب المالكي. بكثرة، والحنفي بقلة، وهم من بقايا الأسر التركية، وأكثرها في تونس، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركاً للقضاء المالكي، وأمّا سائر أعمالها فقضاتها مالكية، وفي الحاضرة كبير المفتين ويلقّب بشيخ الإسلام، وله التقدُّم والزعامة والمعنوية على الجميع، والمالكي وله المقام الثاني، وقد تساهلوا ـ الآن ـ في تلقيبه بشيخ الإسلام أيضاً. ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفي، فإنّ من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفية، والنصف الآخر مالكية. وإنّما امتاز الحنفي بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة.

(مصر) الشافعي والمالكي، ويغلب الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان، ويكثر الحنفي وهو مذهب الدولة، والمتبع في الفتاوى والقضاء الحنبلي قليل بل نادر.

(١) أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشاري طبع سنة ١٩٠٩م بمطبعة بريل.
(٢) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص٤٢.

(الشام): الحنفي يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية، والربع الآخر حنابلة.

(فلسطين): يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعي، ويليه الحنبلي فالحنفي، فالمالكي.

(العراق):يغلب الحنفي فيه على مذاهب أهل السنة، ويليه الشافعي وبه مالكية وحنابلة.

(الترك): العثمانيون والألبان وسكان بلاد البلقان، المذهب الحنفي.

(الاكراد): المذهب الشافعي وهو الغالب على بلاد أرمينية، لأنّ مسلميها من أصلل تركماني أو كردي، والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية.

(الأفغان): المذهب الحنفي والشافعي، والحنبلي بقلة.

(تركستان الغربية): التي منها بخارى المذهب الحنفي، وأما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعي، ثم تغلب الحنفي بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقاز وما والاها الحنفى وفيهم شافعية.

(الهند): الحنفي والشافعي بقلة وفيها مذاهب أخرى.

(الهند الصينية): شافعية وكذلك مسلموا استرالية، وفي البرازيل من أميركا نحو ٢٥ الف مسلم حنفية.

(أميركا): فيها من المسلمين عدد ينوف على ١٤٠ ألفاً وهم مختلفو المذاهب.

(الحجاز): الشافعي والحنبلي وفيه حنيفة ومالكية في المدن أهل عسير شافعية.

(اليمن): السنيون فيها وفي عدن، وحضرموت شافعية، وقد يوجد بنواحي عدن حنيفة، والغالب على عمان الأباضية، ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية.

(قطر والبحرين): المالكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد.

(الاحساء): الغالب على أهل السنة فيها الحنبلي والمالكي.

(الكويت): المالكي.

ويعلّق الشخ أسد على هذا النص قائلاً:

«هذا ما ذكره العلامة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الأربعة وانتشارها، ولم يتعرّض لانتشار المذهب الشيعي في الأقطار الإسلامية في العصر الحاضر...

ولابد من ملاحظة عامل الزمن والتغيرات السياسية. كما لا يعني أنّ تقسيمات تيمور واحصاءاته هي من الدقة بحيث لا تقبل الاضافة في الأسماء والزيادة في العدد»[١].

وهذا صحيح فاستقصاؤه غير مستوعب؛ لأنّه لم يتعرّض مثلاً للبلاد الافريقية السوداء، ولا للمسلمين في الصين وروسية وغيرها.

ورغم أنّنا نرفض تقسيم المسلمين إلى أكثرية وأقلية إلا أنّ الواقع يفرض نفسه، وهنا نجد أنّ الأكثرية في العالم الإسلامي سنية وعلى اختلاف في البلدان من حيث كثرة أتباع أحد المذاهب الأربعة (الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي) والأقلية شيعية بلا ريب. (اثنا عشرية أو زيدية وغيرها) ويوجد أتباع المذهب الأباضي بشكل أكثرية في عمان كما تتواجد أقليات إباضية في شما ل افريقية.

فإذا ركّزنا على كلّ دولة رأينا هذه الحقيقة قائمة في أغلب الدول في حين تنقلب النسبة في دول كالعراق والبحرين وآذربايجان وتتعادل تقريباً في لبنان كما أنّ نوع العلاقات متباين.

فالأمور في دول جنوب آسيا ووسطها وافريقيا واميركا والدول الخليجية تسير نحو الوئام ومنح حقوق المواطنة للجميع مع وجود خلل في بعض هذه الدول نرجو أن يزول من خلال سعي هذه الدول لتحقيق حالة ديمقراطية مناسبة لها وسيطرة الاتجاه العقلاني والحواري على الاتجاه الطائفي المتطرّف.

ولكنه متشنج تماماً في العراق نظراً لتدخل المصالح الاستكبارية أولاً وضعف الحكم المركزي ثانياً وانتشار السلاح بيد المجموعات الطائفية ثالثاً وتلاحم المجموعات الارهابية التكفيرية مع بقايا النظام البائد رابعاً وثورة النزعات العشائرية والطائفية واتجاهات الثأر المضاد في المرحلة الخامسة.

إلا أنّني متفائل بمستقبل أفضل يعيد للنسيج العراقي لحمته الطبيعية وللعراق دوره الطليعي في القضايا الاقليمية والإسلامية والعالمية. وتفاؤلي هذا ناتج من خبرة لابأس بها بالتركيبة العراقية والأوضاع الاقليمية والعالمية.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١، ص٢٩٤.

إن إيمان الأغلبية الساحقة للشعب بالحل الإسلامي، ووجود الكوادر الإسلامية المتمرّسة التي عركتها المحنة الطويلة، وتوفّر العلماء الأتقياء التقريبيين كلّ ذلك سوف يساهم في الوصول إلى الوصول إلى الغد الأفضل.

وإنّني أعتقد أنّ عملية التوعية الجماهيرية وقيام العلماء بدورهم الوحدوي وأداء الدول الإسلامية والعربية دورها المطلوب في رأب الصدع سوف يؤدي إلى تحقيق المصالحة الوطنية المنشودة.

أمّا الأمر في لبنان فلا يمكن أن يصنّف في حقل الصراع الطائفي وإن سعى البعض إلى ذلك. وإنّما هو صراع سياسي محض نسأل الله تعالى أن يوفّق الشعب اللبناني لحلّه بأفضل وجه.

وعدا هذه الموارد فإنّني لا أجد أية حالة يؤبه لها في العالم الإسلامي إلا في باكستان ولكنها حالات فردية عابرة.

وفي الختام أسأل الله جلّ وعلا أن يمنّ علينا جميعاً بالعزة والوحدة والتلاحم لمواجهة التحدّيات المصيرية التي تستدف ثقافتنا بل وجودنا على مستوى العالم الإسلامي كله.

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)[1].

(١) التوبة: ١٠٥.

(هـ)

الهوية بين تهديد التنميط وتداعيات التفريط

متى ينطرح السؤال؟

عندما تهاجم أمّة ذات وعي وموقف من الكون والتاريخ والإنسان ولها إيديولوجيا حياتية مستوعبة ممّا ينتج تماسكاً هو من صميم فكرها وشخصيتها، فيراد لها أن تغرق في اللاأبالية، ويستهدف تماسكها، وعندما يتمّ العمل على فصل الواقع عن جذورة التاريخية العريقة ومبانيه العقائدية، وخصوصياته المحددة،

وعندما يخطط الأعداء كي يميتوا العقل الجمعي والثقافة العامة والترابط الشعوري والتناسق السلوكي،

وعندما يراد قهر الإرادة وتفتيت الوحدة وكسر المقاومة،

وعندما يُعمل على دفع أية أمّة للتردي في وهدة الحالة الفولكلورية والسطحية لينتج من ذلك إمّا التمجيد والنرجسية الفارغة أو التعصب والعنصرية (وفي كلتا الحالتين ستكون النتيجة هي التقهقر الهووي والتراجعية والتطرف فكراً وثقافة واجتماعياً كما يعبر الدكتور فتحي التريكي[1]،

نعم عندما يتآمر العدو على أمّة ما يبرز سؤال (الهوية) أو (الهوهوية) كما يعبر بعض الفلاسفة.

والهدف الواقعي هو معرفة حقيقة الأمّة كما هي ومعرفة حدود هذه الحقيقة

(١) الحداثة وما بعد الحداثة ص١٩٥.

ومشخصاتها دونما إغراق في التعميم والنمطية بحيث تتحوّل إلى حقيقة سيّالة ووجود منفتح، ولا تفريط بمعالم الشخصية وتضييع لفرديتها وتشخّصها الذي يمنحها ما تمتاز به على غيرها.

ما هي الهوية على صعيد الأمّة؟

يطرح الفلاسفة حقيقة لا ريب فيها هي أنّ المفاهيم الكلية تبقى ذهنية فإذا أريد لها أن تدخل عالم الوجود تشخّصت بحدودها وتعيّنت بميزاتها الوجودية ولكنها على أي حال لها هويتها في المرحلتين وهي تنطرح في الإجابة على سؤال ما هي أو ما هو؟ بل لا يمكن أن نتحقق من كون هذا الذي وجد هو مصداق لذلك المفهوم إلا إذا كنا نعرف أبعاد المفهوم نفسه.

ولذا يكون السؤال ما هي أبعاد مفهومنا عن ماهية الأمّة الإسلامية نظرياً؟ له الأسبقية على سؤال ما هو واقع هذه الأمّة ومدى انسجامه مع الصورة النظرية؟

وما نتصوّره لهذه الأمّة نظرياً يتأطّر بالإطار التالي:

أولاً: تجمّع بشري يؤمن بتمييز الإنسان عن سائر الموجودات الحية بخصائص فطرية لا تتوفر بمجموعها فيها هي:

أ ـ العقل بأحكامه النظرية والعملية، وقدرته على التخلّص من سيطرة الواقع الحسّي وتأثيراته من خلال إدراكاته المتخيّلة، والموهومة والمستنبطة بالإضافة لمحسوساته التي يتجاوزها لتكوين المفاهيم الكلية التي يسرح بينها ليعود إلى الواقع المحسوس ويدرسه ويلاحظ نقاط القوة والضعف فيه وليفترض صورة جديدة تتخلّص من نقاط الضعف وتحتفظ بنقاط القوة،وليرسم لنفسه خارطة توصله للصورة النموذج، وحينئذ تبدأ عملية التغيير من خلال دوافع العلة الغائية ولذا يمكن أن يمتاز الإنسان بكونه الحيوان المغيّر.

ب ـ الغرائز والميول، وهي دوافع عمياء تشاركه في بعضها الأحياء الأخرى ويختص هو بميول متعالية (كالشوق إلى الكمال وحب الاستطلاع والتدين وأمثال ذلك).

ج ـ الإرادة الحرة التي تقرّر الموقف بمسؤولية مهما اشتدّت الضغوط العقلية والعاطفية.

ثانياً: ويؤمن بالله تعالى خالقاً للكون مدبراً له وبكل صفاته الحسنى الجمالية والجلالية، وبالأنبياء والرسل وآخرهم الرسول الأكرم محمد ' الذي جاء بالرسالة الخاتمة الخالدة قادة للتاريخ الإنساني ومبلغين لشرائع الله الهادية إلى مدارج الكمال، وبالقيامة معاداً لهذه المسيرة ممّا يعطيها هدفية ومعنى ولكل هذه المعتقدات فروع كثيرة تستفاد منها منطقياً.

ثالثاً: ويؤمن برسالة إسلامية تنظّم الحياة وتبني المجتمع وتربّى العقل والعواطف وتوجّه السلوك كله نحو الكمال وتتصف بالواقعية والأخلاقية والتوازن والمرونة والشمول والعدالة والوسطية إلى ما هناك من صفات منسجمة.

رابعاً: ويؤمن بضرورة المساهمة في المسيرة الحضارية الإنسانية وامتلاك دور طليعي فيها، عبر انفتاح على الحضارات والثقافات وتشجيع على التقدم، واتخاذ منهج حواري منطقي مع الآخر، وتعاون عالمي في كلّ ما يخدم الصالح الإنساني العام ويدفع الظلم والعدوان على الحقوق وينصر المستضعفين ويحقق السلام العادل.

موارد الحذر

وفي مجال تحديد الهوية يجب الحذر من الجوانب السلبية وأهمها:

أ ـ السقوط في مفهوم ذاتوي متعال، ونرجسية تصعيدية لا مبرّر لها، ونمطية تهدّد كلّ أنواع الحوار وتنظر لنفسها على أنّها نهاية التاريخ ومنتهى التقدّم تماماً كما نشهده عند الليبرالية الديمقراطية ومنظريها اليوم، فهم مهما اختلفوا في الوسائل، أهي الصراع أو التنافس، يتفقون على أنّ المسار الحضاري يجب أن تتجه بوصلته نحو (الليبرالية الديمقراطية) لا غير وحتى أولئك الذين يبدون مرونة في التعامل مع الآخر الإسلامي فهم يبقون على الهدف ويخففون من قسوة الوسائل.

إنّ الهوية الإسلامية رغم قيمها الثابتة الفطرية تفسح المجال للاجتهاد الإنساني أن يقدّم إبداعاته التفصيلية، وحكمته العملية التنظيمية الإبداعية، ورغبته الاجتماعية المتغيّرة.

ب ـ السقوط في هاوية التفريط بالقيم الإنسانية الثابتة، وهو مرض قاتل للحضارة يعصف بالقيم والعقل والمنطق والحقيقة والمعرفة، وهو تماماً ما سقطت فيه حالة ما بعد الحداثة الغربية.

إنّ الواقع الإنساني يحوي ثوابت قيمية هي سر انطباع أية مسيرة بشرية بالطابع الإنساني ومتغيّرات طبيعية من قبيل بعض علاقات الإنسان بأخيه الإنسان أو بالطبيعة وإذا كان التعامل مع القيم ثابتاً فإنّ التعامل مع الجانب المتغيّر يتّصف بطابع المرونة.

وعليه، فنحن ندعو للمرونة الواقعية ونرفض الميوعة المفرطة، يقول الأستاذ الشهيد الصدر:

«فالتحرك الضائع بدون مطلق تحرّك عشوائي كريشة في مهب الريح، تنفعل بالعوامل من حولها ولا تؤثر فيها. وما من إبداع وعطاء في مسيرة الإنسان الكبرى على مرّ التاريخ إلا وهو مرتبط بالاستناد إلى مطلق، والالتحام معه في سير هادف» غير أنّ هذا الارتباط نفسه يواجه من ناحية أخرى الجانب الآخر من المشكلة، أي مشكلة الغلو في الانتماء بتحويل النسبي إلى مطلق وهي مشكلة تواجه الإنسان باستمرار إذ ينسج ولاءه لقضية لكي يمدّه هذا الولاء بالقدرة على الحركة ومواصلة السير، إلا أنّ هذا الولاء يتجمّد بالتدريج ويتجرد عن ظروفه النسبية التي كان صحيحاً ضمنها، وينتزع الذهن البشري منه مطلقاً لا حدّ له للاستجابة إلى مطالبه، وبالتعبير الديني يتحوّل إلى إله يعبد بدلاً من حاجة يستجاب لإشباعها[1].

(١) الفتاوى الواضحة ص٧٥٣.

ويقول الأستاذ التريكي: «والفهم الموضوعي (لقضية الهوية في قبال الفهم الذاتوي) يحاول إقرار تناظر وتناسق بين الهوية والعقل في صبغته المنفتحة والكونية في الآن نفسه، وهو يأخذ بعين الاعتبار ثوابت الوجود ومتغيّراته ويفتح الوجود على الحياة بتغيّراتها ومفاجآتها ونضالها وتوتراتها، فالذات في هذا الفهم مؤسسة للعقل والوعي المتحرك»[1].

السلوك الرشيد

ومن هنا فإنّ من اللازم علينا ـ ونحن نعمل على تلافي تهديد التنميط وتداعيات التفريط ـ الالتزام بسلوك متوازن رشيد ومن أنماطه ما يلي:

١ ـ أن تمتلك الأمّة نظرة عالمية إنسانية تستمد فلسفتها من وحدة الفطرة ووحدة المسيرة وضرورة التعاون الدولي في نظام عادل يعطي كلّ ذي حق حقه ويحترم الخصوصيات الثقافية كما يحترم حقوق الإنسان وحرياته دونما اعتداء.

وحينئذ يجب التنبيه والحذر من الوقوع في حبائل هذه العولمة المجنونة التي تعتمد الهيمنة الثقافية والسياسية والاقتصادية على الآخرين، وهي في الواقع إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالية القديمة مع تغيير في الأسلوب والوسيلة.

إنّنا لا نستطيع أن نخطط لأية قضية حتى ولو كانت تبدو لأول وهلة داخلية بحتة ـ من قبيل قضايا التربية والإعلام والبيئة الداخلية وحركة الطاقة الداخلية والمسيرة الزراعية والتنمية العلمية، وحتى المناسبات والقناعات الفولكلورية ـ إلا إذا لاحظنا المسيرة العالمية للعولمة في كلّ هذه المجالات وإلاّ فسيكون تخطيطنا ناقصاً تواجهه موانع بعد ملاحظة الفضاء العولمي والنفوذ العميق لثقافة العولمة إلى كلّ مجالات حياتنا شئنا أم أبينا.

وتلك بنفسها مشكلة تضغط على أنماط تخطيطاتنا.

(١) الحداثة وما بعد الحداثة ص ٢٠١.

ثمّ أنّ مفهوم الدولة وقدرتها بدأ يهتزُّ بشدة بالتالي راح دور الضغط الخارجي، والمراقبة الكونية يزداد. وربما كان هذا ذا أثر ايجابي في مجال نفي الأساليب الديكتاتورية والقمعية وإدانة انتهاك حقوق الإنسان، إلاّ أنّنا نعلم كون العولمة لا تستخدم هذه العناوين البرّاقة إلاّ لتبرّر تدخّلها لتحقيق مصالحها الضيقة، فإذا رأت أنّ تدخّلها ينقلب على أهدافه المخفية تخلّت عنه، وهو بالضبط ما رأيناه من تخلّي أمريكا عن مشاريعها في الشرق الأوسط الكبير والجديد، بل وحتى عن عملائها الذين ثارت بوجههم الشعوب.

٢ ـ أن تعتمد الأسلوب الوسطي المتوازن في مختلف تعاملاتها مع الواقع وتتجنّب الإفراط والتفريط، فكلاهما يعدُّ خروجاً عن الجادة المستقيمة. ويمكننا أن نؤكّد أنّهما إذا ركّزا على أي شيء أفسداه حتى العلم والدين والمعرفة فإذا أصيبت هذه الأمور بالإفراط مثلاً تحوّلت إلى مسارات خطيرة ومنزلقات واسعة.

٣ ـ أن تجعل عملية الحوار مع الآخر الداخلي والخارجي منطقها قبل أي خطوة أخرى. وها هو القرآن يتحدّث لنا عن أساليب من الحوار جرت ويمكن أن تجري بين أطراف متنوّعة ويرسم لنا أحسن الطرق في الحوار حتى أنا لنعتقد أنّ في القرآن نظرية متكاملة للحوار المنطقي السليم. ويخطئ من يتصوّر أنّ الحوار لغة العاجزين، بل هو على العكس لغة الأقوياء في منطقهم، المطمئنين إلى أصالتهم، الواثقين من هويتهم، الموضوعيين في تعاملهم. نعم إذا أراد الآخرون استغلال الحوار لكسب الوقت وتنفيذ الخطط الجهنمية أو لبثّ الشبهات الممزّقة والظلم للوجدان الاجتماعي فإنّهم هم الذين يسدّون باب الحوار.

٤ ـ أن تعتمد الأمّة منهج التغيير المستمر بهدف الوصول إلى الأفضل طبعاً مع الاحتفاظ بالثوابت الإسلامية التي هي جزء من الهوية. وتعمل على تعبئة كلّ طاقاتها المادية والمعنوية للتخلّص من حالة التخلّف الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والتقنين والتربوي والإعلامي وغير ذلك وليكن المنهج التغييري سمة عامة وفق ما أراده الإسلام كما أشرنا إلى ذلك.

إنّ التجديد حتى في أساليب الاستنباط الديني، والتحريك في عملية الوعي، يشكل منّة على الأمّة كما تذكرة الروايات.

٥ ـ أن تمتلك الأمّة المناعة الكاملة ضد التآمر على هوّيتها التقنينية وثقافتها الاجتماعية من خلال التأثيرات التي تتركها احتكار المؤتمرات الدولية والجو الإعلامي من قبل قوى التآمر.

وهذا المعنى ينسحب على عملية التقنين والتشريع الثقافي والاجتماعي؛ فها نحن نشهد مؤتمرات التنمية والسكان والمرأة تسعى جاهدة لتعميم الثقافة الغربية والتصوّرات الاجتماعية المنحرفة باسم (الحقوق الجنسية) و(الحرية الفردية للمراهقين) وأمثال ذلك، مضمّنة ذلك في خانة حقوق الإنسان، وهي الباب الواسع الذي تنفذ منه العولمة إلى جميع المجالات.

كما أنّنا نشهد تدخُّل العولمة الإعلامية من خلال الجوّ الخانق للمعلومات المتدفّقة عبر مئات المحطات الفضائية والانترنت لتغير الحقائق، وتثبط الهمم وتبثُّ الشائعات وتمزّق الأواصر، وتغيّر التصوّرات وتشكك في القناعات وتخلق الحزازات. وهذه أمامنا المؤامرة الضخمة التي تعمل على أن يخطئ العالم الإسلامي عدوه الحقيقي ويتوجّه إلى أعداء وهميين، بعد تحريك الكوامن الطائفية والقومية والجغرافية والتاريخية فيه.

وعلى نفس الوتر نذكر بالمشكلة الأخلاقية التي جلبها لنا إعلام العولمة فجعل الرذيلة والعري والتحلّل وكلّ المحرمات مباحة معروضة في العلن أمام شبابنا وكلّ من تتحرّك فيهم الأهواء. والأنكي أنّه خلق له قواعد ومحطّات داخلية تصبُّ جميعها على الترابط الخلقي بين مجتمعاتنا فلا يستطيع الخيّرون أن يصلحوا الأمر.

وقد ابتلينا أخيراً بالتدخّلات العسكرية الامريكية تحت غطاء العولمة ومساهمة القوى العظمى في دفع الأخطار عن البشرية ومحاربة الارهاب، بعد أن سوقت لمفاهيم عولمية خطيرة من قبيل مفهوم (الحرب الاستباقية) وأمثال ذلك.

وكانت التدخّلات الخطيرة في افغانستان والعراق ولبنان، والقائمة ممتدة، بالاضافة للعدوان الصهيوني المستمر في تطبيق الأجندة الغربية الممتدة.

ولاريب أنّ العالم كله قد شهد ما تركته هذه التدخّلات من آثار ثقافية واجتماعية واقتصادية مدمرة عانت منها مجتمعاتنا كثيراً.

وربما كان من سخرية المسيرة اليوم أن نجد نظماً حاكمة تتذرع بالدفاع عن شخصية الأمّة ووحدتها وصمودها في قبال العولمة بتشديد الرقابة وزيادة القيود على الحرية وتكميم الأفواه ونشر الاستبداد، فتكون بذلك من قبيل المستجير من الرمضاء بالنار. وما هي في الوقاع إلا ذريعة للتشبّث بالحكم والسلطة وقد توافقها دول العولمة؛ لأنّها تؤمّن لها نفوذها وهيمنتها وهو المقصد الأول في كلّ العملية العولمية.

٦ ـ يجب أن تقوم الأمّة بالنظر إلى المستقبل والعمل له دون الغرق في الطوباوية ودون أن تهمل تاريخها؛ لأنّه أيضاً جزء من هويتها والذي يجب توظيفه لصالح التغيير التكاملي بدلاً من البقاء في أسر أحداثه المتلاطمة. إنّه يجب أن يكون عبرة للاعتبار لاوحدة للتخدير وأحياناً للاختلاف المرير.

إنّ الطوباوية في النظرة المستقبلية مثلها مثل الذاتية التخديرية في النظرة التاريخية تضرُّ بالمسيرة أيما اضرار.

٧ ـ يجب أن تمتلك الأمّة موقف الأمل بالله مع الاطمئنان ببقاء السنن الكونية.

فإنّه على ضوء إيمان المسلم بطلاقة المشيئة الإلهية ينشدّ بالله تعالى في حالاته، ويتعلّق بفضله، ولا ييأس من روح الله تعالى في أشدّ حالات الحرج. ومهما استعصت الظروف وبدا له أنّها لن تتفرج فهو معتقد بقدرة الله على تغييرها، هذا من جهة،

ومن جهة أخرى فهو يعمل على سلوك السبيل الطبيعي الذي يحقّق الهدف، نظراً لأنّه يعتقد بأنّ الله «أبى أن تجري الأمور إلاّ بالاسباب» وهاتان الجهتان: عدم اليأس، وسلوك السبيل الطبيعي، تشكّلان عنصرين مهمّين تتوازن بهما الشخصية الإنسانية. فعدم اليأس يبقى الدافع الأصيل ويحافظ على رباطة الجأش، ولا يدع القوى تتفتّت.

وسلوك السبيل يرتفع بالإنسان عن العيش في الخيال، ويجعل منه إنساناً واقعياً يتعامل مع الواقع كما يتطلّبه الواقع.

٨ ـ على الأمّة أن توازن بين موقف التوكّل على الله وموقف الثقة بالنفس.

ولعلّ هذا النوع من التوازن يرتبط كلّ الارتباط بما قبله، فإنّ اعتقاد المسلم بالإرادة الإلهية المطلقة يجعله يوكل أموره إلى الله، ويعتقد أنّه لايملك من أمره شيئاً إلا بإذن الله تعالى فلا هداية إلا من الله تعالى، ولا توفيق إلا به تعالى، ممّا يركّز النظر عليه في كلّ تأثير... إلا أنّ هذا التوكّل على الله لا يفقده الثقة بنفسه وبقدرته على التغيير، بل يمنحه أعظم الثقة بنفسه، ذلك لأنّه يتصور أنّ الله تعالى منحه سلطان التغيير، وجعله خليفته على الأرض، يعمرها وينشئ فيها حضارة السماء أي الحضارة التي تشكّل تعاليم السماء روحها، وأوكل إليه عملية التغيير الكبير.

فهو إذن إنسان يعقل ويتوكّل، يغيّر ونظره مركّز على السماء، يبني وهو يعلم أنّ المدد الحقيقي من الله تعالى. وما أروع الثقة المنبعثة في النفس التي تتوكّل على الله تعالى خالق الكون فتقتحم الصعاب وتقدّم التضحيات.

٩ ـ وعليها أن تقف موقف العلوِّ على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كلّ عامل.

فبعد إيمان المسلم بأنّ العوامل المحركة للتاريخ مختلفة تتراوح بين القوانين التكوينية المحركة وغير المحسوسة إلى الفطرة بغرائزها، وفوق كلّ ذلك الإرادة الإنسانية التي تهيئ للإنسان مجال التحكُّم في مسيره... يكون قد علا على المشاكل التاريخية، بعد أن علم بأنّ له اختيار تنظيم حياته، وبيده صنع حضارته، فليست المشكلة التاريخية مفروضة عليه من الأعلى بحيث لايمكنه أن يتحرّك تجاهها، وإنما يمكنه ـ متى لاحظ عدم صلاح واقعه ـ أن يغيّره.

وهذا التصوّر يعطيه حركية دائمة على التطوير والتقدم التكنيكي، كما تعمل على التكامل المعنوي والفكري، كلّ ذلك ضمن تخطيط سماوي رائد يوضح له ما يجب أن يريده ويرشده لئلا يضلّ، ويعين له الهدف الذي يجب أن يسوق التغيير باتجاهه.

ومن هنا فهو ليس عبداً لعامل تاريخي معين، ولا لكل العوامل، بل كلّ العوامل التاريخية مسخرة لصالحه، وكل القوانين التكوينية المحسوس منها المحسوس قنّنت لصالحه، ويستطيع أن يستفيد منها في صنع حضارته ورقيه، تماماً كما يستفيد من قوانين: الضغط، والإزاحة، والجاذبية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يحسب لكلّ عامل حسابه على ضوء التشريع الإلهي، فلا ينسى مثلاً دور العامل الاقتصادي ولا دور العامل الجغرافي أو العامل الغريزي الجنسي وغير ذلك، وهو يستهدف التشريع ليستثمر هذه العوامل لصالحه.

فهو هنا ـ إذن ـ يوازن تقدير عمل العوامل والعلوّ على جميع المشاكل التاريخية، فيكون واقعياً في سلوكه.

١٠ ـ وعلى الأمّة أن تقف موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر وذلك، لأنّه لما كانت السبل كثيرة، والإغواءات متوفرة، والشيطان يقعد للإنسان بكل مرصد فإنّ الإنسان المسلم يصمم على خوض تجربة الحياة.. ويتأكد بين الحين والآخر من صحة اختياره متسلحاً بسلاح الوعي مستمعاً لإرشادات الوحي، متجنّباً مزالق الضلال، مطمئناً بأنّه ليس للشيطان عليه أي سلطان، وأن سعادته تكمن في رجمه ورجم كلّ ما يمثله. وتأتي التعاليم الإسلامية فتذكره بطرق الخير دائماً وأهمّها العبادات التي تشدّه شدّاً بالله تعالى، وتركّز على أن ينفي الشر عن حياته، وهذا ما يبدو بوضوح في رجم الجمرات مثلاً.

وعليها بالتالي أن تقف موقف الخوف والرجاء.

ويكاد هذا النمط من التوازن يشكّل معلماً بارزاً من معالم الشخصية المسلمة.

فعن الصادق(ع) أنه قال: «كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن، إلا وفي قلبه نوران، نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[١].

(١) الوسائل ج١، ص٩٦.

فالرجاء العظيم برحمة الله تعالى يدفع الإنسان المسلم نحو الحياة ويفتح قلبه للمستقبل، والخوف العظيم من عقابه يدفعه لأن يحقق مقتضيات الرحمة الإلهية.

ويرتفع مقياس الخوف والرجاء كلما تعمقا في النفس الإنسانية وتجلّت لديها المعقولات فقربت من عالم الحس ومن ثمّ انعكست على السلوك الخارجي.

كما يقول الإمام الصادق (ع): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولايكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[١]

والملاحظ هنا ـ كما لاحظ ذلك بعض الكتّاب[٢] ـ أنّ الإسلام قبل أن يستفيد من خاصيتي الخوف والرجاء والتأثير بهما في النفس الإنسانية، لجأ إلى توجيههما الوجهة الصحيحة، فنفى كلّ متعلقاتهما الباطلة التي تحرف النفس عن الهدف، بل وتشكّل مصدراً للقلق الممزّق للنفس الإنسانية، المميّع لكل تماسك وتوازن فيها، وهو الداء الذي ابتلي به الماديون ففقدوا توازنهم الروحي وعاشوا مع الخوف حتى من الأمور الوهمية.

نعم، نفى الإسلام تعلُّق الخوف بأمور لا ينبغي الخوف منها، إلا في حدود الخوف من الأمر الصحيح. كما نفى الرجاء ولم يسمح له أن يتعلّق إلا في حدود الرجاء للأمر الذي ينبغي أن يرجى.

وبتعبير آخر: إنّ الخوف الحقيقي يجب أن يكون من عذاب الله وغضبه، والرجاء الحقيقي يكون لرضا الله ورحمته، فكل خوف أو رجاء لا يؤطّره هذان الأمران لا قيمة له في الحساب القرآني ويجب أن ينتفي من حياة الإنسان؛ لأنّه مصدر قلق بعد أن تعلّق بأمور غير منضبطة بل وخرافية أحياناً.

(١) الوسائل ج ١١، ص١٧.

(٢) انظر: منهج التربية الإسلامية، ص١٥٧.

صفحه سفيد

المقال الثانـي

الصحوة والتغيير

الصحوة والتغيير[1]

قد لا نأتي بجديد لو تحدّثنا عن أهمية إعادة النظر المستمرة في مضامين الفكر الإسلامي وصيغه، بهدف تجديدها وتفعيل العناصر الساكنة فيها؛ لأنّ استشعار هذه الأهمية من قبل أصحاب الفكر والاختصاص بات من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل.

وحسبنا أنّ الواقع المتغيِّر والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي، تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي. وبالتالي رفد مسيرة الصحوة الإسلامية وعصرنتها باستمرار. وهذا لا يعني أنّ الضرورة تبيح لنا فتح الباب على مصراعيه أمام كلّ دعوة للتجديد أو كلّ منهج يهدف إلى التجديد، بل على العكس، فإنّ تزايد تلك الأهمية تتناسب طردياً مع تزايد الحاجة إلى ضبط عملية التجديد وتقنينها بالطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكِّن الفكر الإسلامي من استيعاب كلّ مجالات الحياة، وتجعل الاجتهاد أداة لإخضاع الواقع للشريعة، وحينها لا يكون التجديد هدفاً بذاته، بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه.

وأعتقد أنّ عقد المؤتمرات والملتقيات يمثّل – في جانب منه – حرصاً من قادة الفكر

(١) ألقي في مؤتمر (التجديد في الفكر الاسلامي) المنعقد في القاهرة بتاريخ ١ ربيع الاول ١٤٢٢هـ الموافق ٣١ مايو ٢٠٠١م.

الإسلامي على حماية هذه الفكرة من موجات الاستهداف المباشر وغير المباشر، والتي ترفع ألواناً مختلفة ومتنوعة من الشعارات البراقة أحياناً والقاتمة أحياناً أخرى. الأمر الذي يجعلنا حريصين على استمرار عملية التجديد بالمقدار نفسه الذي نحرص فيه على سلامة مناهج التجديد وأصالتها.

إنّ عملية التجديد التي نقصدها تتمثّل في إيجاد صيغ فكرية جديدة تعتمد المصادر الإسلامية المقدسة، سواء كانت هذه الصيغ جديدة في موضوعاتها أو أنّها معالجات لموضوعات قديمة أو أنّها إعادة لتنظيم أفكار موروثة. والمهم هو أن تكون هذه الصيغ قادرة على الإجابة على التساؤلات الجديدة، وقادرة أيضاً على تلبية الحاجات المتغيرة التي تفرضها تحوّلات الزمان والمكان.

وعلى هذا الأساس فإنّ الاجتهاد لصيق بعملية التجديد، فهو أداتها والمولِّد الذي ينتج مواد التجديد. وبرغم أنّ الاجتهاد يعني اصطلاحاً – على وفق الفهم الموروث – القابلية على استنباط الحكم الشرعي من مصادر التشريع الإسلامي، إلاّ أنّ تعميمه ليشمل كلّ مجالات الحياة، أو بالأحرى كلّ مجالات الفكر الإسلامي التي تتدخل في كلّ زوايا الحياة، سيجعل الاجتهاد منسجماً مع أهداف الشريعة نفسها، والتي هي قانون الحياة. إذن، فالاجتهاد هو أداة التجديد في فقه الأفراد، وأداة التجديد في فقه المجتمع وفي الفكر الاقتصادي والفكر السياسي والفكر الاجتماعي وغيرها، فضلاً عن قضايا علم الكلام، وأدوات الاستنباط وآليات فهم المصادر الإسلامية المقدسة، فهذه كلها تحتاج إلى الاجتهاد والتجديد. وهذا ما يجعل عملية التجديد ضرورية وخطيرة في الوقت نفسه.

وتكمن خطورتها في حساسيتها البالغة وآلياتها الدقيقة وطريقها الصعب؛ لأنّ أي تهاون أو انحراف فيها – لا قدّر الله – سيؤدي إلى نتائج كارثية لا تتوقّف آثارها على المجدّد أو المجتهد أو الفكر وحده؛ بل تتعداه إلى الامة بأكملها أو إلى فصيل وشريحة منها. ولا نبالغ إذا قلنا بأنّ المفكر داعية التجديد يمشي على حد السيف خلال عمله، وبالتالي فأي خطأ سينجم عنه منظومة كاملة من الأخطاء.

وتنطلق عملية التجديد من قاعدة المرونة أو عنصر المرونة في الإسلام، فعنصر المرونة هذا هو الذي أعطى للاجتهاد شرعيته، وخلق منه أداةً للتجديد في الفكر

الإسلامي. ومن هنا، ففهم عملية التجديد تبدأ من فهم عنصر المرونة في الشريعة الإسلامية ومظاهرها وتطبيقاتها. وهو ما سنحيله إلى محاور البحث.

بين التجديد والمرونة

التمييز بين التجديد في الفكر الإسلامي وعنصر المرونة في الإسلام يمثّل مدخلاً للتعرّف على حقائق التجديد، ومدخلاً أيضاً لاكتشاف مظاهر المرونة وتطبيقاتها. ويتمّ هذا التمييز عبر أساسين:

الأول: أنّ الفكر هو تصوّر مستقى من الإسلام، أي أنّه نتاج فهم المفكر للمصادر الإسلامية المقدسة عبر الأدوات الشرعية للفهم. وهذا الفهم ـ الذي يبذل فيه المفكّر كلّ جهده ليكون النتاج الفكري أكثر قرباً من مراد الشارع المقدس ـ له علاقة أيضاً بطبيعة فهم المفكر للواقع. ومن هنا فإنّ الفكر المنتَج يتأثّر بثقافة المفكر ومعرفته بالعلوم ذات المدخلية بموضوع الفكر، فضلاً عن بيئة المفكر واستجابته لعوامل الاختلاف ونوعيته وإحاطته بجوانب الموضوع. وهذه العوامل متغيّرة من مفكر لآخر، الأمر الذي يؤدي إلى بروز نوع من الاختلاف بين النتاجات الفكرية، فإنّ عملية الاستنباط هذه أو الفهم هي الحيّز البشري في الفكر الإسلامي، وبالتالي فالتجديد الفكري يتأثّر بمجمل هذه الحقائق؛ لأنه غاية المفكر التي يستخدم من أجل الوصول اليها فهمه للأصول المقدسة وللواقع أيضاً. وهو الذي يعبَّر عنه بالاجتهاد.

أمّا الإسلام فهو نظام شامل ومتكامل، ويعبِّر عن الثوابت التي لا تقبل التجديد بذاتها. وللإسلام أساليب ثابتة في التعامل مع الجانب الثابت في الحياة الإنسانية، وله أيضاً أساليب مرنة في التعامل مع الجانب المتغيِّر، أي أنّ مرونة الإسلام وشريعته السمحاء تقتصر على معالجة المتغيرات، التي تمثّل المساحة التي تتحرّك فيها عملية التجديد.

الثاني: أنّ مرونة الشريعة تخلق مساحة مفتوحة من المتغيرات، وهي مساحة

مشروعة تتدخل فيها الاجتهادات أو تصورات المفكّر والعوامل المتغيّرة في شخصيته وفي فهمه، والتي يعمل المفكّر في إطارها على تنظيم الجوانب التقنينية (التشريعية والتنفيذية) للحياة، بهدف اخضاع الحياة للشريعة. ومن هنا فإنّ البعد المرن في الشريعة هو الذي يحدّد مجالات التجديد في الفكر الإسلامي ومساحاته. وهذه المساحات تتسع كلما ازدادت متغيرات العصر وضغوطاته وتحدياته.

مظاهر المرونة في الشريعة

لا تعني المرونة التنازل المبدئي أو الميوعة التنظيمية، فإنّ كلاً منهما يتنافى مع عقائدية المبدأ المرن وواقعيته العملية؛ ذلك أنّ العقائدية والواقعية توجبان ثبات الأسس العقائدية والمفاهيم التصورية وثبات النظم والبناء العلوي الذي يقوم على أساس من ذلك التصوّر الرصين، فالمرونة ـ إذن ـ تعني التكتيك والتدرُّج الواقعي الذي يلحظ ضغوط الواقع، ويستهدف تعميق التصوّر الأصيل، والوصول إلى تطبيق الصورة التنظيمية المثلى. كما تعني قدرة النظام على استيعاب التحولات الزمانية والمكانية والتعقيدات الاجتماعية كلها، ووضع العلاج الواقعي لها في إطار الاطروحة العامة للتنظيم. وبالتالي فالمرونة هي اتخاذ موقف مؤقت يتغير بتغير الحالة بهدف المحافظة على الموقف العام.

والعقيدة لا تخضع لعامل المرونة، فهي الثابت – بالمطلق – الذي لا يخضع للمساومة تحت ضغط الواقع. في حين أنّ التشريع وأساليب التطبيق والتبليغ فيهما جوانب متغيرة، ولذلك فإنّ لعنصر المرونة مدخلية في صياغاتهما ونظمهما. وهنا يكمن سر خلود الإسلام وبقائه وقابليته على استيعاب كلّ ألوان التطوّر والتحدّي. وتتمثل أهم مظاهر المرونة في الشريعة الإسلامية بما يلي:

١ـ مقاصد الشريعة وقواعدها الفرعية، وهي ـ كما يقول علماء أصول الفقه ـ على نوعين: مقاصد عامة، وترتبط بالغايات العامة للشريعة، والتي من شأن أحكامها الكلية تحقيق مصالح الأمة، ومقاصد خاصة ترتبط بغايات باب محدد من التشريعات التي تحقق مصلحة معينة من مصالح الناس. والمقاصد الخاصة فيها أيضاً جزئية ترتبط بحكم شرعي معين.

وقد اختلف الفقهاء والأصوليون في تحديد أنواع المقاصد العامة للشريعة، ولكنهم اتفقوا على خطوط عامة تدخل في إطار تحكيم العدالة وتحكيم الأخوة وحفظ الدين وحفظ النفس والعرض وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ العقل وغيرها. وبما أنّ قضية المقاصد ترتبط بتحقيق المصالح ودرء المفاسد، فإنّ الخشية من الوقوع في ملابسات الظنون الفردية التي تتجاذب الأفراد، تجعلنا نحيل هذه القضية في المجالات الفردية إلى قطع المجتهد فقط، أمّا بالنسبة للمجال الاجتماعي أو أمر الأمة فتحال إلى ولي أمر الأمة الشرعي، لتكون جزءاً من اختصاصاته في عملية التقنين، وهي بالتالي مساحة مرنة في الشريعة ترتبط باجتهاد ولي الأمر وتشخيصه المصلحة التي تحقّق مقصد الشريعة، كما سيأتي.

٢ـ الأحكام الشرعية التي تحدد موضوعاتها الأعراف وأهل الخبرة، وهو ما يمكن أن نعبِّر عنه بتأثير الزمان والمكان في الاجتهاد ونوعية التأثير هذه لها مدخلية في موضوع المرونة؛ لأنّ تأثير الزمان والمكان في موضوع الحكم الشرعي هو الذي يحدّد مضمون الحكم الشرعي وشكله. ومن مظاهر ذلك اختلاف مصاديق المفاهيم من مكان لآخر، كطبيعة الإسراف والغنى والاحترام وإعداد القوة وغيرها. كما أنّ متطلبات الزمان والمكان قد تتطلّب – أحياناً – تعطيل حكم ما أو نظام ما لفترة معينة؛ نتيجة التزاحم بين ضرورة تطبيق الحكم والآثار السيئة التي قد تنجم عن التطبيق في ظل ظروف معينة قاهرة. وإذا كان الحكم يرتبط بعمل الأمة فلابد من إيكال تشخيص التزاحم وتقديم الأهم لولي الأمر ايضاً.

٣ـ فتح باب الاجتهاد في مجال استنباط الأحكام الشرعية، وهي المساحة الأكثر مرونة في الشريعة نفسها، أي أنّ عملية الاجتهاد عملية بالغة الدقة وبحاجة إلى نوع متميز من التخصُّص الذي لا يستطيع أي مكلف بلوغه، بل ولا يستطيع المجتهد نفسه ممارسته برأيه واستحسانه. فالمجتهد إذا لم يعثر على دليل من مصادر التشريع فإنّه يرجع إلى الأصول العملية، أي الأصول التي تحدّد الموقف العملي عند غياب الدليل الشرعي

النصي في إطار منهجية لصيقة بالشريعة. ومثال ذلك المسائل المستحدثة والجوانب التنظيمية الجديدة، سواء على مستوى فقه الأفراد أو فقه المجتمع، ككثير من قضايا العلوم التطبيقية والقضايا الداخلة في الأمور الحسبية، كنظم المرور والتسعير والتعليم، وقضايا الإعلام والاتصالات والفنون والآداب وغيرها.

والحقيقة أنّ النصوص التي تركتها مصادر التشريع تحديداً (القرآن الكريم والسنة الشريفة) تتناول قضايا الواقع المرتبط بفترة الصدور، وتتناول أيضاً الخطوط العامة للنظم الاسلامية، إضافة إلى بعض الأحكام التي تستمر موضوعاتها مع الزمان والمكان. والحال أنّ كلّ يوم يمرّ على البشرية يحمل معه قضايا وموضوعات جديدة، لا تعجز الشريعة مطلقاً عن تحديد أحكامها، وذلك من خلال نافذة الاجتهاد، هذه المكرمة العلمية التي منحتها الشريعة للأمة (من خلال مجتهديها)، لكي تبقى قادرة على إخضاع واقعها لأحكام الدين الحنيف. وبالطبع فإنّ موضوع الاجتهاد يشتمل على تحديد دور العقل في عملية الاستنباط، كإدراك المصالح العامة أو إدراك التلازم بين أحكامه وأحكام الشرع.

ومن البديهي أن يرفض الشرع المقدس – خلال ممارسة عملية الاجتهاد – القواعد الظنية التي لم يقم على اعتبارها دليل قطعي، بل يحدد الاجتهاد في إطار القواعد التي قام على اعتبارها دليل قطعي؛ لأنّ الشارع لا يسمح للفكر البشري المحض أن يضيف من ذاتياته للإسلام. وهذا الأمر دليل على دقة عملية الاجتهاد، وكونها لا تترك للمجتهد اختراع منهجية أو قواعد وأصول غريبة عن جنس الشريعة، أي لا تفتح الباب على مصراعية للمجتهد بأن يجدد ويصلح ويطوّر في الشريعة كيفما شاء، هذا فضلاً عن غير المجتهد، فذلك من باب أولى بأن لا يتدخّل في هذه الامور التي لا تعدُّ من اختصاصه.

٤ ـ تشريع الأحكام (الشرعية) الثانوية في الحالات الطارئة. فالحكم الشرعي ـ لاعتبارات مختلفة ـ ينقسم إلى حكم أوّلي وحكم ثانوي وحكم ولائي. وما يهمّنا هنا هو الحكم الثانوي، ويمكن أن نعرِّفه: بأنّه الحكم المجعول للموضوع بلحاظ ما يطرأُ عليه من عناوين خاصة تقتضي تغيير حكمه الأولي. وهذه الحالات الطارئة هي من قبيل:

(الضرر)، (العسر والحرج)، (العجز)، (الإكراه)، (الخوف)، (المرض)، (تزاحم الحكم عند تنفيذه مع حكم أهم منه)، (وقوع الحكم مقدمة لحكم آخر)، إضافة إلى تحوّل الأحكام الوجوبية الكفائية إلى تعيينية إذا انحصرت بشخص واحد. ومن هنا فالحكم الثانوي يعبِّر عن مرونة تشريعية؛ لأنّ المرونة هنا تعني الاستجابة للحالة الضاغطة بمقدار ما تحمله من ضغط. والحالة الضاغطة هنا ليست دائمة، بل إنّها استثنائية، فمثلاً في حالة (الاضطرار) نستدل بالآية الكريمة: (... **فَمَن اضطُرَّ غَيرَ بَاغٍ ولا عَادٍ فَلا إثمَ عَلَيهِ**)[1] وفي باب تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها.

وكذا في حالة (الحرج)، فإنّ الآية الكريمة تقول: (**وَمَا جَعَلَ عَلَيكُم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ**)[2] وغيرها. ولابدّ أن نؤكد هنا على أنّ الأحكام الثانوية تختلف عن الأحكام الولائية (أحكام ولي الأمر)، لأنّ الأحكام الثانوية هي أحكام شرعية وضعت للعناوين الطارئة، وتنحصر عناوينها فيما ذكر في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي ترتكز عليها، بينما ترتكز الأحكام الولائية على المصلحة العامة ومتطلبات الوضع العام للمجتمع، ويصدرها ولي الأمر من منطلق صلاحياته، وهو الذي يحددها، بينما يستطيع الفرد تحديد الأحكام الثانوية في اطار الضوابط والشروط المنصوص عليها.

٥ـ المساحة التي ينفذ فيها حكم ولي الأمر، أو ما يصطلح عليه فقهياً بـ (الأحكام الولائية) أو (الحكومية) أو (السلطانية)، وهي مساحة من الأحكام خاصة بولي الأمر الشرعي، أي الذي تولّى أمر المسلمين في إطار ضوابط الشريعة، ومنها قابليته على استثمار هذه المساحة من الأحكام الشرعية، وهي القابلية التي ترادف القابلية على الاستنباط. بالاضافة الى قدراته الإدارية وتشاوره مع الإحصائيين وملاحظته للأضوية الكاشفة التي هيّأها الشارع المقدس له.

(١) البقرة: ١٧٣.
(٢) الحج: ٧٨.

ونعرف الحكم الولائي بأنّه: الاعتبار الصادر من الحاكم الشرعي بمقتضى صلاحيته الشرعية، والمتعلق بأفعال العباد، وهو يشتمل على الأحكام التكليفية والوضعية. وهذه الأحكام لا تطلق لكل مجتهد، فذلك ما يؤدي إلى تعدد الإرادات الاجتهادية، وبالتالي تفتت وحدة الأمة وتدمير كيانها، وهو ما يتناقض مع مقاصد الشريعة وروحها وغايتها، بل إنّها تنحصر في الولي الذي حددت الشريعة مباني ولايته، أي الولي الحاكم.

ومن هنا فالأحكام الولائية تختلف عن الأحكام الأولية والثانوية التي يحددها جميع الفقهاء، شريطة أن لا يكون فيها تقاطع مع الأحكام الولائية، كما أنّها محدَّدة بموضوعات معينة هي مساحة المباحات في الشريعة، وتشمل أساليب تطبيق الشريعة الإسلامية، كأساليب تطبيق النظام المالي والاقتصادي، أو اساليب تطبيق مبدأ الشورى. وتدخل الاحكام القضائية في هذا الباب. وباختصار فإنّ ولي الأمر يصدر الأحكام الولائية في إطار الكليات الشرعية ومقاصد الشريعة، وليس له في هذا المجال – كما يقول الإمام الخميني – أن يستبدَّ بالأمر، بل عليه أن يستشير ذوي الخبرة والاختصاص، ثم ينتهي إلى الحكم الشرعي في ضوء:

١ـ مصلحة الأمة، وهنا تسمح الشريعة لولي الأمر بالنظر في المصالح وتحديدها عبر استشارة المتخصصين.

٢ـ الأضوية الكاشفة ـ كما يعبّر عنها الإمام محمد باقر الصدر ـ وهي التي أعطته إياها الشريعة ليسلّطها على الواقع ويشخص الحكم المطلوب ، ومن هذه الأضوية الأحكام الولائية التي أصدرها الرسول العظيم بصفته ولياً للأمر، وهذا باب واسع لا نستطيع تفصيله هنا.

٣ـ الأولويات، وهي التي يواجه بها المساحة التي تتزاحم فيها الأحكام فيقدّم الأهم على المهم، أو في إطار الاحتياط لقضية معينة، فيصدر حكماً يستبق فيه وقوعها أو مضاعفاتها، كما هو الحال في مجال سدّ الذرائع التي يظنّ أنّها تؤدي إلى المفسدة، أما الذرائع القطعية الأداء فهي محرمة بالعنوان الثانوي الذي يشخصه المكلف نفسه ولا تحتاج لحكم ولي الأمر في المجالات الفردية.

وهنا لابدّ أن أوضح نقطة التقاء مهمة بين المدرستين الفقهيتين الكبريين: مدرسة أهل البيت(ع) ومدرسة أهل السنّة، وتتمثّل في سماح مدرسة أهل البيت(ع) لولي الأمر باستخدام قواعد المصالح المرسلة وسدّ الذرائع وغيرها، وهي القواعد التي لا يسمح الفقه الإمامي باستخدامها في عملية الاجتهاد بالنسبة لمجمل الفقهاء. وعلى مستوى التطبيق فإنّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية وضعت أعلى مجلس استشاري في الدولة هو (مجمع تشخيص المصلحة)، أي اكتشاف مصلحة الأمة وتحديدها، ثم تقديم القرار لولي الأمر بعد دراسة دقيقة، ثم يقوم ولي الأمر بإصدار الحكم الشرعي المناسب. ونرى أنّ هذا المجمع يبتُّ في الخلاف ـ على مستوى التقنين ـ بين مجلس الشورى ومجلس حماية الدستور، إذ يتخذ القرار بتحديد القانون المناسب الذي ينظر فيه لمصلحة الأمة والدولة.

منافذ الفكر البشري إلى المساحة المشروعة

لا شكَّ أنّ هناك مساحات في الفكر الاسلامي لها علاقة بالفهم البشري ومدارك الانسان وطبيعة نظرته للواقع ورؤيته لمنهجية النتاج الفكري، وهي المساحات التي يمكن أن نعدّها بشرية، وهذه المساحات تقتصر على المتغيرات، أي المساحات المتغيرة في الفكر الاسلامي، ولا تتمدد إلى الثوابت؛ لأنّ هذه الثوابت مقدسة، وهي الدين بعينه. ويمكن تحديد منافذ الفكر البشري إلى الفكر الاسلامي في المجالات التالية:

١ـ فهم مقاصد الشريعة، العامة والخاصة أو الجزئية، فهذا الفهم متغير من مفكر لآخر، وهنا قد تختلف النتائج التي يخرج بها المفكرون والفقهاء بالنسبة لواقعة واحدة، ممّا يشير إلى بشرية هذه المساحة. وبالطبع يتأثّر هذا الفهم بعوامل متغيرة بشرية أيضاً، كامتلاك ثقافة الواقع والعصر، وعمق النظرة وبعدها وشموليتها وغيرها.

٢ـ فهم المصاديق، أي تطبيق الكليات على جزئياتها وتطبيق المفاهيم على مصاديقها. وهكذا تتدخّل ذهنية الفقيه والمفكر في نوعية التطبيق وفي اكتشاف المصاديق والجزئيات. وتدخل في هذا الإطار ايضاً محاولات المجتهد للتخريج الفقهي للعقود

الجديدة، كالتأمين مثلاً. وهذا الفهم والتخريج يخضع لعنوان بشرية الفكر.

٣ـ سير عملية الاستدلال لدى المجتهدين وترتيب أدلتهم.

٤ـ تحديد موارد الأحكام الثانوية، والظروف والمتغيرات التي ينطلق منها في تجاوز الحكم الأولي إلى الحكم الثانوي، وهي مساحة دقيقة ومحدودة، ولكنها ـ في كلّ الأحوال ـ تتدخّل فيها طبيعة استيعاب المجتهد وتشخيصه للموضوع، وبالتالي فهي مساحة تغيرة.

٥ـ تحديد ولي الأمر لمصلحة الامة في قضية من القضايا، ونوعية تسليطه الأضوية الكاشفة على الموضوعات والأحكام، ونظرته لتحديد الأهم والمهم في الأحكام أو في موارد الاحتياط، وهذه المساحات خاضعة هي الاخرى لطريقة تفكير ولي الأمر واستيعابه للواقع ودقته في تصريف الامور وفي اختيار الرأي الصائب بعد استثمار مبدأ الشورى.

وفي مجمل المساحات المذكورة تدخل عملية التأصيل والأسلمة والتجديد والاكتشاف والتي تهدف بأجمعها إلى اختيار الاسلوب الأمثل لتطبيق النظم الإسلامية التي تتضمّنها الشريعة، وهو ما يمكن أن نسميه بالتقنين أو التشريع ـ مجازاً ـ وهي مساحات تتسع للفكر البشري ليتحرك فيها بحرية عملية ترشدها الضوابط الشرعية ومقاصد الشريعة العامة.

ونشير هنا إلى أنّ عملية التقنين لا تحوّل الحكم الشرعي إلى قانون بشري، وإن كان للفكر البشري دور في صياغته وتشكيله، بل إنّ عملية التقنين تتمثّل في اكتشاف الحكم الشرعي لموضوع معين أو تحديد الاسلوب الشرعي لتطبيق هذا الحكم، واذا تدخّل الفكر البشري في صياغة الاسلوب أي تحويل الحكم الشرعي إلى قانون – وفقاً للمفهوم الوضعي للقانون – فلا يعني هذا أنّ القانون قد ألغى الشريعة وأنه أنزلها من السماء إلى الارض. وبالتالي فهي عملية تكييف منضبط لمنهجية التقنين بهدف خدمة الشريعة، وكذلك تكييف للواقع بهدف إخضاعه للشريعة.

٦– اعادة النظر في الأمور ـ وحتى المسلّمات منها ـ وباستمرار، وتوجيه النقد للفكر

الديني السابق بكل موضوعية وانضباط. والتأكُّد من عدم تدخّل الظروف النفسية والزمكانية في عملية الاستنباط.

ملاحظات عامة

وجود القواعد التي تضبط عملية التجديد تشكّل ضرورة أساسية لا يمكن لعملية التجديد أن تتم بدونها، وهي في الواقع قواعد تفرضها الشريعة نفسها من خلال النصوص والثوابت الشرعية ومن خلال ما يحكم به العقل من أسس وأصول يتفق عليها العقلاء، وعليه فلنا هنا ملاحظات:

الأولى: التجديد ليس هدفاً بذاته، أي أنّ التجديد ليس من أجل التجديد، بل هو وسيلة تهدف إلى تلبية حاجات المجتمع الجديدة وملاحقة متغيرات العصر، والإجابة على التساؤلات الشرعية والعقدية الضاغطة للإنسان المعاصر، والنظر في قضايا الواقع وتكييفها طبقاً لمواصفات الشريعة، وبالتالي صياغة المشروع الإسلامي النهضوي الذي يستوعب متطلبات الحياة الإنسانية في حاضرها ومستقبلها، وتعبيد طريقها للوصول إلى الآخرة. أي أنّ التجديد ـ بكلمة واحدة ـ هو معلول الحاجات العملية، وليس مجرد حركة نظرية منفصلة عن الواقع وعن ضوابط الشريعة.

الثانية: دواعي التجديد تتعدّد بتعدّد الحاجة اليه، فالتجديد الهادف هو سنّة الله في خلقه، وتؤكّده النصوص المقدسة، مثل: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مائة سنة من يجدد لها دينها**»[1]. ثم إنّ التجديد يكشف حقيقة أدعياء التجديد الذين ينتسبون إلى تيارات تحريفية وتوفيقية وتغريبية، والذين يعملون على مسخ الشريعة بحجة الاجتهاد والتجديد.

الثالثة: التجديد يقوم به أصحاب الاختصاص فقط، وهو مطلب شرعي وعقلي

(١) مسند ابي داود الملاحم ١.

(**فاسألُوا أهلَ الذِّكرِ إن كُنتُم لا تَعلَمُونَ**)[1]، (**فإن تَنَازَعتُم في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُول**)[2]، وأصحاب الاختصاص هؤلاء لهم مواصفات محددة شأن كلّ الاختصاصات الاخرى، فاذا احترمنا تخصص الطبيب والمهندس والكيميائي والفلكي وعالم الاجتماع والصحافي، فلابدّ أن نحترم تخصّص المعني بعملية التجديد، وهذا التخصّص يعني القابلية على الاستنباط من مصادر التشريع وعلى محاكمة الفكر وتمحيصه، أي أنّ المعني بالتجديد هو المجتهد المفكر الذي استوعب علوم القرآن تماماً وفهم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه وأسباب النزول، إضافة إلى علوم الحديث والرجال، وعلوم العربية، وعلم الكلام والعقيدة وعلم الفقه وقواعده وعلم الأصول وقواعده. وهو تخصّص عميق ودقيق.

وهذا لا يعني ـ بحال من الأحوال ـ وصاية على الفكر الإسلامي من قبل مجموعة من الناس، بل بالعكس هو إعطاء الحرية الكاملة للفكر الإسلامي ليتحرّك في فضائه الحقيقي، لا فضائه المزيف الذي يحرفه عن أصالته. فكما نترك للطبيب حرية الحركة بمفرده في علم الطب ولا نسمح للفقيه والمفكر بالتدخل بشأنه وتخصصه، بل ونعطي للطبيب ولاية ووصاية على علم الطب وعلاج الأمراض، فمن الواجب أيضاً أن لا نسمح للطبيب والفيلسوف وعالم الاجتماع والأديب والكاتب أن يتدخلوا في غير اختصاصاتهم، ومنها قضايا الشريعة والتجديد في إطارها.

الرابعة: التجديد يتطلّب مفكّراً مجتهداً منفتحاً على الحياة والواقع، ويدرك ضغوطاتهما ومشكلاتهما، ملمّاً بقضايا العصر وأفكاره وثقافته. وبكلمة واحدة: المفكّر المجتهد المثقف، وإلاّ فالمجتهد المنغلق على الواقع والجامد على فهم الآخرين للنص، والبعيد عن ثقافات العصر ومتطلبّاته وتحدّياته المتجددة والمتسارعة التي تفرضها الثورات المتكاملة في

(١) النحل: ٤٣.

(٢) النساء: ٥٩.

الاتصالات والمواصلات والتكنولوجيا والطب والهندسة الوراثية والبايولوجيا والاقتصاد وحركة المال والسياسة الدولية وغيرها، فضلاً عن التحدّيات التي تفرضها أساليب ووسائل تطبيق الشريعة، بكل مجالاتها، هو شخص لا يمكنه الخوض في قضايا التجديد؛ لأنّه سيعكس صورة سلبية منفِّرة عن الشريعة السمحاء والدين الحنيف. ومن هنا نرى أنّ الإمام الخميني وضع شروطاً جديدة للاجتهاد، أبرزها القابلية على تحديد حاجات المجتمع أو العصر وتحديد مصالح المجتمع وفهم الواقع.

الخامسة: فكرة القراءات المختلفة للدين والمبنية على منهجيات علمية مستوردة ، بعيدة عن ضوابط العقيدة وغريبة عن جنس الشريعة، كمنهجية الهرمنوطيقيا (التأويل تسامحاً) والاركولوجيا (الحفريات) والتاريخانية وهي فكرة اعتباطية وفضفاضة وغير دقيقة من الناحية العلمية. ونحن لا ننكر الاختلاف في فهم النص وفي فهم الموضوع وفي اعتماد القواعد الفقهية والاصولية وفي قبول الحديث وغيرها، ولكنه اختلاف مؤطّر بالضوابط التي تفرضها الشريعة، أي للمنهجية الخاصة بكل علم من العلوم الإسلامية، كما أنّه اختلاف بين المفكّرين والمجتهدين، وليس بين كتّاب وصحافيين وعلماء اجتماع وفلاسفة ورجال سياسة. وبالتالي فالتعددية (بلوراليسم) لا توزِّع الحقيقة بنسب متوازنة على كلّ صاحب رأي، بل إنّ الحقيقة واحدة وثابتة، ويبقى أن المفكرين والمجتهدين يبذلون كلّ ما في وسعهم من جهد للوصول إليها من خلال الكشف عن الحكم أو الاسلوب الشرعي، في اطار المنهجية الإسلامية المستخرجة من جنس الشريعة وغايات الدين، وإلاّ فهذا اللون التغريبي الذي يطرح تحت شعار التعددية والقراءات المتنوعة وفي إطار منهجيات وضعت لعلوم أُخرى واخترعتها بيئات أُخرى ومناخات علمية ودينية مختلفة عنّا هي مثال صارخ للانفلات الفكري الذي يسمح لكل فرد من أفراد الأمة الاسلامية أن تكون له قراءته ورؤيته الخاصة بالدين، وبالتالي – إذا أذعنّا لهذه المنهجيات – سيأتي اليوم الذي لا يبقى فيه من شريعة الله إلاّ أشباح أحكام، أو معتقدات ممسوخة مفصّلة على مقاس كلّ صاحب هوى.

السادسة: التجديد لا يتناول الأُطروحة الدينية أو الدين بعينه أو ثوابت الدين، فهذه الثوابت، (أي الأصول الإسلامية المقدسة) خالدة خلود الدين الخاتم، لأنّ: (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة)، ولا يمكن تحت أي ذريعة من الذرائع الاجتهاد في مقابل الثوابت وتجديد الأصول المقدسة، اللهم إلاّ في اطار القواعد الاستثنائية الزمنية التي حددتها الشريعة نفسها، وسبقت الإشارة اليها. أمّا التجديد فمساحته الفكر الاسلامي والموروث والمعاصر، أي الإنتاج الفكري الاسلامي للمفكرين المجتهدين المتقدّمين والمتأخرين، وكذلك في فهم الثوابت الاسلامية وقواعد وأُصول هذا الفهم، وفي اكتشاف قضايا جديدة (مناهج، نظريات، علوم، رؤى) في المصادر المقدسة، وأخيراً في أسلمة بعض المناهج والنظريات التي وضعها الانسان في الحقول المحايدة العامة. وبالتالي فهي مساحة متغيرات بأكملها.

السابعة: للتجديد والاجتهاد مرجعية ثابتة لصيقة بها، وهذه المرجعية يتم الرجوع اليها عند الاختلاف في الفهم والنتائج، والاّ فالتجديد لا يتحرك في الفراغ ولا ينطلق من فراغ، بل إنّ له فضاءه الذي يجول فيه، وهذا الفضاء هو مرجعية التجديد والاجتهاد المتمثّلة في القرآن الكريم والصحيح من السنّة الشريفة، وفي أدوات فهم الأصول المقدسة والكشف عن حقائقها كالعقل والإجماع وغيرهما.

الثامنة: من الطبيعي أن يطرح هنا بحث عن الموانع أو الامور التي تقف عقبة في وجه التغيير، أو تمنع القادة من التفكير فيه. وبتعبير آخر فإنّها تعمل على عدم انطراح مقتضي التغيير. وهي كثيرة نشير منها الى ما يلي:

١ – غياب القدرة والاستعداد الذاتي والامكانات العلمية للتجديد، وهو عمل ليس سهلاً.

٢ – غياب عنصر التخطيط للمستقبل في جامعاتنا الدينية.

٣ – الخوف من تبعات التغيير وهي كثيرة. فإنّ التغيير ربما أثار العوام من المتدينين أو حرك بعض المصلحين لإثارتهم واستغلالهم، وربما حرك المتعصبين للقديم أو أولئك

الذين ستتضرر مصالحهم بذلك. وقد يؤدي – بشكل موضوعي أو في تصور المغيرين على الأقل ـ الى انفتاح باب التجرؤ على المقدسات الدينية أو انهيار المسلَّمات الاخرى. وربما أدّى أحياناً ـ وهذا ما حدث كثيراً ـ الى رمي المجدّدين بالزندقة والهرطقة وأمثالها.

في الطريق إلى التجديد

في ضوء التصورات التي طرحتها هذه الدراسة، يطرح السؤال التالي نفسه: ما العمل لتحقيق التجديد المنشود؟. وللإجابة على هذا السؤال نرى أنّ من الضروري تحقيق وعي أشمل وأدق للإسلام من أدلّته الأصلية، وادراكاً أكثر تحديداً لحقيقة مقاصده وغاياته. ولابدّ أن نعيد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، في إطار ضوابطه. وعلى أصحاب الاختصاص في علوم الدين (المفكّرين والمجتهدين) أن لا يسمحوا لغير المتخصصين بالعبث في شريعة الله ومعتقدات الإسلام تحت ذريعة الاجتهاد والتجديد أو ذريعة تفصيل الدين على مقاس العصر، أو التضحية بالأصالة على مذبح المعاصرة، والتضحية بالتراث في مذبح التجديد، والتضحية بالشريعة على مذبح التعددية، والتضحية بالدين على مذبح العلم، فهذه الذرائع أو الثنائيات المستوردة لا وجود لها في مبادئ الإسلام الخالدة، لأنّها ثنائيات أنتجتها العقلية الغربية في العصور التي أعقبت ما يسمى بالنهضة الأوروبية، بهدف إقصاء الدين عن الحياة، وهي إشكالية نابعة من الصراع بين الكنيسة ودعاة العلمانية.

وبالنظر لاتساع دائرة التغيير في الحياة وسرعة التطور، نرى أنّ قابلية التجديد على استيعاب هذا الواقع تتطلّب آليتين:

الأولى: آلية الاجتهاد الجماعي، وتتلخّص في تشكيل لجان اجتهادية من مجموعة من المفكرين المجتهدين لبحث موضوع أو جملة مواضيع، ثم تتكامل نظراتهم ورؤاهم بعد التداول والمناقشة للخروج بحكم شرعي أو نظرية أو نظام اسلامي في مجال معيّن. وهناك تجربة مجمع الفقه الإسلامي بجدة، الذي نأمل أن تكون فيه لجان اجتهادية ثابتة تؤدّي عملها على مدار السنة؛ لملاحقة التطوّرات الهائلة المتسارعة التي تشهدها البشرية. ومن

شأن الاجتهاد الجماعي استيعاب كلّ الموضوعات واختصار الزمن والخروج بأفضل الآراء.

الثانية: آلية التكامل بين المفكرّين المجتهدين وأصحاب الاختصاصات العلمية والمهنية الاخرى، من خلال استشارة المفكّرين المجتهدين لهؤلاء المتخصصين في الموضوعات الجديدة، والاستعانة بهم في فهم العلوم والمناهج الجديدة، وقضايا الواقع المتنوعة والمعقدة، وفي تحديد مصالح الأمة والدولة، إذ يتم تداول هذه الموضوعات في لجان أو مجالس مشتركة، ثم الخروج بالرأي أو الاجتهاد الأفضل الذي يحقّق مصالح الأمة ويكيِّف الواقع لينسجم مع غايات الشريعة. وهذه الآلية تمّت تجربتها في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ولازالت تؤتي ثمارها، وتتمثل في (مجمع تحديد المصلحة) الذي يتكوّن من فقهاء واختصاصيين في مختلف المجالات، ويمثلون النخبة التي تخطّط للسياسات العامة للأمة والدولة، ثم يعرضونها على ولي الأمر (القائد) لإقرارها.

ولابدّ من إخضاع تجارب تطبيق الشريعة والنظم الإسلامية في بلداننا للتقييم المستمر، أي القيام بعملية رصد علمية لنتائج هذه التجارب (على الطبيعة)، مثل تجارب تطبيق الاقتصاد الإسلامي والبنك الإسلامي والنظام القضائي والنظام السياسي ونظم التكامل والتعاون الاجتماعي والنظام التعليمي وغيرها. وستكون نتيجة هذا الرصد العلمي، من خلال الدراسات والبحوث، وضع مناهج ومبادئ وتفاصيل علوم إسلامية اختصاصية، كعلم الاقتصاد الإسلامي وعلم الاجتماع الإسلامي وعلم النفس الإسلامي وغيرها.

التجديد للمستقبل

لا شك أنّ التاريخ الإسلامي شهد ظهور مجدّدين عظام، بل وموجات رائدة من التجديد، وكانت كلّ حركة تجديد فكري تختص بها بواقعها وظروفها، أي أنّها حركة تجديد لزمانها. وهكذا فإنّ المحاولات الحالية للتجديد الفكري التي تقوم بها الطليعة المتنوّرة من المفكّرين المجتهدين، هي تجديد لزماننا هذا، ويبقى للمستقبل تجديده ورجاله.

ولكن في الوقت نفسه فإنّ المخططات الكبرى في مجالات السياسة الدولية والإعلام والاقتصاد والثقافة وغيرها، والتي يعدّها من يعبِّرون عن أنفسهم بـ (سادة العالم) و(دعاة التفوّق)، وتسارع الأحداث وتراكم المتغيرات والطفرات المتلاحقة في مجال العلم والتكنولوجيا، تجعل الحاضر لحظة غير محسوسة، وتجعل البشرية تعيش في المستقبل دائماً؛ إذ أنّ ما تكشف عنه الدراسات المستقبلية الغربية، يضعنا في حيرة ممّا سيحدث الآن وفي المستقبل، وهو ما يعبِّر عنه أحد مفكّري الغرب بـ (صدمة المستقبل)، لأنّ ما تمّ التخطيط له قبل عشرين عاماً ظهرت نتائجه الآن، وما يتمُّ التخطيط له الآن ستظهر نتائجه بعد عشرين أو خمسين عاماً. وحيال ذلك فلابدّ أن يكون للإسلام وللفكر الإسلامي موقفه ممّا سيحدث في المستقبل أو ممّا يتم الإعداد له من الآن. ويتمثّل هذا الموقف في استعداد الفكر الإسلامي للمستقبل، ومحاولة امتصاص مفاجئاته وصدماته، وهو موقف ندعو إليه.

ولهذا فأنّا أدعو لتدارس موضوعية الفكر الإسلامي المستقبلي الذي ينطلق من إشكاليات الحاضر وحيثياته، ويستشرف المستقبل وتحدّياته وخياراته، ثم يخطط له في محاولة لاكتشاف بدائله المنشودة وبنائه والتحكّم به. فمثلاً نظم الحاضر التي أعدّ لها الآخرون، كالعولمة والأنسنة، ستتبلور بمرور الزمان وتظهر نتائجها النهائية في المستقبل، وكذلك الكثير من الاكتشافات، كما يحدث في علم الجنتيك (الهندسة الوراثية)، فإنّ نتائجه ستظهر في المستقبل. وهكذا فإنّ الشريعة والفقه وعلم الكلام الإسلامي لابدّ أن يكون لها رأيها في كلّ ذلك، وتستعدُّ له، لتكون بمستوى تحدّيات المستقبل وضغوطاته. وعلى هذا الأساس فإنّ منهجيات وأفكار ورؤى تطرح الآن، وهدفها وضع الفكر الإسلامي بمستوى قضايا المستقبل، كفلسفة الفقه وفقه المقاصد وفقه الأولويات وعلم الكلام الجديد والتحوّل في الاجتهاد وأسلمة أو تأصيل العلوم الاجتماعية والانسانية، وحتى التطبيقية، وغيرها، هي بأكملها مطروحة للبحث والتداول والمدارسة بين دعاة التجديد الأصيل في الفكر الإسلامي، بهدف نقل الفكر الاسلامي من المعاصر إلى المستقبلي، وبذلك نقدِّم الخدمة المثلى للجيل الاسلامي الذي ينشأ اليوم وسيمسك بزمام

المستقبل، حين نعدّ له الأحكام والنظم والنظريات التي تستوعب عصره. وهي في الواقع – وقبل كلّ شيء – خدمة للجيل الحاضر، الذي يرى تحديات المستقبل ماثلة أمام عينه ويستشعر ضغوطاتها وآلامها؛ لأنّ الحاضر هو المستقبل، بعد أن اخذت البشرية تفقد إحساسها بالزمن الحاضر. وهذه الدعوة لا تعني – بأي حال من الأحوال – الهروب إلى الأمام وحرق المراحل والعبور على الأزمنة، بل على العكس، هي دعوة للاندكاك بالواقع ولاستحضار السنن الكونية والعمل بالنصوص الإسلامية المقدسة.

المقال الثالث

الصحوة والإعلام

(أ)

الغزو الفكري وأساليب المواجهة

إذا شئنا أن نستوعب كلّ المساحة الثقافية ـ من خلال المنظور الإنساني الإسلامي ـ فمن المحتّم القول بأنّها تمتدُّ إلى حيث تمتدُّ التركيبة الإنسانية نفسها، وهذا يعني شمولها للجوانب الإنسانية الثلاثة التالية:

١ ـ الجانب التصوّري والعقائدي: بما يشمل كلّ المفاهيم التي يملكها الإنسان عن الكون والحياة والإنسان، وبالشكل الذي يتناول السنن التاريخية والقوانين الحاكمة كلّها.

٢ ـ الجانب الاحساسي العاطفي: بما يشمل الغرائز والميول الأصيلة والمعدّلة تبعاً للتربية الخاصة، وتكوين المصاديق المتعالية، كتحويل حبّ الذات الضيقة إلى حبٍّ للذات المتسعة الخالدة من خلال الإيمان بالآخرة.

٣ ـ الجانب السلوكي العملي: وهو بطبيعة الحال يشمل كلّ موقف يتّخذه الإنسان، حتى فيما بينه وبين نفسه، كما أنّه متأثر بالجانبين السابقين تمام التأثر، وخصوصاً بالجانب الثاني، حيث فسّر المحللون النفسيون الإرادة الإنسانية بالشوق المؤكّد، بالرغم من أنَّ الشوق المؤكّد هو المرحلة الأخيرة التي تسبق تصميم الإنسان على العمل ـ كما نعتقد ـ فإنّ الإنسان يبقى يمتلك الحرية في أحرج الضغوط العاطفية.

الترابط بين المساحات الثلاث

وإذا قبلنا هذه الحقيقة فعلينا أن نؤمن بالكل الثقافي المترابط، وأن نعتبر أي انفصال بين الأجزاء آنفة الذكر عملية مؤقتة، وأي قول بالفصل الدائم بين المساحات مجازفة يكذّبها الوجدان والنصوص الشريفة. كما أنّ هذا الإيمان والقبول يفتح أمامنا باباً تربوياً وإعلامياً واسعاً، ننفذ من خلاله إلى المقصود أولاً، ونكتشف أيضاً ـ عبره ـ التآمر الإعلامي على الوجود الثقافي ثانياً.

وإنّنا إذا تأمّلنا واقعنا الوجداني رأينا حقيقتين مهمتين:

الأولى: هذا الترابط المحكم بين أبعاد الكل الثقافي الإنساني بما يمكن أن يرجع كلّ الإنسان إلى المحور الواحد المسيطر وهو النفس الإنسانية، فهي التي تتثقّف في الواقع، وإن كانت المسارب أو المظاهر متفاوتة.

الثانية: أنّه ونتيجة لهذا الترابط وهذه الوحدة الوجدانية فإنّ أي تنافر بين جزئين منها يعدُّ أمراً طارئاً على التركيبة الطبيعية الإنسانية سرعان ما تتغلّب عليه لتحقيق الانسجام الكامل. ومن هنا نستطيع أن نفسّر الكثير من النصوص القرآنية من قبيل:

قوله تعالى: (**أَرَأَيتَ الذي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليَتِيمَ**)[١].

وقوله تعالى: (**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذِينَ أَسَاؤوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ**)[٢].

وقوله تعالى: (**إليهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه**)[٣].

... وغيرها من النصوص الشريفة.

وفي ضوء هاتين الحقيقتين، علينا أن نعالج ثقافتنا على كلّ الصُّعُد، ونلاحظ مدى النفوذ الغربي فيها.

---

(١) الماعون: ١ و٢.

(٢) الروم: ١٠.

(٣) فاطر: ١٠.

العدو يستهدف كلّ الجوانب

ويبدو أنّ العدو ـ في حملته الثقافية ـ استهدف الجوانب الثلاثة بشكل عَرَضيّ وفي آن واحد، إدراكاً منه لهذا الترابط، وتحقيقاً لمهمته الرئيسة، وهي قتل الشخصية الإسلامية في وجود الفرد والأُمة، وبالتالي تحقيق الأرضية السهلة لعملية الاستغلال الكبرى.

فعلى الصعيد التصوري: عمل الإعلام الغربي والأفضل أن نسميه بالإعلام الاستكباري العالمي ـ نظراً لطبيعته ودوافعه الحقيقية الكامنة في طغيان الحيوانية والمادية في وجوده ـ على التغريب الثقافي عن العقيدة والتصورات الأصيلة مستغلاً فترات الجهل، والاتجاهات القشرية الخالية من روح الإسلام، والمركّزة على جوانب جزئية عابرة، مكبرة إياها، وجاعلة هذه الجوانب هي محور الصراع وتضارب الآراء، عاملة ـ بالتالي ـ على نسيان التصورات الإسلامية التغييرية الكبرى، وترك الميدان الاجتماعي لكل المبادئ المدعية للعدالة والإصلاح، وهي في الواقع ضد ذلك.

ومن هنا رأينا اتجاه كثير من جيلنا الشاب نحو المبادئ التي احتلّت زوراً موقع البطولة الثورية، والمطالبة بالقضاء على الظلم بعد أن أحْلَت هذه الآراء القشرية ذهنية جيلنا المسلم من المبادئ الإسلامية، والاسلام هو دين الصراع ضد التفرعن والفراعنة والطغاة، وهو دين الجهاد المتواصل ضدّ أي نمط من أنماط الظلم والاستبداد والاستغلال.

ثم إنّ العدو، وتأكيداً لعملية التغريب الآنفة، راح يزرع الشبهات تلو الشبهات في النفوس تجاه الإسلام عقيدةً ونظاماً، وتجاه إمكان تطبيق الإسلام، وهو دين المجتمع القبلي ـ كما يدّعون ـ فكيف يمكن تطبيقه في مجتمع القرن العشرين؟!

ولم تكن الشبهات عادية وإنّما هي تشمل الحقول الفلسفية والمنطقية، تماماً كما تشمل الجوانب العملية. وهذه الشبهات عندما تصبُّ في روح الشباب الفارغ فإنّها تعصف برؤيته ومفاهيمه، وإذا تمّ ذلك ضَمِن الاستكبار انحراف الإحساس فالعمل بلا ريب. وإذا تمهَّد السبيل للنفوذ الغريب جاء دور بث الفكر الالحادي المسموم لتحقيق المرحلة النهائية من العملية، ليصوغ الإنسان المسلم مبشراً للماركسية بقيمها الواطئة أو الرأسمالية بجشعها ولؤمها، وعلى أي حال، يغدو عدواً للأمة وعميلاً للأجانب الأعداء.

وأما على الصعيد العاطفي، فإنّ خطته الخبيثة يمكن أن تتلخص بعمليتين:

الأولى: عملية إضعاف الروح الأخوية الإسلامية، روح إحساس المسلم أينما كان بألم المسلم الآخر، وإحلال الروح المحلية، والقطرية، والقومية، وحتى الوطنية الضيقة وغيرها.

أمّا العملية الثانية فهي عملية توجيه العواطف والدوافع نحو المادية السلوكية، الأمر الذي يترك أثره على الجانبين العقائدي والعملي بكل قوة، فتتحول المادية العاطفية إلى مادية عقائدية.

وقد استغل الاستكبار الغربي كلّ الوسائل لتحقيق هذا الهدف وما زال يستخدمها حتى يومنا هذا في أرضنا الإسلامية، ونذكر منها: النماذج الخلقية المنحطّة، والمجلات والصحف الخليعة، والإذاعة المسموعة والمرئية، والسينما والمسارح، ومحلات الدعارة وبيوتها، والملاهي والمراقص، والحفلات الماجنة، ومعسكرات الشباب ومنظماته، و(البلاجات) والمسابح المشتركة والرياضة وتعاطي الخمور، والتشجيع على استهلاك وسائل التجميل، والتشجيع على ارتكاب الجريمة، ودفع المجتمع نحو المخدرات واستغلال الابداعات والأعمال الفنية لهذا الغرض. ومن تلك الفنون المستغَلَّة: الزخرفة والرسم والموسيقى، واستغلال النتاجات الأدبية كالقصة والشعر، وتربية الشعب على تقليد الغرب الخليع في مختلف الشؤون كاللباس والسكن والسلوك، وفسح المجال للجمعيات والعناصر المندسة من: الصهاينة والبهائية والماسونية، وروّاد نوادي الروتاري والملحدين، ليساعدوا في إذكاء نار الفساد، وترويج الأفلام الخلاعية عبر أجهزة (الفيديو)، وإشاعة عملية المراسلة غير النزيهة بين الجنسين، وتشجيع عمليات المقامرة في المقاهي العامة الكبيرة منها والصغيرة، وفي المسابقات الرياضية، وسباق الخيل من قبل المتفرجين، وغير ذلك الكثير الكثير من الأساليب الرخيصة. ونؤكّد هنا أنّ الكثير من هذه الوسائل الإعلامية اكتسبت ضعتها من أهدافها الوضيعة لا من طبيعتها كوسائل إعلاميّة مجرّدة.

وبالتالي فعلى الصعيد العملي، كان هدفه المرحلي هو إبعاد النظام الإسلامي عن توجيه الحياة الإنسانية، وإحلال النظم الغربية المادية محله، بشكل كلي، أو في غالب

الأحوال، وهنا أيضاً تنوّعت الأفكار التي مهّد بها لهذه العملية، فشملت:

ـ فكرة فصل الدين عن السياسة، وقصر الحياة الدينية على الشؤون الشخصية والعبادية، وترك الشؤون الاجتماعية للفكر التنظيمي الغربي.

ـ وترويج الاتجاه الليبرالي المتحرّر من التقيّد بالتوجيهات الدينية.

ـ وتحبيذ العلمانية في الحكم بكلّ صراحة، أو بشيء دستوري يذكر الإسلام كدين للدولة تمويهاً، في حين يحجر عليه أن يصوغ مجمل الحياة الاجتماعية إلاّ بما لا يتعارض مع المصالح الغربية والشخصية الضيّقة.

وقد مهّدت لهذه الفكرة أفكار أخرى مخادعة من قبيل: فكرة تعقّد الحياة، ولزوم التطوير في كلّ مجالاتها، وعدم قدرة النظم الدينية على مواكبة هذا التطور، باعتبارها تؤمن بالمطلقات التشريعية، وهذه المطلقات لا تنسجم مع عملية التغيير المستمر، وكذلك فكرة التخويف من الحكومة الدينية، أو ما يسمونه بالاستبداد الديني، مذكّرين بما جرى في القرون الوسطى من الظلم الكنسي، وكيف وقفت الكنيسة إلى جانب الاقطاع المستبد، وأنّ هذا لا ينسجم مع الدولة الديمقراطية الحديثة، وغير ذلك من الأفكار التي مهَّدت ـ كما قلنا ـ للعلمانية، فإذا بنا نجد الأرض الإسلامية تضج من وجود الحكم العلماني المغلف، دون أن يشعر أكثر الأفراد بمدى الجريمة التي ترتكب عبر ذلك.

والأنكى والأمرّ من ذلك أنّ بعض الناس من عملاء الغرب ووسائله الإعلامية المحلية العميلة راحت تدعو لإعادة النظر في الإسلام نفسه!!

فهناك من يدّعي أنّ الإسلام قد استنفد أغراضه التاريخية.

وهناك من يرفع نداءه طارحاً فكرة (البروتستانتية الإسلامية).

وهناك من يطرح النظم الغربية أساساً يجب أن يحوَّر الإسلام نفسه بحيث ينسجم معها، فتجد شيوع تعبيرات: (الديمقراطية الإسلامية، والاشتراكية الإسلامية.. الخ).

ولما لم يجد آذاناً صاغية راح بعض الأفراد يطرح الأفكار التلفيقية التي تأخذ من هذا ضغثاً ومن ذاك ضغثاً وتقدّمه على أساس أنّه الإسلام المواكب لمسيرة التطور!!

وهذا القسم الأخير هو أشدّ الأقسام خطورة على جيلنا الإسلامي الناشئ ونحن في إيران عانينا من كلّ الأفكار الماضية كثيراً، الاّ أنّ الاتجاه التلفيقي بشكله الغربي أو الشرقي كان يشكل العقبة الكأداء في عملية أسلمة الحياة الاجتماعية أسلمةً كاملة، لكن الثورة الإسلامية تخلّصت من كلّ المنحرفين بعد أن تآمروا على كلّ المكاسب الإسلامية.

خطوط المواجهة الإعلامية للغزو الثقافي

ونستطيع أن نميّز ـ في مجال مواجهة الغزو الثقافي الآنف على الصعيد الثقافي والإعلامي ـ خطوطاً، أهمّها خطان:

أولاً: الخط الإعلامي الثوري البنّاء

وقد امتاز هذا الخط بميزات منها:

أ ـ وعيه للإسلام وعياً نافذاً، وإدراكه العميق الأصيل لنظرته الحياتية التغييرية الشاملة.

ب ـ إدراكه لأبعاد الغزو الثقافي ومساربه ومظاهره.

جـ ـ تركيزه على محور المشكلة دون إهمال جوانبها وفروعها وتفصيلاتها، وبالتالي دعوته للتغيير الثوري والاصلاحي في آن واحد.

د ـ تقديمه الطروحات الإسلامية للجيل، وبعث حركة ثقافية جديدة.

هـ ـ تحريك الحس الإسلامي الحماسي المطلوب وعدم الاكتفاء بالتنظير الفكري الجاف. وهذا النوع هو الذي استطاع أن يقدّم خدمات جلّى على صعيد المواجهة وأن ينقذ الأمّة من وهدتها.

ثانياً: الخط الإعلامي السطحي

والذي تميّز بما يلي:

أ ـ بطرح الإسلام شعاراً برّاقاً، والتذكير بالأمجاد دونما عمل على تقديم الطروحات الحياتية.

ب ـ بتحبيذ الإصلاحات الجانبية وغضّ النظر عن الكثير منها خوفاً من الانفلات.

جـ ـ باتّباع أسلوب المساومة السياسية مع الحكّام المرتبطين، مهما بلغ بهم الارتباط، والإكتفاء منهم ببعض الظواهر الكاذبة.

ولهذا نجد جماهيرنا المسلمة تمجّ هذا الأسلوب، وترفض التعامل معه كإعلام إسلامي، ممّا أفقده تأثيره لا على صعيد المواجهة فحسب، بل وحتى على صعيد التأثير الجزئي، فلم يعد يحقق حتى ما يتوخى العملاء تحقيقه من تخدير وتغطية، وأمامنا تجارب حديثة جداً، حاول فيها أمثال هؤلاء التمويه وتشويه الإرادة الإسلامية من خلال إعلام واسع الأبعاد وعلى الصعيد العالمي، فكذّبته الجماهير المسلمة وأسقطته من فوق عروشه العاجية.

الإعلام القرآني جوهر النهوض

وإذا أردنا أن ننهض في مجال الإعلام المواجه والمربّي في آن واحد، فليس لنا من سبيل إلاّ سبيل القرآن والدعوة القرآنية، إنّنا مسلمون قبل كلّ شيء، لنا تصوراتنا ونماذجنا الخاصة بنا، والمستقاة من خالق الكون العليم بما يصلحه، والقرآن هو نموذجنا الأسمى في شتّى المجالات، فهو: (الكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع) وهو: (ناطق لا يعيي لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تُهزم أعوانه) وهو: (كتاب الله، تبصرون به وتنطقون به، وتسمعون به) فعلينا أن نعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي، فهو: (البحر الذي لا يدرك قعره)[١].

إنّه كتاب التوعية، والتوعية في الإسلام تسبق أية خطوة أخرى، الإسلام دين التوعية والتربية، وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرّر لزوم أن ينفذ المرء إلى عمقه، انه يعرض جوهرته الثمينة، لأنّه يعلم أنّ قيمته ستنكشف بكل وضوح للجميع، ولذا فهو يرفض أي تقليد من العقيدة ويدعو للبحث والبرهنة: **(قُل هَاتُوا بُرهَانَكُم)**[٢]. وهو

(١) نصوص متفرقة عن الإمام علي (عليه السلام) ـ تلميذ القرآن وتلميذ الرسول المبعوث بالقرآن ـ في (نهج البلاغة).

(٢) البقرة: ١١١.

يرفض أية عملية إكراه عقائدي **(لا إكرَاهَ في الدِّين)**[١]، كما يريد من الأمّة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية ببصرها وبصيرتها.

وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر الإسلام بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كلّ شيء. يقول القرآن الكريم:

(ادعُ إلى سَبِيلِ ربِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلهُم بِالتِي هِيَ أَحسَنُ إنّ ربَّكَ هُو أعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وهُو أعلَمُ بالمُهتَدِين)[٢].

(فلذلِكَ فادعُ واستقِم كما أُمِرت ولا تتّبع أهواءَهُم)[٣].

(ومن أحسنُ قولاً ممَّن دعَا إلى الله وعَمِل صالِحاً وقال إنّني من المسلمين)[٤].

(قُل هَذِهِ سَبِيلي أدعُوا إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتّبَعَنِي وَسُبحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشرِكِينَ)[٥].

وفي هذا يقول آية الله السيّد الصدر في كتابه (اقتصادنا).

«والأمر الآخر: أن يبدأ الدعاة الإسلاميون ـ قبل كلّ شيء ـ بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية، وإيضاح معالمها الرئيسية، معزّزة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمّت للإسلام حجّته، ولم يبقَ للآخرين مجالٌ للنقاش المنطقي السليم، وظلّوا بالرغم من ذلك مصرين على رفض النور، عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية ـ بِصِفَتها دعوة عالمية تتبنّى المصالح الحقيقية للإنسانية ـ إلاّ أن تشق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلّح»[٦].

وقد جاء في كتاب (الكافي) للمرحوم الكليني عن الصادق (عليه السلام) قوله: «وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): بعثني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليمن، فقال: يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عز

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) الشورى: ١٥.

(٤) فصلت: ٣٣.

(٥) يوسف: ١٠٨.

(٦) ص ٢٧٥، ج/ ١.

وجل على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي»[١].

إنه اسلوب القرآن قبل كلّ شيء. الذي علّمه الله سبحانه لموسى وهارون عليه السلام: **(اذهبا إلى فرعون إنَّهُ طغى. فقولا له قولاً ليناً لَعلَّه يتذكّر أو يخشى)**[٢].

إنها الدعوة ـ حتى عند مواجهة الطواغيت ـ عسى أن يهتدوا إلى الحق.

وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة: (أدعوك بدعاية الإسلام) في رسالته إلى كسرى أنوشيروان، وقيصر امبراطور الروم، تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي. وهكذا راح الدعاة يبثون الدَّعوة إلى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعاة الأوائل الذين أُرسلوا لتحقيق واجب الدعوة إلى الله، ومنهم:

ـ عبد الله بن حذافة السهمي : مبعوث الرسول إلى إيران.
ـ حاطب بن أبي بلتعة : مبعوث الرسول إلى مصر لدعوة المقوقس.
ـ دحية الكلبي : مبعوث الرسول إلى روما.
ـ عمرو بن أمية : مبعوث الرسول إلى اليمامة.
ـ حرملة بن زيد : مع وفد معه إلى مدينة (أيلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.
ـ المهاجر بن أبي امية : مبعوث الرسول إلى همدان.
ـ علي بن أبي طالب عليه السلام : مبعوثه الثاني إلى هذه المدينة.
ـ حذيفة بن اليمان : مبعوث الرسول إلى الهند.
ـ عبد الله بن عوسجة : مبعوث الرسول إلى قبيلة حارثة بن قريظ.
ـ جرير بن عبد الله البجلي : مبعوث الرسول إلى قبائل ذي الكلاع الحميري.
... وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة إلى الشعوب.

وإذا أردنا أن نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلحظها في الوفود والبعثات السياسية المرسلة من هنا إلى هناك، وفي أساليب توضيح

(١) الكافي (الكليني) ج٥، ص٢٨.
(٢) طه: ٤٣ و٤٤.

الحقيقة عبر الوسائل السمعية والبصرية، وفي مذكرات الايضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة إلى المؤتمرات الدولية.

وما تتميّز به العلاقات الدولية الإسلامية: إنّها تنظر لعملية التوعية والايضاح ـ كرسالة إلهية ومبدأ ضروري ـ يجب الالتزام به لا أن يتم اعتماد هذه السياسة التوضيحية، باعتبارها مناورة سياسية، فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق وتغيرت الموازين.

الهدف الرئيس والأهداف المرحلية للإعلام الإسلامي

الهدف الرئيس ـ بكل اختصار ـ هو تعبيد الأرض لله تعالى، وإيجاد المجتمع المؤمن العابد المحقق لخلافة الله في الأرض. وإذا وجد مثل هذا المجتمع، فإنه سيكون الأمّة الوسط التي تطمح الأمم للوصول إلى مستواها، والأمة الشاهدة على البشرية جمعاء، باعتبار ما لها من علوّ حضاري، نفسي ومادي، وحينئذ سيكون الدين كله لله، ويتحقق هدف الخلقة الإنسانية: **(وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاّ لِيَعبُدُون)**[١].

ويجب أن تصب كلّ التشريعات والسلوكيات والأقوال والأفعال وتتسمَّر كلّ الأحداق بهذا الهدف الكبير الكبير، وتسترخص الغوالي لتحقيقهِ. إنّه عظيم ترخص في قباله دماء الأنبياء والطاهرين، وجهود الصالحين عبر التاريخ.

إلاّ أنّ هناك أهدافاً مرحلية (تنتهي إلى ذلك الهدف الكبير) يعمل الإعلام الإسلامي على الوصول إليها بشتى الوسائل الممكنة، فما هي؟

نستطيع أن نذكر أهم هذه الأهداف المرحلية في النقاط التالية:

الأولى: ترشيد إنسانية الإنسان: ذلك أنّ للإنسانية خصائص ومعالم إذا رشدت ونميت ضمنت للإنسان مسيرة متوازنة. أمّا إذا تلاشت من على سطح الوجود الإنساني، فحينئذ يكون الفسق عن السبيل القويم، وحينئذ تكون المسيرة المكبّة على وجهها، وعندئذ يتوقع الاجرام كله، وهذه المعالم باختصار هي: (التعقل السليم، والإرادة الحرة، والخلقية الفطرية، والدوافع المنضبطة)، وإذ لم نكن هنا بصدد عرض البرنامج الإسلامي،

(١) الذاريات: ٥٦.

الواسع الأبعاد، لترشيد هذه الجوانب فإنّ من الطبيعي الإشارة إلى بعض مكوناته حينما نتحدث عن الأساليب الإعلاميّة.

الثانية: التوعية بالإسلام عقيدة ومفاهيم وتشريعاً، باعتباره السبيل الوحيد للوصول إلى ذلك الهدف الكبير، وكلما تعمق وعي الأفراد بهذه الرسالة، وطروحاتها وخططها وحلولها للمشاكل الإنسانية، واتضحت معالم الفرق بينها وبين المبادئ الوضعية وبانت خصائصها الرئيسة، استطاع المجتمع المسلم أن يخطو على طريق الهدف الكبير خطى أسرع وأثبت في نفس الوقت.

الثالثة: التوعية بكل ما يحيط بالأمة من أحداث وظواهر ومؤامرات وتفاعلات لها كلّها أثرها على تعيين المواقف المبدئية والمتحركة.

الرابعة: إيجاد الأرضية الصالحة لتطبيق الإسلام، في كلّ الأرض الإسلامية، وبالتالي في شتّى أنحاء العالم، ويشمل هذا الجانب أموراً نتحدث عنها في الأساليب التفصيلية.

الخامسة: تحقيق معالم الفرد المسلم والأمة المسلمة.

العدة المطلوبة والأسلوب الأمثل

أمّا العدة المطلوبة للإعلام الإسلامي العامل على النهوض والمقاومة فيمكن تلخيصها بما يلي:

الأول: القدرة العلمية والثقافية إلى الحد المستوعب لكلّ جوانب الإسلام وأهدافه العامة. فليس من المعقول أن يطلب من الإعلام تحقيق الأهداف السالفة الذكر دون أن يكون مزوّداً بمثل هذه القدرة، ويمكننا أن نردّ الكثير من نقاط الضعف الاعلامية إلى افتقادها، وتواجد السطحية في الفهم.

الثاني: الاستيعاب اللازم للفهم الاجتماعي العام، ومعرفة التحرك العالمي السياسي والاجتماعي وأساليبهِ ومحاوره، وتوفر الخبراء الهادفين والمحققين بكل جدارة.

الثالث: معرفة أساليب العرض، أو ما يمكن أن يُطلق عليه بفن الإعلام المناسب، وهو بالضبط ما كان قدماؤنا يطلقون عليه اسم: (معرفة حال المخاطب)، فيجب أن نَعْرِفَ من

نخاطب، وكيف نخاطب، وأنى يتم ذلك، وهذا هو مضمون التحلّي بالحكمة في مجال الدعوة إلى الله.

الرابع: الإيمان العميق الواعي بالإسلام وأهدافه الكبرى، وتأصُّل ذلك في نفوس الإعلاميين إلى الحد الذي يحملهم على التضحية بكل غالٍ ورخيص في سبيل بلوغ الهدف السامي.

الخامس: التخلّص من كلّ تبعية، أو ضيق أفق، أو مصلحة شخصية، والتجرّد من كلّ ذلك لصالح الحقيقة.

والواقع أنّنا نعتقد أنّه يكمن في هذه النقطة أحد أهم شروط النهضة الاعلامية، وأنّ إعلامنا الإسلامي اليوم مبتلى في الكثير من مقولاته بالتبعية للحكومات المتسلطة على شعوبها بالحديد والنار، فهو لا يعدو أن يكون دمية تتحرّك بإرادة الحاكم القزم، وباتجاه تحقيق مصالحه. وإلاّ فماذا نسمّي إعلاماً ينتسب للإسلام وهو يسكت عن كلّ انماط الخيانة الأخلاقية، أو الخيانة الاقتصادية، أو الانحراف السياسي والعمالة المفضوحة، أو الاستسلام للعدو الصهيوني الغاشم، أو يردد نفس تُهَم الاستكبار العالمي ضد أبطال المقاومة الإسلامية، أو يدعو للتستر على الجرائم. وربما بلغ من النذالة إلى الحد الذي يعلن فيه أنّ فكرة الحكم الإسلامي فكرة لا إسلامية! لا لشيء الاّ ليرضي الحكم المسلط على رقاب الشعب، وإلاّ ليبارك قبضة الجلاد التي تشدد الخناق على رقبة الجيل المسلم المتوثب. أو قد يبلغ بهم الأمر إلى مهاجمة الأنبياء كداود وسليمان عليهم السلام لأغراض قومية وما إلى ذلك. أو ربّما اتجهوا إلى التأكيد على اللغات غير العربية مع إهمال العربية نفسها أو المحلّية العامية تنفيذاً للمآرب الاستعمارية.

السادس: ملاحظة الأرضيّة الإيمانيّة المتوفّرة في أوساط الأمّة الإسلامية، فإنّها خير مساعد وعدّة على انطلاق الإعلامي في مجاله المناسب، وتتجلّى لنا أهمية هذا العنصر حينما ندرك أنّه بنفسه شكّل سدّ المقاومة الرئيس أمام الهجوم الإعلامي الغريب حيث تخلّى عن الساحة حتى أولياؤهم الفكريون والسياسيون.

السابع: التمتّع بالخصائص القرآنية الإعلامية: وهذه الخصائص واسعة الأبعاد قد لا

يمكن الاحاطة بها إلاّ من خلال دراسة تحقيقية عميقة، ومن هنا فإنّنا نكتفي بالإشارة لبعضها بما يتناسب وحجم هذا الحديث، وما نذكره منها يتلخّص فيما يلي:

أولاً: استحضار النظرة الغيبية إلى جانب الحسابات المادية، وذلك في كلّ تحليل أو توقّع مستقبلي والابتعاد عن النظرة المادية الحسابية الجافة فإنّ التصورات القرآنية المعطاة تؤكد كون المسيرة المشجعة مع العدل تنسجم معها القوى الطبيعية القائمة في خلقتها على الأساس نفسه، في حين لا يتوفر الانسجام المطلوب مع الانحراف، وهو ما تلخّصه الآيات الكريمة التالية:

(فَأكثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيهِم رَبُّكَ سَوطَ عَذَابٍ)[١].

(استَغفِرُوا رَبَّكُم إنّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرسِلِ السَمَاءَ عَلَيكُمُ مِدرَاراً وَيُمدِدكُم بِأموَالٍ وَبَنِينَ وَيَجعَل لَكُم جَنَّاتٍ وَيَجعَل لَكُم أنهَاراً)[٢].

ويشمل ذلك كلّ النظرات الإسلامية في التاريخ والحياة والإنسان، ومن ذلك ما قلناه من الترابط بين أجزاء التركيبة الإنسانية.

ثانياً: الموضوعية والاتصاف بروح التبعية للحقيقة ـ أيّاً كانت ـ وحتى لو خالفت مصلحة شخصية، أو استدعت التضحية الغالية. ويبالغ القرآن في تحقيق الروح الموضوعية، وعدم النظر إلى الواقع الموضوعي من خلال رؤية مسبقة إلى الحد الذي يدعو فيه الخصم إلى افتراض نقطة الصفر في الحوار، وعدم الإيمان بشيء والانطلاق منها إلى الحقيقة الموضوعية فيقول مخاطباً الكفار: **(وَإنّا أو إيّاكُم لَعَلَى هُدىً أو في ضَلالٍ مُّبِينٍ)**[٣].

ثالثاً: الهدفية في كلّ خطوة، ذلك أنّ الهدفية لا تتنافى مطلقاً مع الموضوعية في التصور الإسلامي؛ لأنّ المؤمن مطمئن تمام الاطمئنان أنّ الحقيقة الموضوعية ـ مهما كانت ـ تشكّل آية من آيات الله تعالى وهدى إليه سبحانه.

(١) الفجر: ١٢ – ١٣.
(٢) نوح: ١٠ – ١٢.
(٣) سبأ: ٢٤.

وإذا انعكست الهدفيّة على حياة الداعية العامل، صرف النظر عن كلّ أنماط اللهو السخيف، والتضييع الوقتي فيما لا طائل تحته ـ وبالتالي لا تجد في نماذجنا الإعلامية ما يهدر هذا الوقت الثمين.

إنّنا نلحظ الهدفية القرآنية في كلّ قصة، وفي كلّ مثل، وفي كلّ عبارة. ففي كلّ موضوع عبرة، ومع كلّ حديث اعتبار، وكل شيء يعبّر عن مادة للدراسة وخدمة الهدف من خلالها:

(لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاولِي الالباب...)[١].

ويكفي أن نتابع أية قصة قرآنية لنكتشف الهدفية التي تتجلّى أروع تجل.

رابعاً: التنسيق والانسجام بين كلّ الخطوات والجوانب وذلك انعكاساً للتنسيق القرآني، فإنّ الصورة المتشعبة تسودها روح واحدة. وهذه الخصيصة نتيجة للخصائص السابقة، وخصوصاً الهدفية، بعد افتراض وحدة الهدف وشموله كلّ جوانب التصور، وأي اختلال فيها يعني الانقلاب على الهدف.

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ)[٢].

في حين تتضاعف السرعة إلى الهدف عند التناسق (...**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ...**)[٣]. وإذا لاحظنا ضرورة هذه الخصيصة للتأثير المطلوب أدركنا سِرَّ ضياع الكثير من الأفكار الصحيحة المطروحة في إعلامنا ـ اليوم ـ لأنّها تكذبها الأعمال والأطر المنافقة والمساومة، والأقوال الأخرى من صاحب الفكرة نفسه.

خامساً: الواقعية والتفاعل المستمر مع الأحداث الاجتماعية، وعدم الغرق في تصورات طوبائية، وهذا من خصائص القرآن الكريم. إنّه بالرغم من كونه دستوراً عاماً لكل المسيرة البشرية، ينسجم مع ما يبدو من ظواهر ويعالجها على ضوء تلك التصورات العامة الأصلية: **(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وَتَشْتَكي إِلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما...)**[٤].

(١) يوسف: ١١١.
(٢) الصف: ٣.
(٣) فاطر: ١٠.
(٤) المجادلة: ١.

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطّائِفَتَيْنِ أَنّها لَكُمْ وَتَوَدّونَ أَنّ غَيْرَ ذاتِ الشّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُحِقّ الْحَقّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ)[١].

وينبغي هنا أن نذكر بأننا نقصد بالواقعية هنا: ملاحظة الواقع والعمل على تطويره إلى المفروض، لا ما يبدو أحياناً من تفسيرات تتجه بالواقعية إلى عملية الاذعان للواقع، والتلوّن وفق متطلباته اذعاناً واستسلاماً له. والواقعية تتطلب أن تطرح الأساليب البديلة الصحيحة عند العمل لاصلاح ظاهرة منحرفة، وذلك نظير ما نلحظه في الآية الكريمة على لسان لوط عليه السلام: (...هؤُلاءِ بَناتي هُنّ أَطْهَرُ لَكُمْ ...)[٢].

وما نجده في تعبير الإمام علي ـ عليه السلام ـ حين يعمل على محو التعصّب القبلي المقيت، يطرح التعصب لمكارم الخلاق حين يقول:

«وأما الأغنياء من مترفة الأمم، فتعصّبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: (نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المُجَداء والنُّجَداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل...»[٣].

سادساً: المنطقية في العرض والابتعاد عن السطحية، إنّ القرآن يربّي المسلم على التأمل والبرهنة والتعقّل واستقراء الأدلة القوية ومن ثمّ اصدار الحكم.

(قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ)[٤].

أمّا الاتهامات الواهية، أو حتى التوقّعات التي لا تمتلك دليلاً من الواقع، وطرح الآراء ونسبتها إلى الإسلام فهو الإنحراف الكبير (...قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ)[٥].

(١) الأنفال: ٧.
(٢) هود: ٧٨.
(٣) نهج البلاغة، ٢٩٥.
(٤) البقرة: ١١١.
(٥) يونس: ٥٩.

ومن هنا يتخلّص الاعلام الإسلامي من ركام المقالات والتحليلات الواهية، التي تترك أثرها السلبي على الأفكار، وتلقي بتبعاتها على كواهل هؤلاء الكتّاب والمحلّلين. ولا استطيع هنا تحديد المساحة التي يجب ان تحذف من الاعلام المتداول في مناطقنا الإسلامية ـ حين تطبيق هذا الشرط ـ إلا أنني متأكّد من لزوم حذف المساحة الكبيرة مما ينشر الآن بلا ريب.

سابعاً: التفاعل الوجداني الحراري العاطفي مع الهدف وحمل هم الرسالة للعمل على زرع الحماس الإسلامي للقضية الإسلامية من خلال ذلك.

إن كلام الداعية يجب أن يكشف للسامعين عن تألمه لقضيته وحماسه لأهدافه، وخشوعه أمام ربه وكلماته العليا وتفاعله معها، وهو أمر يربيه القرآن في نفوس اتباعه.

(...كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللّهِ ...)[١].

(أَلَمْ يَأْنِ لِلّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقّ وَلا يَكُونُوا كَالّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ)[٢].

ثامناً: الأخلاقية الإعلامية، ونعني بها الإلتزام الكامل بالأخلاق الإسلامية في المجال الاعلامي، فلا يُلقى القول على عواهنه، ولا تُشاع الفاحشة، ولا يُتهم المؤمن، ولا يُردُّ على القضاء، ولا تنمّى روح التحاسد والتباغض والتحاقد، ولا تُستخدم الألفاظ التي تمجّها الأخلاقية الإسلامية. وإنّما يعمل الإعلام الإسلامي على توفير البيئة الصالحة التي تتفتح فيها الفطرة عن طاقاتها المبدعة، وبالتالي: تسير بالإنسان نحو أهدافه الأصيلة.

يقول القرآن الكريم واصفاً المؤمنين:

(١) الزمر: ٢٣.
(٢) الحديد: ١٦.

(وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلامًا * وَالَّذينَ يَبيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَ قِيامًا * وَالَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَرامًا * إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقامًا * وَالَّذينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَوامًا * وَالَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إِلهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثامًا * يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فيهِ مُهانًا * إِلاّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحًا فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللّهُ غَفُورًا رَحيمًا * وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَي اللّهِ مَتابًا * وَالَّذينَ لا يَشْهَدُونَ الزّورَ وَإِذا مَرّوا بِاللَّغْوِ مَرّوا كِرامًا * وَالَّذينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرّوا عَلَيْها صُمّا وَعُمْيانًا * وَالَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقينَ إِمامًا)[1].

تاسعاً: تنويع الأساليب الإعلامية، وهو في الواقع ـ مقتضى تطبيق مبدأي الحكمة، والموعظة الحسنة. والحديث عن تنوع الأساليب القرآنية بالذات حديث واسع، فالقرآن بأساليبه الرائعة استطاع أن يصوغ أُمة هي في طليعة البشر من شراذم متخلّفة، كانت تتعثّر خلف المسيرة البشرية، ويكفي هنا أن نشير ـ مثلاً ـ إلى روعة الاستفادة من أسلوب الجُمل المعترضة أو العبارات في الحديث لتحقيق الهدف المطلوب، وتبدو لنا هذه الروعة إذا تأمّلنا كلمة (سبحانه) في الآية الشريفة: (وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ)[2] والحديث هنا ـ كما قلنا ـ واسع الأبعاد.

عاشراً: العالمية في الاهتمام، وذلك انطلاقاً من عالمية الإسلام نفسه، وسعيه لحل مشكلات الإنسانية جمعاء، ومن هنا فإنّ أيَّة دراسة أو اهتمام محلي يجب أن تتم في هذا الإطار العالمي العام، وعلى ضوء ذلك يجب أن يهتم الإعلام الإسلامي بقضايا المظلومين والمحرومين والمستضعفين، ويتفاعل معها بكل حرارة، في حين يقف أمام كلّ حركة استكبارية يقوم بها الطغاة المجرمون.

(١) الفرقان: ٦٣ – ٧٤.
(٢) النحل: ٥٧.

حادي عشر: رصد التحركات التآمرية للشياطين على وجود الأمّة الإسلامية، والعمل على توعية الأمّة بها بشكل دائم. إنّها إذن المرابطة الدائمة في هذا المجال، والمرابطة: عمل جهادي يندب القرآن الأمّة إليه، وإنّه الحذر الدائم (...إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ...)[1] وهي مهمة جسيمة يجب أن ينهض بها الإعلام الإسلامي.

ثاني عشر: التأكيد على النقاط المشتركة الجامعة، ومن ثم الاتجاه لحل الخلافات في النقاط المختلف عليها، وهذا أحد أساليب الحكمة في الدعوة:

(قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ)[2].

وأخيراً فإنّ ما أشرنا اليه من خصائص لا يستوعب حتى الجزء الأكبر من الخصائص الإعلامية للمعجزة الاسلامية الاعلامية (القرآن الكريم) وإنّما ذكرنا ما يفتح الأبواب أمام دراسة موسعة في هذا المجال.

(١) الأعراف: ٢٧.
(٢) آل عمران: ٦٤.

(ب)

عناصر الضعف في الإعلام الإسلامي

إذا ركّزنا على نوعية الأهداف السامية التي ألقيت على عاتق الإعلام الإسلامي وجدناها على النحو التالي:

أولاً: أن يقوم بتبليغ رسالة الله إلى العالم، وتوضيح معالمها، وإبراز العناصر القادرة على سوق البشرية إلى كمالها المطلوب.

ثانياً: رفع المستوى الحضاري للأمة، بحيث يؤهلها لأن تكون الأمة الوسط، والأمة الشاهد، والأمة الطليعة.

ثالثاً: العمل على تجلية الفطرة في الأمة، وتعميق الروح الإسلامية فيها، وبثّ الروح النشطة الأصيلة التي حملها الإسلام إلى النفوس.

رابعاً: العمل على تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة على الصعيد السياسي والفكري والعاطفي، لتنهض بمهام النهضة الإسلامية الكبرى التي أرادها الله للإنسانية، والتي تفجّرت آناً ثم خمدت جذورها، ثم عادت اليوم كأقوى ما تكون، إيماناً وعملاً في سبيل تطبيق حكم الله في الأرض.

خامساً: التصدّي للمؤامرات الاستعمارية الكافرة ضد أمتنا الإسلامية وعقيدتها ونظامها السماوي، وفضح مخططاتها، والتنبيه على عناصرها الخفية والظاهرة.

إذا ركّزنا على هذا الجانب، وأدركنا إلى جنبه أنّنا نمثل قسطاً من دور الأنبياء عبر التاريخ بإبلاغ رسالة الله للعالمين، ولاحظنا من جانب ثالث مدى ما أُعِدَّ لنا من جزاء

ـ إما سلباً أو إيجاباً ـ نتيجة هذه المهمة الضخمة وخصوصاً إذا لاحظنا أنّ هذا الجزاء قد ينعكس لا على موقفنا يوم الحساب فحسب بل وحتى على موقفنا العالمي اليوم، فقد يترتّب على عملنا انقاذ أمة وقد يجرنا إلى تضييع امتنا وأنفسنا بالتالي ـ نعم ـ إذا لاحظنا هذه الجوانب فستتضح لنا موارد القصور في اعلامنا الإسلامي، ونوعية العقبات التي تقف في وجه تحقيق المهمة الإعلامية الكبرى.

وهذا الضعف الإعلامي قد يكون ـ تارة ـ نتيجة تقصير مسبق، وأخرى لظروف خارجة عن إرادة المشرفين على الجانب الإعلامي والموجّهين لمسيرته.

ونستطيع هنا أن نلخّص هذا الضعف أو نركّز منه على عنصر عدم مواكبته للمسيرة الإسلامية العالمية. وسنرى من خلال تبيين نقاط الضعف أنّ هذا الجانب هو الداء العضال لإعلامنا. إنه إعلامٌ متخلف، بطيء، نفعي، متخاذل، موضعي لا يهتم بالكل الإسلامي، ومادي. وأقصد من قولي إنّه مادي: أنّه يهمل صفته الإسلامية وارتباطه الرباني، وينسى أنّ المسلم يؤمن بوجود ترابط حتمي بين النتائج المادية والمقدمات المعنوية، كالترابط بين استغفار أمة وشيوع الرخاء المادي فيها، وظلم أمة أخرى، وانهزامها، وتدميرها المحتّم نتيجة إرادة الله وسنته.

قال تعالى: **(وَأَنْ لَو اسْتَقامُوا عَلَي الطّرِيقَةِ لاسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا)**[1].

(وَلَوْ أَنّهُمْ أَقامُوا التّوْراةَ وَالْإِنْجيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لاكلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)[2].

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُري آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السّماءِ وَالارْضِ وَلكِنْ كَذّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ)[3].

---

(١) الجن: ١٦.

(٢) المائدة: ٦٦.

(٣) الاعراف: ٩٦.

وعلى نفس هذا الغرار ورد الوعد الإلهي القرآني الرائع:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ)[1].

إنّ إعلامنا يكاد ينسى كلّ هذا وينطلق ضعيفاً متخاذلاً أمام إعلام الاستكبار العالمي، وربّما وجد نفسه في النهاية في فخ الاستعمار، فراح يتابع عمله وكأنّ شيئاً لم يحدث، إمّا استسلاماً وإمّا انتهازاً وإمّا غير ذلك.

والتقصير المسبق هذا يمكن أن يُنسب إلى شخص بعينه، كما يمكن أن ينسب لجهة بعينها، ولكن أكبر التقصيرات من هؤلاء الذين سلمتهم الظروف ـ وأربأ بالأمة أن تكون هي التي سلمتهم ـ مهمة الإعلام الإسلامي العالمي بشكل رسمي، كما يمكن أن يقال: إنّ ذنب أولئك الذين كان من المفروض بهم أن يمدّوا الإعلام بالوعي لا يقل مطلقاً عن ذنب الفئات السابقة بل يربو عليه.

وموارد الضعف الإعلامي ترجع في الغالب إلى عدم التخطيط الواعي والشامل، والاهمال، ويمكن أن نلخصها كالتالي:

أولاً: الفردية وضيق الأُفق عند المستقلين والتبعية والعمالة ـ غالباً ـ عند المرتبطين بحكّامهم أو بالجهات المموّلة لهم.

فإذا لاحظنا الإعلام الإسلامي القائم اليوم وجدناه إما نتيجة جهد فردي ضيق الافق، أو ضيق التمويل، أو ضيق القدرة على التعبير، ضيق المصادر الفكرية والخبرية والسياسية، وإنّما يقوم على أساس تحسُّس فردي خاص بالدعوة وضرورتها ولزوم ابلاغ صوت الإسلام إلى العالم ومثل هذا الإعلام مبتلى بنقاط ضعفه الكثيرة، ويظلّ يعبّر عن وجهة نظر ضيقة قد لا تتجاوز رأي الشخص المسؤول عنه تجاه القضايا العامة

---

(١) القصص: ٥٥.

دون أي تخطيط أو تشاور أو تعبير صحيح عن شعور إسلامي عام. وهذا يؤدّي ـ باحتمال كبير ـ إلى خطأ في تقدير الموقف نتيجة الجهل بعناصره المكوّنة ممّا يوقع الجماهير الإسلامية والمتعاطفة في حيرة من أمرها وتناقض في تصورها. وأعود فأؤكد أنّ مسألة الإعلام ليست مسألة شخصية أو موضعية ضيقة أو حكراً على فرد خاص، إنّها مسألة الأُمّة والرسالة فيجب ان لا نستهين بها إلى هذا الحدّ.

هذا في الإعلام الفردي، أمّا في الإعلام الرسمي فإنّ القلب يكاد ينزف له دماً تماماً كما ينزف عندما يتذكر أنّ بعض مقدرات هذه الأمة ـ على الصعيد السياسي والاجتماعي ـ سُلمت لأُناس أقل ما يقال عنهم أنّهم ليسوا بمستوى المسؤولية، أناس استمرأوا حياة الذل وراحوا يكرعون من آنية العدو الكافر، ويردون موارد الفكر المادي الهزيل، والتمدّن المادي القاتل الجاف، ويتسكّعون على الموائد الاستعمارية، ويسترضون أنيابها القاطعة ووحشيتها الكاسرة، وينضمون إمّا إلى معسكر شرقي أو معسكر غربي، وكلا المعسكرين ممّا أمرنا ديننا وشريعتنا ووجداننا وشرفنا وحتى مصلحتنا الحقيقية أن نبتعد عنهما، ونمشي على صراط مستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

فلا قيمة للرسالة لديهم إلاّ بمقدار ما تحقّق لهم من مصالح، ولا تقييم لرأي الشعب إلاّ بمقدار ما يُمَكِّنُهُ من المطالبة بوجود المحاسب.

ومن هنا نعرف حال الإعلام الإسلامي، إنّه إعلام تابع ـ شعر أم لم يشعر ـ للمصالح الشخصية. إنّ مثل هذا الإعلام تنحصر وظيفته في تمرير عملية التخدير المطلوبة، وبثّ روح الجفاف والكسل في أبناء أمتنا، وتحويل أنظارهم عن مسيرة النهضة الإسلامية الصاعدة، وعرض الإسلام من وجهة نظر الجهة التي تحميه وتموّله، وتحليل القضايا العامة تحليلاً ينتسب للإسلام ظاهراً ويقوم واقعاً لتحقيق مصالح الجهة المصدرة له.

إن مثل هذا الإعلام في الواقع يفقد تأثيره بعد وقت قصير لدى جماهير النهضة

الإسلامية؛ لأنّه سرعان ما يتكشف زيفه، ويتحول في نظر جماهير الأمة إلى إعلام مكرر مزيف مخدر لا قيمة له، تستمع إليه الأمة المغلوبة على أمرها مستهينة به.

إنّ الأمة ستنظر إليه على أساس كونه جزءاً من المخطط الاستعماري الكافر، وهذا بالضبط ما حدث لشعبنا الإيراني المسلم وهو يتابع الإعلام الذي انتسب إلى الإسلام في عهد الشاه المقبور. لقد كانت الكلمة هناك تفعل فعلها المعكوس في الشعب، ولقد كان مجرد التعامل معه جريمة لا تغتفر لدى شعبنا المغلوب آنذاك، في حين راح يعيش بكل وجوده مع الإعلام الإسلامي الذي ينطلق اليوم من أعماقه، ويحمل رسالة الإسلام الصافية إلى العالم.

أما علاج هذه الحالة فهو ما أودُّ التركيز عليه.

ثانياً: التفكك المقيت بين أوجه الإعلام فكرياً وعملياً.

إعلامنا الإسلامي لا يساير مشاعر أُمتنا ولا يعيش مشاكلها، بل هو عن كلّ ذلك غريب غارق في مشاكل مخترعة من قبله، وكأنّه يريد أن يصدق قول القائل (ما لله لله وما لقيصر لقيصر)! وإلاّ فمتى رأينا إعلامنا هذا ـ اللهم إلاّ القليل ـ يتصدّى للخطط الاستعمارية الكبرى فيفنّدها. ومتى رأيناه يثير الروح النشطة في الأمة لكي تقف بصلابة أمام من امتهنوا وجودها وسلبوها حقها المغتصب، ومتى رأيناه يبحث مدى انطباق واقع حياتنا الاجتماعية السياسية المعاصرة مع القرآن؟ ولو كان فعل لما ابتلينا بهذه الحالة المخزية، ولما فقد هو مركزه الموجّه لدى الجماهير.

إنّ من مظاهر التفكك أن لا تتناسب الحلول مع المشاكل، أو يتمّ التركيز على جانب في حين يُهمَل الجانب الآخر، وهو أكثر أهمية منه، ويتم الانشغال بأمور تافهة وتترك المسائل المصيرية.

ثالثاً: التخلّف عن التخطيط الإعلامي للإسلام نفسه.

إن المتتبع لتشريعات الإسلام والملاحظ لأهدافها يجد كون الإسلام اهتمّ بهذا الجانب

أيما اهتمام، لكي يوجد التلاحم بين تلقّي العلم واعطائه أولاً، وبين كلّ أفراد الأمة وقضاياها الكبرى ثانياً، ولكي يبعث الحرارة باستمرار في أوصالها، فلا تقعد عن هدف سامٍ أو تتقاعس أو تنسى. فهناك تشريعات لها جانب إعلامي ضخم، كتشريع صلاة الجمعة، والعيدين، والحج نفسه، وتشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الإسلام وغيرها ولكنا نجد الإعلام الإسلامي متخلفاً عن كلّ ذلك.

فبعض صلوات الجمعة عادت تحوي خطباً مكتوبة مقررة من الأعلى، وعاد أئمّتها موظفين حكوميين يقرءون ما يُكتَب لهم، لا يملكون أن يضيفوا من عندهم كلمة واحدة، فهل لكم أن تحدّثوا عن أهدافها؟ وهل هي كما آلت إليه هذه الصلاة العظيمة في إيران.

إنّ صلاة الجمعة في إيران ـ مثلاً ـ تقوم بأعظم الأدوار الإعلامية الإسلامية، إذ يتولاّها المسؤولون المتديّنون، ويطرحون فيها مشاكل الأمة ويناقشون بصراحة كلّ شيء، لا يخافون فيها أحداً إلاّ الله تعالى، ولذا تجد صلاة الجمعة في طهران ـ مثلاً ـ قد يحضرها مئات الآلاف أحياناً نظراً لمعطياتها الكبرى.

أما العيدان فقد تحولا إلى يومَي تهاني رسمية، وفرح وجذوة باهتة، وربما غطت عليها الأعياد الرسمية والوطنية وأمثالها، بل إنّنا نلحظ ـ للأسف الشديد ـ أنّ وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في الكثير من الدول الإسلامية تكثّف ـ فيهما ـ من البرامج التي تساعد على ترسيخ وإشاعة ظاهرة التحلل الاجتماعي والمجون، وتصوّر للمستمع والمشاهد القلم قد رُفع عنه في هاتين المناسبتين، فتحرّف فلسفة وعلل الابتهاج ـ بحلولهما ـ ليتحوّل من ابتهاج عبادي يعمّق الارتباط بالله شعوراً وأُسلوباً، إلى ابتهاج ماجن يعبّر عن سطحية وتحلل.

أمّا الحج فقد حُوِّل إلى مجرد شعائر باهتة جامدة جافة، ودعوات شخصية، وطقوس ميتة، ورفعت فيه الشعارات غير الإسلامية علناً وأنّ السياسة يجب أن لا تختلط بالحج! أفلهذا دعا الإسلام أهل الأرض لأن يُرسلوا وفودهم إلى بيت الله وفي ضيافته؟! ألم يكن

من الممكن أن تجري طقوس مشابهة في مختلف البلدان؟

إنّ الحج عملية عبادية سياسية اجتماعية، ومن الإجرام أن نُفقدها روحها الكبرى، هل فكرنا في جميع المسلمين هناك وطرح مشاكلهم السياسية والاقتصادية وتعيين حلولها؟ أم ترانا نخاف أن تتكلم الشعوب الإسلامية؟ وهكذا قل عن باقي التشريعات الإسلامية الأخرى.

رابعاً: عدم الاستفادة الإعلامية من الخدمات الاجتماعية، فإنّ هناك بعض أنماط الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها الدول التي تحكم البلدان الإسلامية، ولكنها كلّها تقدّم باسم رئيس الدولة ولأغراض سياسية بحتة، في حين كان الأولى بها أن تقدَّم للشعوب باسم الإسلام، خصوصاً وأنّها ملك له ولشرعه لا لهؤلاء، فإذا أمكن أن نؤمّن هذا الأمرّ استطعنا أن نوفر جواً عاطفياً جميلاً بين المسلمين، ونشدّهم إلى إسلامهم، واستطعنا أن ندعو غيرنا إلى حياتنا هذه.

وهناك مساوئ ونواقص أخرى لابدّ من الإشارة إليها:

منها: إهمال بعض الحقول الإعلامية أو التقليل من شأنها كحقل المرأة المسلمة، والطفل المسلم، والشاب المسلم، والعامل وأمثال ذلك، فلا نجد إعلامنا قد وفّاها أدنى حقها.

ومنها: انعزال ذوي الطاقات الفكرية الأصيلة عن المجال الإعلامي، ولهذا الأمر مغزىً دقيق مهم.

ومنها: أيضاً عدم تنوع الأساليب.

ومنها: الإهمال المقيت للفلم السينمائي والمسرح والتلفزة وغيرها ممّا يجسّم المعنى أمام المشاهدين.

كل هذا، والعدو الكافر يملك إمكانات إعلامية ضخمة وعناصر متدربة ومتخصصة، ويحتل كلّ رقعة من أراضي المسلمين احتلالاً إعلامياً، ممهّداً للاحتلال الاستعماري (وإن

كان ذلك بالنحو الامبريالي الجديد) بما فيه الاحتلال الفكري والنفسي وحتى العسكري.

فهل أدركنا هذه النقاط الهائلة من الضعف؟ وهل عملنا على تلافيها؟! إنّني أؤكد كون الإسلام سيظل يستعر في وجود هذه الأمة، وسيظل ينتشر في المجتمع البشري كله، حتى لو لم نكن نحن بمستوى مسؤولياتنا الكبرى، ولكننا لو أصلحنا أنفسنا الإصلاح اللازم استطعنا أن نساعد في دفع عجلة مسيرته، وأن نقدم لمسيرته خدمات جلّى، وأن نقرب اليوم الموعود يوم تطهر الأرض من كلّ الطواغيت وأذنابهم وعملائهم ونظمهم وأخلاقهم، يوم تطبيق شرعة الله الصافية الأصيلة على الأرض كلّ الأرض.

وللارتفاع بمستوى الإعلام الإسلامي نسجّل هنا بعض الاقتراحات:

الاقتراح الأول:

تشكيل مجمع إعلامي باسم – مجمع الإعلام الإسلامي – مهمته:

أ ـ القيام بإيصال المفاهيم الإسلامية الأصيلة في مختلف المجالات العقائدية والتنظيمية إلى أوسع قطاع في الأمة، وبأفضل أسلوب.

ب ـ المساعدة العملية في التجربة الاجتماعية التي يقودها الإسلام لبناء أمة إسلامية متماسكة ذات شخصية متميزة المعالم.

جـ ـ قول الحق أمام كلّ الطواغيت وأذنابهم، وعرض الواقع بكل صراحة أمام الأمة.

د ـ حمل الإسلام إلى العالم، وذلك عبر الإشراف الكامل على مجمل النشاط الإسلامي بأوجهه المختلفة، وتموين وسائل الإعلام المختلفة بالفكر الأصيل على مختلف الصُّعُد.

على أن يتمّ تشكيل هذا المجمع من علماء إسلاميين معروفين بغيرتهم على الإسلام، واستقلالهم في آرائهم، وتكون له فروع في كلّ قطر إسلامي تمثّل مواصفاته وتعكس مواقفه وتؤدّي وظائفه.

الاقتراح الثاني:

الاتصال المستمر بين العلماء والشخصيات الإسلامية لئلا يقعوا فريسة للتضليل الدعائي والتمويه الإعلامي المعادي.

الاقتراح الثالث:

المبادرة إلى تشكيل لجنة باسم (هيئة الخدمات الاجتماعية الإسلامية) تكون مهمتها توزيع الخدمات باسم الإسلام بدلاً عن تقديمها باسم هذا الرئيس أو ذاك الملك.

الاقتراح الرابع:

العمل والتخطيط لرفع المستوى السياسي والثقافي والإعلامي لدى أبناء الأمة الإسلامية عبر الوسائل المتاحة، ومنها إقامة الندوات المفتوحة الحرة كما أنّ من أهمّها إذاعة جلسات مجالس الشورى والبرلمانات مباشرة على الهواء لكي تعيش الأمة قضاياها.

الاقتراح الخامس:

دعوة جميع الحكومات القائمة في البلدان الإسلامية للعمل الحثيث الدؤوب على منع وإزالة المظاهر الطاغوتية كالترف وأمثاله ومظاهر الحضارة المادية والانحراف الأخلاقي، ومنع إصدار وتوزيع مجلات الخلاعة والجنس المفضوح، ومجلات الفكر العلماني الخبيث.

الاقتراح السادس:

دعوة جميع أنشطة الإعلام الإسلامي إلى التأكيد على قضايا المستضعفين في الأرض وحمل لواء الدفاع عنهم استجابة لرؤية الإسلام.

الاقتراح السابع:

ابتداع أسلوب الإذاعات الموجّهة نحو الشعوب الإسلامية التي ترزخ تحت نير الخلافات والنزاعات المنافية لتعاليم الإسلام.

(جـ)

النقد الذاتي لحركة المفكّرين الإسلاميين اليوم

تختلف النفوس من حيث الموضوعية وسعة الأُفق إلى حد كبير، فبين من لا يأبه لأيّ نقد شخصي مهما كان حاداً عنيفاً، وبين من تجرحه كلمة ناقدة مهما كانت موضوعية بنّاءة. إلاّ أنّ نقد الحركة والاتجاه الفكري أمر طبيعي، وكثيراً ما يدعو الأفراد للتأمّل وإعادة النظر دون أن يصحب ذلك تأجُّج حماسي بليد، أو عاطفة جريحة ضارية تسدّ السبل على التفكير الهادئ.. وتلك هي سَورة الغضب الطافح عن حده. وما نحاوله هنا هو تحريك حسّ النقد الذاتي لمسيرة الفكر الإسلامي السائد اليوم في عالمنا الإسلامي المعاصر، والذي يطالعنا بشكل كتاب، أو مقال، أو محاضرة تطرح منفردة أو تنضم إلى مجموعة نطلق عليها عنوان ندوة أو مؤتمر فكري.

على أنّ منهاجنا في هذا البحث لا يتوجّه بالإشارة الصريحة إلى الرموز الفكرية التي تطالعنا أسماؤها في هذه الصحيفة الإسلامية أو تلك، وإنّما يطرح بعض الأمراض والنقائص التي لا يشك أحد في ماهيتها المرضية، ثم يترك للقارئ الكريم أن يطبّق بنفسه فيكشف المصاديق، إن وُجدت، أو بالأحرى يترك للمفكر نفسه أن يتجرّد من دوافعه الذاتية ـ والمفروض أنّه يعمل مخلصاً في سبيل اعلاء كلمة الله ـ فينظر هل تمسّه لفحة من هذا اللهيب، أو تدنس ثوبه لوثة من هذا القتام؟

وقبل أن نطرح بعض هذه الأنماط المرضية نركّز على حقيقتين موضوعيتين هما:

أولاً: وجود بعض المفكّرين الواعين الذين منحهم الله تعالى القدرة على التحليق الفكري المجرّد، والاخلاص له ـ جل شأنه ـ الأمر الذي جنَّبهم الوقوع في المزالق، وجعلهم في مهبط الهداية الإلهية.

ثانياً: توقّع التغيير الشامل للحركة الفكرية الإسلامية، وانسجامها بالتالي مع التغيير الشامل الذي يسري كالعافية الإلهية إلى أوصال عالمنا الإسلامي الكبير.. فنحن إذن إلى التفاؤل أقرب منا إلى التشاؤم.. بل إنّنا لنجدنا نحمل أملاً قريباً في طلوع فجر إسلامي فكري مشرق، يغمر الأرض نوراً بحوله تعالى وقوته.

أما وقد ركّزنا على هاتين الحقيقتين، نودّ أن نستعرض ـ بما يتناسب وحجم هذا المقال ـ بعض نقاط الضعف، والحالات المرضية التي قد يُبتلى بها الفكر، أو فلنقل يبتلى بها المفكّرون.

وأولها ـ بكل صراحة ـ التبعية المكمِّمة للأفراد، والتي غالباً ما تظهر على شكل تبعية للحكام الطغاة.. وهذه التبعية المقيتة قد تفرضها ظروف الطغيان المسيطر، كما قد يُلجئ المفكّر إليها ضعفه النفسي وحاجته الاقتصادية أو النفسية إلى مثل هذه التبعية.

ويمكننا أن نفترض لهذه التبعية من آثار السوء الشيء الكثير، فقد تبدأ بعنصر المجاملة، وعدم التعرّض لما يُغضب السلاطين، وتنتهي إلى عملية التزييف المتعمّد بعد أن تمتلئ البطون من الحرام، وتنتفخ الأوداج من دماء المستضعفين المقهورين. وبين تلك البداية وهذه النهاية يمكن تصنيف الكثير الكثير ممّا يكتب أو يلقى في عالمنا الإسلامي وباسم الإسلام، والتربية، والتوعية!!

فهل يفكر بهذا الأمر أولئك الذين باعوا أثمن جوهرة في الحياة وهي (الحياة المعقولة) للشياطين الصغار التافهين، فراحوا يمتدحون جاهلاً لا يعقل ما ينطق، ولا يملك من مؤهلات الحكم والسيطرة إلاّ عمالته لسيده الأجنبي، وكم هناك من مؤتمرات حاول فيها بعض هؤلاء الأقزام أن يقرأوا ما كُتِب لهم بخطٍّ واضح وحروف كبيرة لكنهم كانوا يتعثرون حتى في نطقهم، في حين كان المؤتمر يَعتبر ما قالوا وثيقة مهمة من وثائق الفكر الإسلامي المعاصر!!

ولا ننسى هنا أن نشير إلى أنّ للعمالة درجات، وأنّ الاثمان المقبوضة متفاوتة إلاّ أنّ

بيع ذرة من الدين بالدنيا وما فيها يعتبر بلا ريب من أكبر العمليات الخاسرة. ولنتائج العمالة درجات، فمنها ما لا يتجاوز الإعراض عن ذكر ما يُغضب الحاكمين، والاقتصار على التوعية البعيدة عن تحريك أبناء الأمة ضد الظلم. في حين نجد المظاهر الأخرى تصل إلى حد تسويغ ما يفعله هؤلاء الطغاة حتى ولو كان قد بلغ من الوضوح ما تبلغه الجريمة نفسها. ألا نرى بأمّ أعيننا من يمجّد بعض المدّعين لقيادة الأمة وهو يرى بأمّ عينه ظلمه وفساده وكونه جسراً لعبور إسرائيل إلى العالم الإسلامي.. وما صورة النميري وأمثاله عنا ببعيدة.

والعيّنة المرَضية الأخرى ـ على الصعيد الفكري ـ هذا التكرار الممض للمفكّر دونما إبداع وابتكار لا في مجال الموضوع ولا على صعيد الحلول، والاستنباط.. وأنّه لّما يملأ القلب ألماً ألا نجد من يرفع الخطوة التالية لخطوة رفعها مفكّر كبير هو المرحوم آية الله الشهيد الصدر (قدّس سرُّه) في مجال الفكر الاقتصادي وذلك بالرغم من مرور ربع قرن على هذه التجربة من جهة، والحاجة الماسة لمثل هذه الخطى الفكرية الكبرى.

وأمامنا الساحة الفكرية فلنسر فيها، ولنبصر هذه المظاهر، ونعمل بالتالي على إدانتها بأيّ شكل كانت.

أما نقطة الضعف الأخرى والتي تبدو للعيان فهي مسألة عدم التعامل مع الواقع، والابتعاد ـ إلاّ لماماً ـ عن المشاكل الواقعية للأمة لعوامل كثيرة، منها ما سلف من عدم التعرض لما يغضب السلاطين، ومنها عدم الإحساس بألم الجماهير بعد تمام عملية التخدير، وغير ذلك. وإلا فكم هي الكتابات التي نشهدها من عملاء الغرب في منطقتنا وفي بقية أنحاء العالم؟ وهل من كتب عن الأرضية المناسبة لتطبيق الإسلام كله في إطار وحدة إسلامية شاملة تتناسى الحدود والمصالح الضيقة؟ وهل تتوفر الدراسات الكافية للمبادئ الكافرة التي تسود عالمنا الإسلامي كالقومية، والاتجاه البعثي العفلقي، والماركسية، والأفكار الرأسمالية وغير ذلك، مع أنّها مشاكل يعاني منها جسم الأمة وفكر شبابها الناهض؟

واستطراداً في هذا المجال نجد الفراغ الهائل في الدراسات الجامعية الإسلامية، فأين هي المناهج التي تشبع هذا النهم؟ وهل استطعنا العمل على تلبية هذا الشوق الجامعي

المتطلّع للإسلام وهو واقع قائم لا شك فيه، فماذا نحن في قباله فاعلون؟

وإذا أردنا أن نستمر في عرضنا لنقاط الضعف فإنّنا سنجد أمامنا مثلاً: ضعف العرض وقلة التجديد في ذلك، وإهمال مسألة الإثارة الحماسية القائمة على أساس الفكر الأصيل، وهي جانب قرآني أهملناه في بحوثنا.. وغير ذلك كثير.

ونعود فنكرر ما قلناه آنفاً من أنّ هذه الآفات قد تكون غير عامة ولكنها – على أي حال – تمتلك مواقعها في وجودنا الفكري، الأمر الذي يتطلب نقداً ذاتياً موضوعياً يقوم به كلّ فرد، وكل مجموعة، مستهدفين القيام بالواجب الإلهي التاريخي، عاملين على المواكبة ـ على الأقل ـ لمسيرة تطلّعات الأمة، والتي تطوي المسافات الطويلة لتبلغ الهدف الكبير حيث يكون الدين كله لله، وفي الأرض كلّ الأرض بعونه تعالى، والله على كلّ شيء قدير.

(د)

الخطوط الإعلامية العريضة
لتوحيد العمل التبليغي في العالم الإسلامي

إنّنا نعتقد أنّ للأمة الإسلامية دوراً حضارياً بارزاً، لا باعتبار كونها جزءاً عظيماً من الوجود البشري العام فحسب، بل باعتبار ما تحمله من رسالة إنسانية تعلن أنّها الرسالة المنقذة الوحيدة للإنسانية، الرسالة التي أعدّها خالق البشر لتشكّل المنهاج الفريد لسير الإنسان نحو تكامله الفردي والاجتماعي. وكذلك نؤمن بأنّ الدعوة الإسلامية هي من صميم الواجبات على كلّ مسلم ملتزم بتعاليم الإسلام، وهذه الدعوة لا يحدّها زمان أو مكان، فتشمل كلَّ الأرض على مدى الأزمان إلى أن يأذن الله للساعة أن تقوم.

ونرى أنّ من صميم واجباتنا العمل على طريق إرجاع خصائص الأمة المفقودة إليها، ومن خصائصها المسلّمة أنّها أُمة داعية إلى الله: (**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ**)[1]. كما أنّه من الطبيعي أن يكون لتغيّر الزمان والمكان أثر كبير في تنويع أساليب الدعوة، لا بل وتغيير مضامينها، بما يتلاءم ونوع الهجوم الذي تتعرض له الأمة بأساليب جديدة من قبل أعدائها.

إضافة إلى ما سبق: فإنّ الأساليب غير المدروسة للدعوة ربما تؤدّي إلى نتائج

(١) آل عمران: ١٠٤.

عكسية دونما قصدٍ من أصحابها، في حين نجد عناصر متسلّلة غريبة طرحت نفسها في مجال الإعلام الإسلامي لأغراض دنيئة.

كل هذه الأمور تطلّبت وضع استراتيجية إعلامية للدعوة الإسلامية تركّز بطبيعة الحال على الأهداف والمضامين والعناصر والأساليب والوسائل.

أولاً: أهداف الدعوة الإسلامية

إذا قسمنا المساحات المخاطبة من قبل الإعلام الإسلامي أمكننا أن نطرح الدوائر المتداخلة التالية:

أ ـ الدائرة الإسلامية بما يشمل كلّ المذاهب الإسلامية.

ب ـ الدائرة الدينية بما يشمل كلّ الأديان السماويّة.

جـ ـ الدائرة الإنسانية العامة بما يشمل البشرية.

وحينئذ فمن الطبيعي أن يختلف الخطاب للدائرة الأوسع عنه في الدوائر الأخص منها.

أ) فعلى صعيد الدائرة الإسلامية: يستهدف الإعلام والدعوة الإسلامية ـ فيما يستهدف ـ الأمور التالية:

١ ـ عرْض الإسلام على أنّه عقيدة ومفاهيم وتشريعات واطروحات حياتية تحلّ المشكلات الاجتماعية، وتضمن السير نحو العلاء، وبالتالي تعميق الإيمان في النفوس.

٢ ـ العمل على نشر الأخلاق الإسلامية الأصيلة، ونبذ المفاسد الأخلاقية.

٣ ـ العمل على تحقيق الخصائص القرآنية للأمة الإسلامية، وفي طليعتها مسألة الوحدة الإسلامية والترابط والتوازن.

٤ ـ العمل على تربية جيل إسلامي مؤمن قويّ على أساس من تعاليم الإسلام، يعرف تاريخه، ويدرك واجبه الحضاري.

٥ ـ السعي الجاد لتهيئة الأرضية المناسبة لتطبيق الإسلام على واقع الحياة، مع تنظيم التبادل الحضاري في الحدود الملائمة للشريعة.

٦ ـ توعية المسلمين بالمواقف السياسية والاجتماعية التي يواجهونها وترشيدهم إلى الحدّ الذي تتقارب فيه الرؤى والخطوات العمليّة لديهم جميعاً.

٧ ـ توعية المسلمين بذخائرهم وطاقاتهم المادية والمعنوية لتحقيق التنمية والتوسعة المطلوبة في مختلف المجالات.

٨ ـ العمل على توسعة دائرة معرفة اللغة العربيّة والناطقين بها، وذلك بغية رفع مستوى القدرة على الاستفادة من النصوص الإسلاميّة، وكذلك مستوى شعور الأُمّة بالوحدة الإسلامية.

٩ ـ تحسيس قطاعات الأمة وأفرادها بنقاط الضعف والنقص الاجتماعي والاقتصادي، والعمل الجاد في سبيل تغطية نقاط العجز هذه ـ على الصعيد المحلي والاقليمي والعالمي ـ وتعريفهم بالعدوّ والصديق.

١٠ ـ بعث روح الحماس والعاطفة الإسلامية بين أفراد الأُمّة، ليقوموا بواجباتهم في الدفاع عن مقدّسات الإسلام وقيمه السامية.

ب) وعلى الصعيد الديني العام: يستهدف الإعلام الإسلامي ما يلي:

١ ـ توضيح حقيقة الدين الإسلامي وتصوّراته، لمنع سوء الفهم والتصوّر الخاطئ عنه.

٢ ـ الدعوة إلى كلمةٍ سواء بين أتباع الأديان، وتعبيد الجميع لله، واجتناب كلّ ما يمتّ إلى الطاغوت بصلة.

٣ ـ توضيح بعض الحقائق الملتبسة عليهم، كقضيّة بنوّة المسيح عليه السلام، وحقيقة التوحيد الإبراهيمي، وموضوع هداية الدين للحياة كلّها، وقدسيّة الأنبياء، ووحدة الأديان.

٤ ـ تنسيق الجهود لمحاربة الإلحاد والكفر والشرك.

٥ ـ العمل الجاد لتحقيق موقف موحّد من أيّة إهانة أو تجديف يمسّ الحقائق الثابتة المقدّسة للأديان الإلهية، وخصوصاً تلك المقدسات المشتركة.

٦ ـ السعي لإبعاد الجمعيات الدينيّة عن الانضواء تحت مراكز الظلم والطغيان والاستعمار، بل وجعلها مراكز إشعاع وخدمة لقضايا المحرومين والمستضعفين أفراداً وشعوباً.

٧ ـ الدعوة لتحقيق الوئام والعيش المشترك، ونفي وسائل الخصام والتناحر الديني، وإشاعة روح الحوار المنطقي بين أتباع الأديان.

جـ) وعلى الصعيد الإنساني: يتخلص هدف الدعوة الإسلامية في ما يلي:

١ ـ تنمية الدوافع والركائز الدينية في النفوس.

٢ ـ إشاعة الحس الخلقي الإسلامي، وتحريك الكوامن الأخلاقية.

٣ ـ التعاون المشترك لنصرة قضية المستضعفين والمحرومين، والدفاع عن القضايا العادلة وإدانة الظلم أينما كان.

٤ ـ الدعوة بالحسنى لتفهُّم الدين عموماً ودوره في الحياة.

٥ ـ السعي الجاد لتحقيق مجتمع دولي سليم على أساس من حقوق إنسانية مشتركة.

ثانياً: مضمون الدعوة الإسلامية وخصائصه

وعلى ضوء الأهداف السابقة تتحدّد خصائص المضمون الدعوي الإسلامي على النحو التالي:

١ ـ فهو إعلام قرآني نبوي، يعتمد في أهمّ مصادره على هذين المنبعين الأساسيين، ويعمل على الرجوع إليهما في شتّى المجالات.

٢ ـ وهو إعلام موضوعيٌّ ينأى عن التأثُّر بالمصالح الشخصية والفئويّة والسلطويّة وغيرها، وإنما ينبغي بيان الحقيقة لا غير.

٣ ـ وهو إعلام أخلاقيٌّ يتقيّد بالحدود الأخلاقية، ويتجنّب كلّ ما ينافيها كالكذب وإشاعة الفاحشة وغير ذلك.

٤ ـ وهو إعلام علميٌّ متطور في أساليبه، يعتمد آخر النتائج المتعلقة به، فهي كلُّها من عناصر القوّة المأمور بها في القرآن الكريم.

٥ ـ وهو إعلام عالمي لا تحدّه حدود قوميّة ضيّقة ولا مناطق جغرافية معيّنة.

٦ ـ وهو إعلام مستقلّ لا تؤثّر عليه المصالح القومية والفوضوية والعقلية المحضة، والعمليّة غير المخططة، وعوامل التمويه والتزوير وغيرها.

٧ ـ وهو إعلام واقعي لا يسبح في الفراغ، ويهيم مع الخيال، ولا يطرح حلولاً وهميّة

أو يتعامل مع افتراضات غير واقعية. إنّه يعيش مشكلات الحياة القائمة، ويلاحظ كلّ الامكانات الإنسانيّة المتوفّرة.

٨ ـ وهو إعلام متوازن، يلحظ في حركته مصالح الأمة، ومقتضيات الصدق، والأهداف الإسلاميّة العليا.

٩ ـ وهو إعلام رساليّ يوظف كلّ طاقاته لخدمة الهدف الرسالي، وينأى عن السفاسف، والمواضيع المنحطة والتافهة.

١٠ ـ وهو إعلام مترابط ينظر للحياة بنظرة شاملة، وينسجم مع كلّ القطاعات الأخرى في طرحه للحلول.

١١ ـ وهو إعلام مرن لا يرسف في أغلال الجمود، ولا تجرّه دواعي الانحلال.

١٢ ـ وهو إعلام إنساني لا ينطلق من منطلقات قومية أو فئوية، وإنّما يلحظ العناصر الفطريّة المرتكزة، ويحاول خدمة المجموع العام.

١٣ ـ وهو إعلام عقائدي يشكّل في كلّ أوجهه مدرسة تعليمية تركّز العقيدة وتعمّق جذورها.

١٤ ـ وهو إعلام مربٍّ يعرف أساليب التربية، ويعمل على تقديم النماذج العليا للأمّة، مبتعداً عن النماذج المبتذلة.

١٥ ـ وهو إعلام موحِّد يبتعد عن كلّ ما من شأنه شقّ عصا المسلمين، وتفتيت قواهم، وإرباك مواقعهم.

١٦ ـ وهو إعلام راصد لكلّ تحركات أعداء الأُمة، يعمل على توعية المسلمين بالمخاطر التي تحيق بهم.

ثالثاً: عناصر الدعوة

لا ريب في أنّ من أهمّ عناصر الدعوة الإسلامية حَمَلَتها ودعاتها، وإن كان كلّ مسلم مكلّفاً بمقدار علمه بالدعوة.

وهؤلاء يجب أن يتّصفوا بكثير من الصفات وفي طليعتها:

أ ـ المعرفة الدينية الشاملة للجوانب العقائدية والعملية، وذلك إلى الحد الذي يقربون فيه من الإجتهاد والتخصص، كما أنّ عليهم التعرّف على أفضل الأساليب التبليغية والتمكّن منها، وكذلك معرفة مخاطبيهم على اختلاف مستوياتهم.

ب ـ الإيمان النافذ إلى الأحاسيس فلا يكفي الإيمان العقلي المجرّد، وإنّما ينبغي أن يتمكن الإيمان من النفوس حتى يحرّك المشاعر.

جـ ـ التوفّر على الخلق الإسلامي الأصيل إلى حد رفيع بحيث يجب أن يرتفع عن الحد المتوسط للمسلم العادي في العمل بالمستحبات وترك المكروهات، وينسجم قوله مع عمله تماماً.

د ـ الشجاعة وعدم الخشية إلاّ من الله تعالى.

هـ ـ ترويض النفس على الجهاد والمثابرة وتحمّل المشاق.

و ـ التوفّر على ملكة التعبير الحسن، والتصرّف الحكيم المناسب.

ز ـ إحراز المكانة الاجتماعية التي تؤهّلهم للتأثير في الآخرين.

ح ـ التوفّر على معرفة تاريخية عامة وخاصة للمسلمين، والوقوف على محل الاعتبار والمنعطفات في هذا التاريخ.

ط ـ التعرُّف على أفضل الأساليب التبليغية ومطالعة أحوال الدعوة والدعاة عبر التاريخ الإسلامي.

ي ـ التمتُّع بخصائص التأثير المطلوب من قبيل السماحة والمرونة، النصيحة، التواضع، التدبير والمتانة، التنوّع والتجديد، الاستغناء عن الآخرين، سعة الصدر، الاخلاص، النشاط الدائب، التخطيط، الزهد والحياة البسيطة، والعيش مع المحرومين.

ك ـ الابتعاد عن الصفات المنفّرة، كالتكلّف والتصنّع، والتمويه والتسرّع والإفراط والتفريط، والتعصب والطائفية، والتسلط والنفعية.

ل ـ معرفة لغة المخاطبين.

م ـ المظهر الجذاب والمناسب.

ن ـ التعرُّف على أساليب الحوار والمجادلة الحسنة.

رابعاً: أساليب الدعوة

وهي متنوّعة جداً، إلاّ أنّنا نشير إلى بعضها مستعينين بالقرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة:

أـ الأسلوب الفطري: ونعني به اتّباع أسلوب أو توجيه أسئلة أو حكاية قصص تؤجّج كوامن الفطرة ونزعاتها الفضلى، ممّا يترك أثره العميق في النفوس.

ب ـ التدرُّج: وهو سنّة قرآنية وعمل نبوي شريف، فقد لا يمكن إعطاء الحقيقة دفعة واحدة، وإنّما يحتاج الأمر إلى عامل الزمان الذي يؤهّل كلّ مرحلة لتلقّي تعاليم المرحلة التالية.

ج ـ التكرار والتأكيد والتذكير المتواصل.

د ـ العيش مع الأمة، وتحمّل الخطر والمشاكل معها، والإحساس بآلامها، والتضحية في سبيل أهدافها العليا، ممّا يترك أكبر الأثر في مجال الدعوة.

هـ ـ استخدام أساليب تداعي المعاني، والتبليغ المباشر عبر القصة، والفلم، والمسرحية، والمثل الجميل، والإشارة، وهو أسلوب أثبت نجاحه في مختلف المجالات.

و ـ تقديم النماذج العليا للمخاطبين، لكي يتأمّلوا، ويعملوا على السير نحوها، وتجسيدها في وجودهم.

ز ـ التخطيط لتوفير الأجواء المناسبة للتأثير: من قبيل العمل على حذف سيطرة العقل الجمعي ليفسح المجال للتفكير الهادئ كما في قوله تعالى: (**قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ**)[1].

أو إيجاد جوّ قدسي مناسب كما في مستحبات ليلة القدر.

خامساً: وسائل الدعوة

أ ـ وتدخل في هذا المجال كلّ الوسائل المشروعة التي يمكن استخدامها لتحقيق تلك

(١) سبأ: ٤٦.

الأهداف، كالمطبوعات والمسموعات والمرئيات ووسائل الاتصال بشتى أنواعها.

ب ـ كما تدخل فيه كلُّ العناصر الفنية كالقصة، والمسرحية، والخطّ، والرسم وفنون السينما، والمسارح، والتمثيليات وأمثالها.

ج ـ ومن الأمور التي ينبغي إدخالها في عنصر التبليغ والدعوة بصفتها مراكز رائعة في تحقيق هذا الهدف: مراكز التعليم بشتّى مراحله الابتدائية والمتوسطة والجامعية، والدراسات الكلاسيكية المسجدية وأمثالها.

د ـ ومن أهم وسائل التبليغ: المنابر التي تعقد مجالسها في المناسبات المختلفة، وخصوصاً منابر صلوات الجمعة والحج والعيدين وأمثالها، فهي مناسبات تحمل كلّ العناصر الضرورية لتأثير التبليغ.

هـ ـ وتعدّ الخدمات الاجتماعية أيضاً من أهمّ وسائل الدعوة تأثيراً.

و ـ كما أنّ من وسائل العمل التبليغي تنظيم التشكيلات، والجمعيات، والمراكز الإسلامية، وإقامة المعسكرات الطلاّبية وغيرها.

صفحه سفید

المقال الرابع

الصحوة والغرب

مقدمة

العلاقة بين العالم الاسلامي والغرب بدأت مع ولادة الاسلام، ومطالعة الآيات الأولى من سورة الروم توضّح أنّ المسلمين ـ رغم قلة الاتصالات آنذاك ـ كانوا يراقبون الحوادث العالمية بكل قلق. وعلى الطرف الآخر كان المشركون أيضاً يراقبون. ولم تكن مسألة انتصار الفرس على الروم ـ كما يبدو ـ مسألة يمرُّ بها المسلمون والمشركون بشكل عادي، فيفرح هذا ويحزن ذاك، وإنّما كان انتصار أي طرف يعني رجحان كفة الإيمان أو الشرك مما يكشف عن تصور الصراع على مستوى أوسع من الجغرافيا بلاريب. وهنا يبدأ التحدّي والرهان ـ على ما تقوله بعض الروايات،[1] ويتجلّى صدق الوحي بأنّ الروم ـ وكانوا في معسكر الإيمان؛ لأنّهم من أهل الكتاب ـ بعد أن غلبهم الفرس المشركون سينتصرون في بضع سنين، وهذا ما حدث بإرادة الله تعالى.

ولكن لا الروم ولا الفرس كانوا ليشعرون بما يخبىء لهم القدر من كيان سينطلق من رحم الصحراء ويكبر بعين الله وينقذ الأرض من وهدة الضياع. وربما سمعوا بذلك ولم يكترثوا حتى جاءتهم الأنباء بكبر هذا الوليد الصحراوي، ثم جاءتهم كتب الرسول الأكرم(ص) تطلب منهم الإسلام حتى يسلموا.

فهذا كتاب إلى كسرى ملك الفرس يقول فيه': «ادعوك بدعاية الله فإنّي أنا رسول

(١)راجع مثلاً في تفسير الآيات المزبورة: الدر المنثور عن احمد والترمذي والنسائي وابن ابي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم .

الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن أبيت فعليك لعنة المجوس» وهناك نصوص أخرى.[1]

وراحت الكتب تترى إلى عمّال كسرى.[2]

وهذا كتاب الى قيصر عظيم الروم جاء فيه: «أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنّما عليك إثم الاريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ تعبدوا إلاّ الله ولا تشركوا به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون».[3]

وكذلك توالت الكتب على عمّاله.

واختلفت ردود الفعل، وكان رد الفعل المسيحي أكثر تعقلاً من رد الفعل المشرك، ثم كانت المناوشات وانتهى الأمر كما نعلم إلى هزيمة الامبراطوريتين أمام هذا الكيان خلال فترة وجيزة من الزمان. وكان المدّ الاسلامي الأول سريعاً وكاسحاً أذهل الطرفين، فانهار أحدهما وانحسر الآخر إلى عمقه الاوروبي تاركاً الشام ومصر والمغرب بعد أن حكمها قرابة ألف عام تقريباً ومنذ غزو الاسكندر لها.

وكان التقدُّم هذا مثار إعجاب المؤرخين الكبار من أمثال ثوراستروب وغوستاف لوبون وتوينبي وتوماس ارنولد.

وكانت مقاومة الفرس والروم عنيفة[4] ولكن الإسلام كان بعث في العرب المسلمين ثورة لا تقاوم. واستمرّ التفوّق الإسلامي تاركاً أثره في الغرب. وإن كان الاوروبيون قد سعوا لانكار ذلك والتأكيد على ان اجتياح الشعوب الجرمانية حدود الرومان هي نقطة التحول في التاريخ الاوروبي وليس الاسلام.

يقول الاستاذ أنور الجندي:

(١) مكاتيب الرسول ج ٢، ص ٣١٦ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢، ص ٣٨٨ مثلاً.
(٣) المصدر نفسه ج ٢، ص ٣٩٠ .
(٤) راجع كتاب حركة الفتح الاسلامي للاستاذ شكري فيصل .

«ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها. وكان ما حدث أن انتقل مركزها من روما الى بيزنطية وأصاب حالتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد.

ولكن لم تهبّ ثورة الإسلام وتسير كتائبة الى أراضي الرومان حتى تلاشى كلّ ما كان لها من معالم وآثار وكأنها كانت رماداً ذرته الرياح. وقامت دولة جديدة، وظهرت حضارة جديدة حاصرت اوروبا من الشرق والجنوب... فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة... ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول اوروبا الحديثة».[١]

ورغم أنّ بعض المؤرخين الاوروبيين يمجدون معركة بواتيه التي قادها شارل مارتل وأوقف زحف المسلمين عام ٧٣٢م (١١٤هـ) ويعتبرونها نصراً لاوروبا إلاّ أنّ الآخرين منهم يعتبرونها من أشأم الفواجع في القرون الوسطى ـ كما يقول كلود فاير ـ حيث تقهقرت اوروبا ثمانية قرون.[٢]

وبعد عشر سنوات من سقوط طليطلة (١٠٥٨م) شنت الحروب الصليبية لمدة قرنين (١٠٩٩م – ١٢٩٥م) فدمّرت الأخضر واليابس، ولكن اوروبا اكتسبت الكثير من هذا التلاحم ممّا شكل سر بدء نهضتها في القرن الخامس عشر (أي بعد ٣ قرون).

والطريف أن نجد من الكتّاب الاوروبيين المحدثين من يعترف بأنّ الإسلام شكل العامل الخارجي للنهضة الاوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي فليكن الغرب اليوم العامل الخارجي لنهضة العالم الاسلامي في القرن الخامس عشر الهجري![٣]

وبينما كانت اوروبا تمرُّ بظلمات القرون الوسطى (من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر) كانت الارض الاخرى مشرقة بالاسلام، في الشرق بل في جزء من اوروبا، أي الاندلس.

(١) الإسلام والعالم المعاصر، ص ١٣٠ .

(٢) المصدر نفسه، ١٣٢ .

(٣) بيدهام برايان في الايكونومست اللندنية سنة ٩٤ .

وفي عام ١٠٩٩ بدأت الحروب الصليبية وبتحريك من الكنيسة، وجرت فجائع يندى لها جبين الإنسانية. وهي وإن عبّرت عن حقد وتعصّب، ولكنها تعبّر عن تسرّب الخوف الكبير للغرب من الإسلام الحضاري الزاحف، فليس صحيحاً ما تقوله السيدة هانتر من أنّ الغرب بدأ يشعر بذلك منذ سقوط (غاليبولي) بيد الأتراك عام ١٣٥٩م، بل سبق هذا الخوف الحروب الصليبية نفسها.

وكان دخول الإسلام الى الاندلس في عام ٩٢–٩٥هـ (٧١١–٧١٤م) بدء الإشراقة في اوروبا لا في الاندلس فقط، ودام ثمانية قرون (حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢) لتبدأ معه النهضة الاوروبية، ورغم أنّ الإسلام خسر الاندلس فإنّه اقام في افريقيا امبراطورية مالي وامبراطورية كادا في نفس القرن.

وهكذا تداول الغرب والاسلام القوة والغلبة.

ويعتبر الاستاذ سمير سليمان[١] أنّ الهجوم الغربي الثاني بدأ عام ١٧٩٢م عند نزول نابليون الاسكندرية وتوالت الحملات وأهمها:

ـ عام ١٨٠٠ سيطرة الهولنديين على اندونيسيا.

ـ ١٨٣٠ سيطرة فرنسا على الجزائر.

ـ أواخر القرن التاسع عشر: سقوط القوقاز وتركستان على يد الروس.

ـ ١٨٥٧ سيطرة بريطانيا على الهند.

ـ ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس.

ـ ١٨٨٢ احتلال الانكليز لمصر.

ـ ١٨٩٢ احتلال الانكليز للسودان.

ـ ١٩١٧ دخول الحلفاء بيت المقدس وبدء سقوط العثمانيين.

ـ ١٩١٨ تحقق السيطرة شبه التامة للانكليز والفرنسيين على العالم الاسلامي.

ـ ١٩٢٤ سقوط الدولة العثمانية.

(١) الاسلام والغرب، ص ٣٤ (كتاب التوحيد).

ـ ١٩٤٨ انشاء اسرائيل.

هذا الهجوم الكاسح أغرق العالم الاسلامي في حالة من الذهول ولكن بدأت ردود الفعل القوية، وهكذا لاحظنا ردود الفعل التالية:

ـ عام ١٨٣٠ بدء ثورة الجزائر .

ـ (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) حركة الإصلاح التي قادها الأسدآبادي (الافغاني) وعبده والكواكبي.

ـ ١٨٣١ الحركة السنوسية في ليبيا.

ـ ١٨٥٧ ثورة المسلمين في الهند.

ـ ١٨٨٢ الثورة العرابية في مصر.

ـ ١٨٨٩ الثورة السودانية.

ـ ١٨٩٥ ثورة المشروطة الايرانية.

ـ ١٩١٩ الثورة المصرية.

ـ ١٩٢٠ ثورة العشرين في العراق.

ـ ١٩٢٤ الثورة السورية والسودانية.

ـ ١٩٢٤ الثورة الخطابية ثورة الريف.

ـ ١٩٣٠ ثورة عمر المختار في ليبيا.

ـ الثورة الاسلامية في الهند الشرقية وتركستان والقوقاز (ثورة الشيخ شامل) والعمانيين والسواحليين.

ـ ثورات المقاومة الايرانية ضد المحتلين والعملاء في مطلع القرن العشرين من قبيل: ثورة تنجستان في الجنوب وثورة الغابة في الشمال.

ـ ١٩٣٥ الثورة الفلسطينية.

إلى جانب ردود الفعل هذه ـ وكانت تختلف أحيانا في الأهداف والمناهج ـ نجد أنّ الغرب الذي استطاع أن يقضي على الوجود الإسلامي السياسي بسقوط الدولة العثمانية الذي نعده الكارثة الكبرى عام ١٩٢٤ نجد الهجوم الثقافي الغربي يتعاظم، والتصريحات

الصليبية الجديدة تطرح بوضوح ضد الاسلام (ولعلها لم تنقطع لحد الآن وإن اختفت أحيانا) وكان كتاب اللورد كرومر المنتشر عام ١٩٠٨ الوجه الصارخ لهذا الهجوم، حيث زعم فيه أنّ الاسلام قد مات، أو أنّه على ابواب الموت ولا يمكن أن تعيد إحياءه الاصلاحات؛ لأنّ الموت كامن في جوهره الذي يركّز على تخلّف المرأة وجمود الشريعة فينبغي للعالم الاسلامي كي يساير التطور أن يقبل التحديث بدون الاسلام[١] وهي نظرة تمثل نظرة المستشرقين الجدد كما تسميهم هانتر وترى أنّهم يتّفقون على أنّ الاسلام بطبيعته لاينسجم مع الحداثة وبالطبع مع التغريب، وتصفهم بأنّهم «جبريون ثقافيون يعتقدون أنّ المسلمين يفكرون ويتصرفون وفق طرائق معينة لأنّهم مسلمون.. وأنّ الطريقة الوحيدة التي يسع الغرب التعامل بها مع الظاهرة الاسلامية هي المقاومة والقمع والاحتواء وينصحون بمساعدة الغرب لتلك الحكومات المسلمة التي تقاوم إسلاميها حتى يزالوا أو يخضعوا كلياً..».[٢]

وبدأ التراجع الفكري الاسلامي بإبداء محمد عبده روحاً مهادنة تجاه كرومر[٣] وقد تلقف هذه المهادنة الفرع العلماني من مدرسته كلطفي السيد وسعد زغلول وطه حسين واسماعيل مظهر وبالتالي وصل الى ما يقرب من نظرة كرومر. ولا نعدم في أنحاء العالم الاسلامي عناصر من قبيلهم عاصرتهم وطرحت أفكارهم، وقد ساعدتها في ما بعد المدرستان القومية والماركسية اللتان نشطتا في المنطقة الإسلامية في أواسط القرن العشرين.

وإلى جانب هذه النظرة العدائية المعادية من قبل الغربيين للصحوة الاسلامية كانت هناك نظرة استشراقية أخرى تطلق عليها هانتر اسم (العالم ثالثيين الجدد) وتؤمن بأنّ الحاكم في العالم الاسلامي هو (القيم والمصالح معا) وبالتالي فمن الممكن تصور تصالح بين العالمين الاسلامي والغربي وهي تؤيد هذه النظرة.

---

(١) وقد الف الشيخ الغلاييني كتابه (الاسلام روح المدنية) للرد عليه وصدر في نفس العام .

(٢) مستقبل الاسلام والغرب، ص ٩٥ وسنركّز في ما تبقى من حديث على هذا الكتاب .

(٣) محمد جابر الانصاري في مقاله المنشور في (ثقافتنا)، ص١٥٣ العدد الاول نقلا عن محمد محمد حسين.

والحقيقة أنّ القيم الإسلامية إنّما ترفض الجانب المعادي للانسانية في الغرب كالتحلل الجنسي، واستغلال الشعوب، ورفض الحياة الخلقية، والكيل بمكيالين، والعمل على محو الثقافات الاخرى، والاستعمار بشتّى ألوانه، وأمثال ذلك، وفيما عدا ذلك فإنّ هناك نقاط التقاء كثيرة ونقاط تقبل الحوار.

ثم أنّ المصالح لاتشكّل مساحة ترفضها القيم، فالقيم في الواقع إنّما تعمل على تحقيق المصالح الإنسانية السامية.

وعلى أي حال، فقد سعى الغرب بشتّى الوسائل لقهر وجود الامة عبر هجومه العسكري والثقافي والتسللي من خلال عملائه أو المنبهرين بحضارته لضرب القوة الاسلامية بعد قضائه على الدولة العثمانية، ولما لم يجده الاستعمار المباشر لكل المنطقة الاسلامية تقريبا راح يجرّب فكرة إعطاء الاستقلال الشكلي مع العمل على مسك أزمّة الامور بيده، وهنا شهدنا مولد الدول أو المجموعات المحدودة والتي تعتمد فكرة الأساس القومي أو الجغرافي ممزّقاً بها جسد الامة الاسلامية الواحدة، ومحققاً هدف الاستعمار.

ولكن هذه الحالة سرعان ما أثبتت أنّها لاتحقق للغرب هدفه، ولم تلبث إلاّ قليلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى رحنا نشهد تنامي الحس الشمولي الاسلامي وقيام المؤسسات الاسلامية الشمولية، وخصوصاً عند المنعطفات الحساسة من قبيل احراق المسجد الأقصى الذي أدّى الى إشتعال الغضب الاسلامي، ونجاح الثورة الاسلامية في ايران في القضاء على النظام الرجعي العميل للغرب، وانتصار المجاهدين الافغان على القوة الروسية العظمى، وأخيرا انهيار القوة الإلحادية الكبرى وانعتاق الشعوب الاسلامية المحتلة، ممّا أوجد فكرة إسلامية شمولية ضخمة اضطرّ الغرب معها الى تغيير استراتيجياته.

وقد فوجئ الغرب بهذه الظاهرة العارمة ـ ظاهرة الصحوة الاسلامية ـ وراح يحللها بوسائله وتصوراته ليكتشف نقاط القوة والضعف فيها، ومن ثم يعمل على مواجهتها إذن من المهم أن تحدد الأسباب الأساسية للظاهرة الاسلامية وأبعادها المعادية للغرب وأن

تقوم في شكل صحيح وأن يتم تبنّي السياسات الملائمة للتعامل معها[١] وسوف نركّز على نموذج من الرؤى الغربية فيما يلي:

مع كتاب (مستقبل الاسلام والغرب) لشيرين هانتر

لكي نقف ولو بشكل سريع على هذا الكتاب علينا أن نعطي لمحات عن مسيرة البحث فيه على النحو التالي:

١ ـ تبدأ الكاتبة بالحديث عن رواية ضابط بريطاني ألفها عام ١٩١٦ على فرضية قيام ثورة اسلامية، من شأنها – اذا ما اندلعت – أن تقلب مجرى الحرب العالمية الاولى وهو يعلن: أنّ الشرق في انتظار إشارة إلهية.

ثم تذكر أنّ (كراوثمر) عبّر بعد ٧٥ عاماً عن مخاوفه من أنّ اميركا تواجه الخطر الاصولي الاسلامي.

٢ ـ وتقرّر أنّ اوروبا كانت تواجه همّ الخطر الاسلامي منذ سنة ١٣٥٩ بسقوط غاليبولي بيد الاتراك وتعرج على الخوف الذي استولى عليه بظهور الامام الخميني(رحمه‌الله).

٣ ـ وتتحدّث عن الصراع القائم في الغرب بين الدين والعلمانية، وتعلن أنّ الفصل بين الثقافة والايديولوجيا هو فصل زائف.

٤ ـ ثم تذكر أنّ ميزات الاسلام تجعله خصماً حضارياً باستمرار للغرب.

٥ ـ وتركّز على دور النفط في إذكاء الصراع، الأمر الذي لايتصور عند الاصوليين الهنود، ولذا فلا يقلق الغرب كثيراً لنموّ هذه الاصولية.

٦ ـ وتؤكد على كون الإسلام لايمكن أن يهزم كما هزمت الاشتراكية والنازية.

٧ ـ ثم تميز بين الاسلام (الشخصي) فهو جيد والاسلام (الحضاري) فهو سيّئ، وترى أنّ الخطر كله آتٍ من الاسلام المقاتل.[٢]

---

(١) مستقبل الاسلام والغرب، ص ٩٩ (الترجمة العربية للسيدة زينب شوربا).

(٢) هذا التعبير ورد في متن الاستراتيجية الاميركية التي نشرت عام ١٩٧٩، وأكّدت على ضرورة محاربة الإسلام المقاتل وتقصد به الاسلام السياسي.

٨ ـ ثم تعلن أنّ كلّ الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الاسلامي وفيها يكمن التطور.

٩ ـ وتؤكّد كون الحل الوسط يكمن في قبول الغرب بدور الدين في الحياة وقبول العالم الاسلامي بالعلمنة.

١٠ ـ ثم تقول: إنّ السبب الحقيقي في الصراع هو توازن القوى، فالمسلمون ينكرون السيطرة الغربية على مقدّراتهم، والغرب ينكر عليهم تحدّيهم لتفوّقه.

١١ ـ ثم تتحدّث عن دور الايديولوجيا في المجتمع باعتبارها تخدم القوة وأنّ التضحيات الكبرى تحتاج لمبرر ايديولوجي، وترى أنّ القيم الغربية لايؤبه بها إذا لم تخدم المصالح.

١٢ ـ وتعود فتؤكّد أنّ النظام السياسي الاسلامي غير واضح في الكتاب والسنّة. كما تؤكّد وحدة الدين والسياسة ومفهوم الامة عند المسيحية واليهودية سعياً منها لتحقيق التقارب باعتبار أنّ المجتمع الاسلامي يقبل العلمنة (وإن كانت تعترف بكون النظام الإلهي والعلمنة لايجتمعان) وحينئذ لاحتمية للصراع.

١٣ ـ وتؤكّد أنّه لاتوجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الاسلام. ولكنها تنتقد من يسطّح موقف الاسلام، ثم تعود لتؤكد أنّ الاسلام توسّعي معاد للآخرين باعتباره يريد أن يحكم العالم، ساخرة من هانتينغتون الذي يرى أنّ المسلمين لايعرفون منطق المساواة.

١٤ ـ ثم تركّز على حكم (الجهاد) فترى أنّه يتنافى مع مبدأ (**لا اكراه في الدين**) ولكنها تخفّف منه؛ لأنّه مبدأ دفاعي، وتقترح على المسلمين أن يرجئوا الهدف العالمي.

١٥ ـ وتنتقد التصوّر الغربي للاسلام ورؤيته للعالم، وتؤكّد أن المسلمين يتعاملون ككتلة واحدة فيجب التعامل معهم كذلك.

١٦ ـ وبعد أن تتحدّث عن مهارة الرسول’ في التعامل مع أعدائه تتّهم المسلمين في صدر الإسلام بأنّ دوافع اندفاعهم لم تكن عقائدية فقط، تماماً كما هو الحال في الحروب الصليبية.

١٧ ـ وتؤكد أنّ التمزّق الذي يعيشه المسلمون حوّل مفهوم دار الاسلام من مفهوم سياسي الى مجرد مفهوم ديني، وأنّ الدعوات الى الوحدة الاسلامية لاتجد لها صدىً اليوم.

١٨ ـ كما تذكر كون ممارسات المسلمين ضد حقوق الانسان لاعلاقة لها بالاسلام.

١٩ ـ وتعتبر حركة الإحياء الإسلامي هي المسبِّبة لصراع الحضارات. وترى أنّها بدورها معلولة لخصائص الاسلام.

٢٠ ـ وتتعرّض الى فكرتي علاقة الدين بالسياسة، وكيان الامة الاسلامية، فتعتبرهما اسطورتين، وترى أنّ الامة الاسلامية لم تقم لها قائمة منذ وفاة النبي’، إلاّ أنّها تؤكد كون هاتين الفكرتين ساهمتا في وجود حركة الصحوة (كتعبير عن دور عنصر القيمة) الى جانب عوامل أخرى كانقسام المجتمعات، وتهميش العناصر الاسلامية، وجهود التقليديين لتغيير معادلة القوة (كتعبير عن عنصر المصلحة).

٢١ ـ ومن هنا فالصراع مع الغرب ليس حتمياً؛ لأنّه لايعتمد على العنصر القيمي فقط كما يقول (الاستشراقيون الجدد) الذين يدعون نتيجة دعواهم هذه الى قمع العالم الاسلامي، وهؤلاء من أمثال (كرامر) الذي يوجّه نقداً لاذعاً للرئيس كارتر؛ لأنّه سمح لظهور ظاهرة (آيات الله)، ومثله برلمونز. ويقف في قبال هذا التفسير من تسميهم بـ (العالم ثالثيين الجدد) من أمثال (بورغات) الذين يقبلون وجود العنصرين (القيمة والمصلحة) في مجال تنظيم العلاقة ومن هنا فهم يدعون للتصالح، وهي تؤيدهم في ذلك.

٢٢ ـ وترى أنّ عوامل النهضة الإسلامية تتمثّل في:

تمزّق عوامل النسيج الاجتماعي القائم في القرن الثامن عشر وبالتالي تحوّل العلاقة من علاقة ندّيّن الى علاقة مسيطر ومسيطَر عليه. ممّا خلق اتجاهين متخالفين، اتجاه العودة للاسلام اما بشكل حرفي كالاتجاه السلفي أو بشكل مرن كمدرسة إقبال وسير سيد أحمدخان والمرجاني وغيرهم.

٢٣ ـ وفي صدر تقييمها للأفغاني وعبده وهل هما إصلاحيان أو منافقان تعمل على ترجيح الجانب السلبي استناداً للجواب الفاتر للأفغاني على هجوم (رينان) على الاسلام

باعتباره خرّب الحضارتين السابقتين عليه، وترى أنّه أي الأفغاني استخدم (التقية) في ذلك.

٢٤ ـ وتذكر أنّه على الصعيد السياسي بدأ الزعماء من منتصف القرن التاسع عشر بالتحديث: أمير كبير في ايران، العثمانيون في تركيا، محمدعلي في مصر، الثورة الدستورية في ايران ١٩٠٥م، ثم ثورة التحديث التركية، وتعقّب بأنّ الاصلاحيين المسلمين واجهوا العلمانيين والتقليديين معاً.

٢٥ ـ وانتصر العلمانيون انتصاراً زائفاً في الفترة ما بين ١٩٢٠ و١٩٧٠، حيث فرضت العلمانية فرضاً على المسلمين، وحدث التشظّي الثقافي والصراع التحالفي فتارة يتحالف القوميون مع الاسلاميين ضد اليساريين، واخرى يتحالف اليسار والاسلاميون ضد التقليدين، وثالثة يثور النزاع بين خريجي الجامعات الغربية ودارسي اللغة العربية، ولكن التحديث فشل في مسعاه، وعاد التمسك بالاسلام باعتباره هو الحل.

٢٦ ـ وترى أنّ الثورة الاسلامية استفادت من خصائص الدين لتحريك الجماهير ولكنّها لم تحقق الطموحات فعادت تواجه حقيقة مهمة هي انفصال الدين عن السياسة.

٢٧ ـ وبعد أن تتعرض لآراء الدكتور سروش في النسبية وتشبهها بآراء سير سيد أحمد تقول: إنّ هذا يعني كون الاسلام يقبل الاصلاح.

٢٨ ـ ثم تتحدّث عن العوامل الخارجية للصحوة من قبيل: قيام اسرائيل، هزيمة ٦٧، الثروة النفطية، هزيمة السوفيت في افغانستان، نجاح الثورة الاسلامية في ايران، ولكنها تقول: إنّ قبولها بوقف الحرب عام ١٩٨٨م أحبط الآمال.

٢٩ ـ ثم تعود فتقول: إنّ الغرب يعادي الصحوة؛ لأنّها تكتنز عداء له، نتيجة سياساته هو لا نتيجة أنّ الاسلام بخصائصه يعادي الغرب.

وتذكر أنّ أمثال برنارد لويس ودانيال بايبس من المستشرقين الجدد يرجعون عداء الصحوة الاسلامية للغرب الى الخوف والحسد، وتنتقد هذا الرأي وإن كان فيه شيء من الواقعية تماما كما يحسد الغرب اليابان والصين، في حين رأى آخرون أنّ الحقد الاسلامي ناتج من سياسات الغرب، ولذلك يشارك العلمانيون المسلمين في هذا الرأي.

٣٠ ـ وتقول بعد ذلك في صفحة ١٤٨: أظهر هذا النقاش بوضوح أنّ نشوء الظاهرة الاسلامية كان الى حد كبير جزءاً لايتجزأ من تطور التجربة الاسلامية في سياقاتها الزمانية والمكانية المتنوعة. فهي شأنها شأن الأوجه الأخرى للتجربة الاسلامية أتت مرتبطة بالتطور والتحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي للمجتمعات الاسلامية، وديناميات مجابهتها للعالم غير الاسلامي وللقوى والافكار الصادرة عنه.

إنّ المرحلة التالية قد تكون بالفعل علمنة أكبر المجتمعات الاسلامية وحركة باتجاه توليفة بين التعاليم الاسلامية والمفاهيم الغربية.

٣١ ـ وتدخل بعد هذا في السياسة الخارجية لبعض البلدان الاسلامية لتثبت أنّ الاسلام ليس وحده الدخيل في تنظيمها،ولتستنتج النقاط التالية ـ باختصار ـ :

أ) سيبقى تأثير الاسلام قليلاً في سلوك الدول الاسلامية ويستبعد أن يكون للمسلمين كيان موحد.

ب) ستختلف علاقات هذه الدول مع الغرب من متوترة الى ودية.

جـ) لن تحل علمنة العالم الاسلامي كلّ المشاكل، وإن كان لها التأثير الكبير، ما دامت هناك مصادر أخرى للخلاف؛ كسعي البلدان الاسلامية في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب.

د) ستتوازن العلاقة مع الغرب مع مستوى تعاطفه مع القضايا الاسلامية ولكن المصالح الدنيوية لكل دولة أيضاً ستؤثر على علاقاتها .

هـ) وستبقى المنافسة بين الدول الغربية نفسها في مجال بسط النفوذ .

و) أنّ احتمال تكوّن قدرة منافسة للغرب سوف يزيد من تحديات المسلمين، في حين أنّ فقدان احتمال تكوّن هذه القدرة ربما ينتج موقفاً أكثر تساهلاً.

هذه خلاصة لبعض الافكار الواردة في هذا الكتاب.

نظرة نقدية

وينبغي لنا بعد إجراء مسح فاحص أن نطرح النقاط التالية:

النقطة الاولى

قبل كلّ شيء نرى لزاماً علينا أن نذكّر بجرأة الكاتبة في الاعتراف ببعض الحقائق المرّة لدى الغربيين من قبيل:

أ ـ تقرير حقيقة كون الإسلام لا يمكن أن يهزم من خلال انتصارات عسكرية وأمثالها كما هزمت النازية والاشتراكية وأمثالهما.

ب ـ أنّ الايديولوجيا لايمكن أن تفصل عن الحياة الاجتماعية، ذلك لأنّ المسألة الاجتماعية يجب أن تقام – ولو بشكل لا شعوري – على المسألة الفلسفية وإلاّ عادت بلا هدف ولا مبررات.

جـ ـ كون الغرب لا يأبه بالقيم التي يدّعيها – كالديمقراطية وحقوق الانسان – اذا لم تخدم مصالحه.

د ـ أنّ العلمانية لا تجتمع مع النظام الديني حتى ولو كان مستمداً من المسيحية أو اليهودية.

هـ ـ كون الذين ينظرون الى رؤى الاسلام بسطحية هم سطحيون .

و ـ السخرية من هنتينغتون عندما يقول: إنّ الإسلام لايعرف المساواة .

ز ـ التفريق بين إيمان الاسلام بحقوق الانسان وعمل المسلمين.

ح ـ الاعتراف بأنّ العلمانية فرضت فرضاً على العالم الاسلامي .

ط ـ كون الغرب قد ينطلق من مواقف أخلاقية منحطة كالحسد والحقد وأمثال ذلك.

النقطة الثانية

تتصور الكاتبة أنّ الأمر يدور بين المواقف المبنية على القيم الاسلامية فلا يمكن التصالح والمواقف المصلحية ـ فهناك إذن مجال للحلول الوسط ـ ولكن الحقيقة هي أنّ الاسلام:

اولاً: يعتبر المصلحة المنسجمة مع مقاصده قيمة بنفسها، ولربما قدّمها على كثير من أحكامه في بعض الأحايين.

ثانياً: يمتلك عناصر مرنة كثيرة توفّر للامة القدرة على استيعاب المتغيرات الزمانية والمكانية والخروج من الطرق المسدودة من قبيل امتلاكه مراتب من الأحكام الاولية والاضطرارية والحكومية، ولكل منها خصائص ومجالات معينة كالمنطقة المفتوحة للحاكم الاسلامي ليملأها وفق ما تقتضيه المتغيرات.

على أنّنا لا يمكننا أن نجعل السلوك الغربي المتوحش أصلاً تسعى إليه البشرية، وهدفاً عاماً ويعتبره فوكوياما (نهاية التطور التاريخي) ونطلب من الاسلام أن يكيّف نفسه دائماً معه تحقيقاً للتعايش تماماً كما يطلب من الفلسطينيين التنازل عن الأرض والكرامة وحتى حق مقاومة الاحتلال لاحلال السلام والتعايش.

وهذا منهج نشهده لدى الكتّاب الغربيين وأتباعهم لدينا، فأنت تشهدهم يجعلون الغرب معيار التقدم والحداثة ويبقى على العالم الاسلامي إذا أراد التطور أن يكيّف نفسه مع ذلك.

فالمسلك الصحيح هو أن يقوم المخلصون لمستقبل الانسانية بتقييم السلوك الأمثل أولاً، ثم يطلب ممّن لايذعن له أن يمتثل للحق، وهذا منهج إنساني يقتضيه المنطق ويؤيّده القرآن في مجالات الاصلاح.

النقطة الثالثة

إذا تتبعنا التحليلات والحلول والتصريحات الغربية الممتدة على خط الزمان وعلى مختلف المستويات نجد أنّ الهاجس الأكبر لدى الغرب هو هاجس تقديم الاسلام البديل الحضاري المتميز ذي الطابع القيمي اللامنسجم مع القيم الغربية، والذي يحمل في ذاته عنصر البقاء والنمو المتواصل، والحفاظ على الذات، ومنع الآخر من الاستغلال. وبالتالي سقوط النموذج الغربي، وانهيار التفوّق الحضاري للرجل المسيحي الاوربي الابيض. وهذا الهاجس ملاحظ في كلمات السياسيين كتشرشل، وديغول، وبرلسكوني وبوش وامثالهم وفي كلمات المؤرخين كتوينبي والفلاسفة كهانتينغتون وفوكوياما وبرايان وغيرهم.

وتدخل أمور كثيرة في هذه الدائرة من قبيل:

– تصريح الجنرال غلوب باشا الشهير: «بدأت مشكلة الشرق الأوسط منذ القرن السابع».

– تصريحات نيكسون التي عبّرت عن ايران قبل الثورة بأنّها جزيرة الأمان.

– كلمات برلسكوني رئيس وزراء ايطاليا التي رجّحت الحضارة المسيحية على الحضارة الاسلامية.

– تصريحات المدّعي العام الأميركي في عهد بوش الابن والتي تقارن بكل غباء بين صورة الإله في المسيحية والذي يقدم نفسه فداء للبشرية، وصورة الله الاسلامية الذي يطلب من البشرية أن تقدم أبناءها فداء له.

– تخوّف بعض الدول الغربية كفرنسا من عودة الحجاب الاسلامي كرمز للصحوة.

– تصريحات بوش التي فطن لسخافتها فلم يكررها والتي تؤكد أنّ ما يسميه بالحرب ضد الارهاب هي حرب صليبية.

– التصريحات المتوالية التي تعتبر الاسلام مارداً نائماً في الشرق الاوسط (من قبيل ما جاء في وصية ديغول، وما ذكرته الصحف الاوروبية كالتايمز في عددها المؤرخ ١٩٨٧/٤/٢٩).

– ما ذكره ريتشار بيرل مستشار البنتاغون الذي تصفه الديلي تلغراف بالمفكر الديني، وديفيد فرام وهو كاتب خطابات بوش في كتابهما (دليل الانتصار في الحرب ضد الارهاب) من أنّ الأُصولية الإسلامية هي أكبر داعم للارهاب فيجب استهدافها.

وقامت الدراسات الغربية بتشجيع من أسموهم (دعاة التحديث المؤيدين للغرب) بقوة ومنها دراسة قام بها معهد (راند لأبحاث الرأي) في أميركا داعية لحذف الاصوليين والتقليديين المخالفين للقيم الغربية (نقلاً عن صحيفة الخليج الاماراتية العدد ٩٠٧١).

ومن هذا الهاجس الذي تعاظم في الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن الماضي انطلقت فكرة الاستراتيجية الامريكية الجديدة عام ٩٧ بل من هذا الهاجس جاءت

التصرفات الغربية الكبرى طوال القرون الأخيرة إن لم نمتد بها الى مدىً أبعد، ومنه أيضاً جاءت العولمة التي تعني في الواقع غربنة العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية أو أمركتها، وركوب موجة الاتجاه العالمي الطبيعي من الكثرة الى الوحدة في مختلف المجالات.

هذا الهاجس الذي تعبر عنه الكاتبة بالحسد أحياناً دفع الغرب لفرض واقع **التخلف** بشتّى انواعه **والتمزّق والعلمنة** على العالم الإسلامي.

أما التخلف فحدّث عنه ولا حرج سواء أكان في المجال العلمي أو الاقتصادي أو العسكري أو الثقافي أو الاجتماعي. وواضح أنّ الغرب لم يسمح إلاّ بالنزر القليل من التقدم إبقاءً على ادعاءات التحضير الانساني.

ولا نريد هنا أن نقلّل من تقصير المسلمين في هذا المجال، ولكن من غير المشكوك فيه أنّ السعي الغربي كان على أشدّه في مجال إبقاء التخلف وتعميق الفوارق بين المستوى الغربي ومستوى العالم الإسلامي بأساليب متنوعة.

وربما نجد البعض من المنبهرين بالغرب يعتبر تقدم البلاد الاسلامية بدأ مع حملة نابليون (١٧٨٩) متناسين ما جرّت علينا من اغتراب ومحوٍ للهوية التربوية والتعليمية والإعلامية وترويج للعلمانية وبالتالي احتلال الأرض الاسلامية التي لم تكن قد احتلت بعد.[١]

وأمّا التمزّق فإنّ للغرب دوره الأكبر في إيجاده الى أقصى حد إمّا مباشرة أو من خلال المتأثرين بفكره. ويلاحظ من كلمات الكاتبة مدى التوجّس من التوحّد حتى أنّها تقرّر في نهاية كتابها أنّ الوحدة الاسلامية والكيان الاسلامي الموحّد أمر بعيد المنال في المستقبل، بل إنّ مجرد ظهور شعور بالاسلام الشمولي وظهور الدعوات الأولية للمنظمات الشمولية في العالم الاسلامي في النصف الثاني من القرن الماضي قلب الموازين الغربية فراحوا يحسبون له ألف حساب، ومن حساباتهم تفريغ هذه المنظمات من محتواها

(١) راجع الدراسة العلمية الجيدة للدكتور جلال امين في كتابه (العولمة والتنمية العربية ـ الفصل الاول).

وابقاؤها على مستوى الاشباع الشكلي والعاطفي لجوعة عارمة ورغبة جماهيرية لاتقاوم للوحدة الاسلامية.

ويتخذ التمزّق هذا أشكاله المتنوعة، فهناك تمزّق على أساس القومية، وآخر جغرافي وثالث لغوي، ورابع في الولاء، والخامس في المستوى المعيشي، وهلم جرّا.

والكاتبة تعتبر أنّ عملية تمزق النسيج الاجتماعي للعالم الاسلامي شكّلت أحد عوامل الصحوة الاسلامية والدعوة الى العودة للاسلام دون أن تتحدّث عن الدور الذي لعبه الغرب في القضاء على الدولة العثمانية ونشر الفكر القومي الضيق، وايجاد الخلافات بين الكيانات المصطنعة وأمثال ذلك.

وأمّا العلمنة فهي الداء الوبيل الذي ضرب عالمنا الاسلامي واستطاع الى المدى الأكبر أن يسيطر على مجمل أرجائه . وقد شجّع الغرب العلمنة بشتّى الأساليب حتى أنّ الكاتبة اعترفت بأنّها فرضت فرضاً خلال الاعوام ١٩٢٠ – ١٩٧٠ وأنّها لم تحقق المقصود، وذلك طبيعي؛ لأنّ العالم الاسلامي مهما ابتعد عن الاسلام وأحكامه فإنّه يبقى إسلامي النفس والنبرة والأحاسيس.

فإذا ضممنا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنّ الاسلام دين الحياة ولايمكن فصله عن جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهي حقيقة يحاول الكتّاب الغربيون بل وحتى السياسيون الى اليوم إنكارها، وهذا ما وجدناه في حديث كولن باول وزير الخارجية الامريكية بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٣م وهو ما يركّز عليه العلمانيون في عالمنا الاسلامي بل يعملون على منحه أبعاداً فلسفية، ونحن نجد الكاتبة تعمل جاهدة في هذا الكتاب على أن تجعله الحل السحري للصراع، فكل الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الاسلامي، والنظام السياسي غير واضح في الكتاب والسنّة، والمجتمع الاسلامي يقبل العلمنة فلا حتمية للصراع، ولا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الاسلام، ومبدأ الجهاد يتنافى مع مبدأ نفي الإكراه في الدين، والاتجاه العالمي للاسلام يجب أن يتخلّى عنه المسلمون، وحركة الإحياء الاسلامي التي ترفض العلمنة يجب ان يرفضها المسلمون؛ لأنّها هي سبب الصراع بين الحضارات، وأنّ على العالم الاسلامي أن يروّض

قيمه وفق مصالحه، وأنّ مسألة انفصال الدين عن السياسة هي حقيقة واجهتها الثورة الاسلامية في ايران ولم تستطع التغلب عليها، وأنّ الأفكار الاصلاحية النسبية للدكتور سروش تعني أنّ الاسلام يقبل الاصلاح (وبطبيعة الحال العلمنة)، وأنّ التوليفة بين الإسلام والغرب تتم من خلال علمنة أكبر المجتمعات الاسلامية، وتعتبرها هي المرحلة المستقبلية.

إنّنا إذا ضممنا الحقيقتين الماضيتين: (حقيقة أنّ النفَس الاسلامي هو الطابع العام للعالم الاسلامي) و(حقيقة أنّ الاسلام لايمكن فصله عن الحياة)،

عرفنا بوضوح بطلان كلّ المساعي لعلمنة العالم الاسلامي. وليت الكاتبة عمّقت قولها السابق بأنّ النظام الديني مهما كان لايجتمع مع العلمنة، وأدركت بالتالي ماقلناه، اللهم إلاّ أن نسلب الاسلام صفة النظام ونبقيه مجرد تعاليم أخلاقية سطحية، وهذا ما لا يمكن تحقيقه.

إنّ للاسلام رأيه في كلّ السلوك الانساني، وكل من عرف الاسلام أدرك أنّه ما من واقعة إلاّ ولله فيها حكم أو فيها كتاب وسنّة – كما يقول الامام الصادق(ع)[1] – ولايمكن أن يكون الانسان مسلماً حتى يلتزم بأحكام الاسلام (**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليمًا**)[2].

النقطة الرابعة

إنّ الصحوة الأسلامية في الأساس جاءت لترد على العناصر الثلاثة الماضية (التخلف، والتمزق، والعلمانية)، ولتحقّق العودة الى الاسلام بكل مقتضياته؛ فالاسلام دين التقدم، يدعو الى العلم بشتّى أنواعه، ويطلب من الامة الاسلامية أن تحقق كلّ عناصر القوة، وأن تبذل أقصى جهدها لتكون خير الامم، ولتكون في الطليعة الحضارية للناس، والتخلف حالة غير طبيعية مطلقاً.

---

(١) أصول الكافي، ج ١ باب الرد الى الكتاب والسنة، ح ٤، ص ٥٩.

(٢) النساء: ٦٥.

والاسلام دين الوحدة الاسلامية، والتخطيط الاسلامي للوحدة واضح تماماً، فالقانون واحد، والقائد واحد، والعواطف واحدة، والشعارات والعبادات واحدة، وثروات الامة هي ملك كلّ الامة، وقد جعلت لها قواماً وقياماً، وحقوق المسلمين جميعاً متكافئة، لا بل قد يشترك كلّ المسلمين في بعض أنواع الملكية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة شاملان لكل المسلمين، والمسلمون جميعاً مسؤولون عن مجموع الامة وحدودها مسؤولية مشتركة.

أمّا الحالة الراهنة، والتبريرات التي تساق لها فهي كلها استثناءات يجب أن يعمل الجميع على حذفها في النهاية والعودة الى واقع الاسلام. ولا نجد عالِماً أو حتى مجرد مطّلع على حقيقة الاسلام يجادل في هذه الحقيقة الواضحة.

والاسلام دين الحياة ـ كما قلنا ـ فلا يمكن أن ينسجم مع العلمنة بأي تعريف جاءت، وأية صفة اتخذت، ايجابية أم سلبية، أمّا الاستناد الى التجارب القائمة فهو مجرد خداع، لأنّها تجارب مفروضة على العالم الاسلامي ومتنافية مع حقيقة الاسلام.

وقد نستطيع أن نؤيد الكاتبة في بعض عباراتها فنركّز على عنصر (التفوق) ونقول: إنّه سر الصراع. ولكن الذي يجب التركيز عليه أنّ الرغبة في التفوق عامل طبيعي يعمل على تطوير الحياة الانسانية في كلّ المجالات إذا اتخذ منحى ايجابياً تنافسياً. كما يؤدّي كغيره من العوامل الطبيعية الى الخراب والدمار والظلم إذا اكتسب الصفة السلبية واعتمد عامل الحذف بالقوة والهيمنة ومحو الآخرين، كما نجده اليوم في العولمة والتعامل الغربي مع المسلمين.

إنّ الصحوة الاسلامية إذن تدعو للتفوق الاسلامي الحضاري فلا ينبغي أن يثير ذلك حفيظة الآخرين إن كانوا يملكون الروح الرياضية الحضارية، وأنّى لهذه الروح أن تسود.

أمّا عن عوامل هذه الصحوة فلا نتوقع للكاتبة أن تكشف لنا عن العوامل الحقيقية، ولذلك تلجأ الى العوامل الجانبية وربما تسطح فكرها هي عندما تطرح فكرة الحسد وتغيُّر العلاقات وأمثالهما.

إنّنا نتصور هذه العوامل ـ على ضوء دراساتنا للساحة ـ كمايلي:

أولاً: طاقات الاسلام الذاتية التي لا تفتأ تمد المسلمين بدوافع التغيير، وتشدد على الحفاظ على الهوية الحضارية بعد أن أعطتها معالمها الشاملة، بل وتدفع دائماً على الحفاظ على التفوق أو استعادته إذا فقد. وقد مرّ بنا القول إنّ كلّ أساليب التمييع سوف تبقى آثارها وقتية؛ لأنّ الاسلام بطبيعته يدعو للوحدة ويرفض العلمنة.

والكاتبة تتردد في إشارتها لهذا العامل، فتارة تعترف به (انظر مثلاً البنود ٤،٦،٧،١٣،١٩،٢٦) واخرى تحاول أن تقلل من أهميته (لاحظ مثلاً البنود: ١٢، ١٣، ١٤، ٢٠، ٢٦، ٢٨).

ثانياً: اشتداد الحملة الاوربية على العالم الاسلامي بحيث استباح الغرب كلّ الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونات العقائدية والاخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزّق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافيين، ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الاسلامي. ولاريب أنّ حملة من هذا القبيل سوف تواجه بَردّ فعلٍ قوي من أمة يبقى الاسلام فيها حياً، رغم عمليات القضاء عليه.

ولانريد أن نطيل في الحديث عن هذا العامل لوضوح أبعاده، ووضوح حقيقة أنّ الاحتلال يستتبع المقاومة بشتّى ألوانها. ولعل الغرب شعر بهذه الحقيقة حين حاول التنفيس والاستعاضة عن ذلك بإعطاء الاستقلال الصوري لبعض المناطق الاسلامية. ولكن هذا العمل بنفسه وفّر فرصةً لنموّ الصحوة الاسلامية بشكل واسع وانطراح الاحساس الاسلامي بالاسلام الشمولي في الستينات واتساعه بشكل مرعب للغرب في السبعينات والثمانيات.

ثالثاً: فشل كلّ الحلول والاطروحات البديلة للمقاومة والتغيير؛ لأنّها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الاطروحة القومية الضيقة رغم التطبيل والتزمير، ورغم نزولها المبكر الى الساحة وتحقيقها الكثير من الأهداف الغربية ومسحها الكثير من السمات الاسلامية في تركيا وغيرها. ذلك لأنّها لا تنسجم مع الطبيعة الاسلامية التي تتجاوز القوميات.

كما فشلت الاشتراكية؛ لأنها اعتمدت على أسس إلحادية رغم تمتعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الاسلامية كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار. وفشل الشكل التركيبي (الاشتراكي القومي) أيضاً لأنّه أيضاً تركيب وهمي لاينسجم مع الحس الاسلامي ولايعبر عن أية إضافة معرفية.

وهنا أودُّ الاشارة بشكل وافر الى التحليل الرصين الذي كتبه استاذنا الشهيد الإمام محمد باقر الصدر حول هذا الموضوع حيث قال: «إنّ الأمّة على الصعيد الاسلامي وهي تعيش جهادها ضد تخلفها وانهيارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود أفضل وكيان أرسخ واقتصاد أغنى وأرفه سوف لن تجد أمامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلاّ طريقاً واحداً للتحرك، وهو التحرك في الخط الاسلامي».

ويضيف: «حينما أخذ العالم الاسلامي ينفتح على حياة الانسان الأوربي ويذعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسالته الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن اطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم الذي درج عليه الإنسان الأوربي حين قسّم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد وقدرته المنتجة الى بلاد راقية اقتصادياً وبلاد فقيرة أو متخلفة اقتصادياً وكانت بلاد العالم الاسلامي كلها من القسم الثاني».

وبعد أنّ ذكر أنّ العالم الاسلامي ظن كون الخلاص يكمن في تبعية الغرب راح يجد هذه التبعية بالتبعية السياسية، والاقتصادية والمنهجية التي تمثلت إما في الاقتصاد الاشتراكي، أو في الاقتصاد الرأسمالي، وكان لكلٍّ من المنهجين مايبرره.

بعد هذا راح ينتقد أولئك الذين يغفلون – عند محاولتهم تطبيق خطة ما – العامل النفسي للامة «فلابد للامة بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به أن تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت الى بلاد المستعمرين بنسب» وكان الحل المقترح هو اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة، ولكن القومية «ليست إلاّ رابطة تاريخية ولغوية وليست فلسفة ذات مبادئ ولا عقيدة. فنادت بالاشتراكية العربية تغطية للواقع الأجنبي المتمثّل في الاشتراكية من

الناحية التاريخية والفكرية، وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغفال حساسية الأمّة؛ لأنّ هذا الاطار القلق ليس إلاّ مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الاجنبي... ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية أن يميزوا الفوارق الأصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية» ويقول بالتالي: «وبالرغم من أنّ دعاة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تأطيرها بالاطار العربي فإنّهم أكدوا بموقفهم هذا تلك الحقيقة التي قلناها، وهي أنّ الامة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لايمكن بناء نهضتها الحديثة إلاّ على أساس قاعدة أصيلة لا ترتبط في ذهن الامة ببلاد المستعمرين انفسهم».

ويقول عن الاسلام الذي يواجه هذه الاطروحات: «إن هذه القوة مهما قدرنا لها من تفكك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الاسلامي لايزال لها أثرها الكبير في توجيه السلوك وخلق المشاعر وتحديد النظرة نحو الأشياء»[1].

ونعود الى الكاتبة لنجدها أحياناً تشير لهذا العامل حين تؤكد أنّ العلمانية حققت نصراً زائفاً خلال خمسين عاماً ولم تستطع أن تحقق الطموح وعاد التمسك بالاسلام هو الحل.

رابعاً: ظهور شخصيات توعوية كبرى كان لها الأثر المتفاوت في ايجاد هذه الصحوة أو مقدماتها أو ترشيدها أو اعطائها طاقات حماسية وفكرية أو منحها الثقة بنفسها والأمل الواعد بمستقبلها الحتمي، اضافة للوعود الالهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل وظهور المصلح المنتظر(ع).

ويمكننا أن ندرج في قائمة هذه الشخصيات الكثير من الكبار من أمثال المرحوم السيد الاسترابادي (الافغاني) ـ وإن حاولت الكاتبة التشكيك في إخلاصه ـ والمرحوم محمد عبده ـ وقد شككت فيه ايضاً بل جعلته عاملاً على اتجاه بعض تلامذته للعلمنة ـ والمرحوم الميرزا النائيني، والمرحوم كاشف الغطاء، والمرحوم الامام الخميني، والمرحوم

(١) اقتصادنا: المقدمة.

سيد قطب، والمرحوم الامام الصدر، والمرحوم المطهري، والمرحوم الغزالي، والمرحوم البهشتي، وغيرهم كثير.

خامساً: ويجب أن لا ننسى دور التطوّرات والحوادث الكبرى في إذكاء هذه الصحوة من قبيل:

١ـ تنامي مستوى وسائل الاتصال، والحركة المعلوماتية ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة.

٢- ارتفاع مستوى التعليم الاسلامي.

٣- تطور أساليب الدعوة الى الاسلام.

٤- توفّر بعض أجواء الحرية في العالم الاسلامي.

٥- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.

٦- قيام المؤسسات الدولية الانسانية المدافعة عن حقوق الانسان والداعية لتنظيم العلاقات الدولية على اسس انسانية .

٧- حدوث بعض الحوادث المروعة كإحراق المسجد الاقصى أو هزيمة عام ٦٧.

٨- انتصار الثورة الاسلامية الكبرى في ايران، وانتصار المجاهدين الافغان على الاتحاد السوفيتي.

٩- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحرر الدول الاسلامية.

وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحوة الاسلامية ونشر مفاهيمها ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة الى الحل الاسلامي الذي لابديل له.

ومن الجدير بالاشارة اليه:

أنّ الغرب لم يألل جهداً في إجهاض الصحوة، ومقابلتها، وإلهائها واتهامها بشتّى التهم من قبيل (التخلف والرجعية، والتطرف والاصولية، والعنف والارهاب، والعمل ضد الديمقراطية والحرية، وضرب حقوق الانسان ولم يعدم من قدّم له الذرائع من المسلمين ممّن عرض فكراً رجعياً، أو سلك مسلكاً متطرفاً، أو عمل عملاً ارهابياً، أو قاوم الديمقراطية والحرية أو نقض حقوق الانسان. ولكن الواضح تماماً أنّ هؤلاء لا يمثلون

الاتجاه الاسلامي العام فضلاً عن أن يكون سلوكهم ممثلاً للصحوة الاسلامية أو معبّراً عن روح الاسلام وتعاليمه، وهو أمر تقرّ به الكاتبة بكل وضوح .

النقطة الخامسة

ونركّز فيها على مستقبل الصحوة الاسلامية هذه.

والصورة التي قدمتها الكاتبة صورة قاتمة تنسجم مع توجّهاتها المنسجمة عموماً مع طموحات الغرب نفسه. إنّها صورة تتلخّص في إبعاد التأثير الاسلامي عن الحياة، وتمزق مواقف الدول الاسلامية باعتبار اختلاف المصالح الضيقة لها، واستدامة عملية العلمنة رغم إنّ ذلك لن يحل المشكلات مادام العالم الاسلامي راغباً في اصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب، (وكأنّها تعتبر أنّ الأفضل لهذا العالم الاسلامي أن يستسلم لقدره، ويقبع في خانة العالم المتخلف، وكأنّها أيضاً تحذر الغرب نفسه من السماح للعالم الاسلامي للحصول على موقع متقدم، وقوة منافسة؛ لأنّ ذلك سيزيد من تحدياته ـ أي العالم الاسلامي ـ للغرب وطموحاته، في حين أنّ بقاءه عالماً متخلفاً يعطيه فرصة التسامح!!).

هذه هي الحصلية التي تتوصل اليها في نهاية الكتاب.

والحقيقة هي أنّ هذه الآراء هي قناعة الكتّاب المعتدلين الى حد ما في الغرب، أمّا المتطرفون فمازالوا يرددون آراء (وليم جيمس) و (هنيتنغتون) في ضرورة التعامل مع العالم الاسلامي معاملة الغابة، وضربه بكل قسوة وعدم التعاون معه.

ولكننا نختلف مع توجّهات الكاتبة تماماً.

إنّنا نلمح في الأفق السمات التالية:

الأولى: اتساع حركة الصحوة الاسلامية وتجذرها بحيث لا تنفع معها أساليب الحذف أو التحريف.

وإذا أردنا أن نستدل لهذا التوقّع، وتجاوزنا المسألة العقدية التي نؤمن بها دون أي شك، فإنّا نشير الى مظاهر الصحوة التي تعمّ العالم الاسلامي من ارتفاع مستوى الأمل

لدى جماهيرنا الاسلامية، وانتشار التقاليد الاسلامية كالحجاب وأنماط التعاون والعبادات انتشاراً واسعاً، واتساع حركة المطالبة بتطبيق الشريعة في كلّ الحياة، وتشكل المنظمات الاسلامية ودخولها الى الساحة السياسية والاجتماعية بكل قوة، وانهزام الفكرة العلمانية مرحلة بعد مرحلة، وزوال الأمل بغير الاسلام على الساحة الفلسطينية وأمثالها من سوح المقاومة، واتجاه النخبة والجماهير نحو ثقافة الوحدة والتقريب، والسعي الحثيث على كلّ المستويات لنبذ التخلف، وغير ذلك.

الثانية: اتجاه الدول الاسلامية نحو التعاون الأكبر، والعمل على وضع آليات جديدة لتفعيل المؤسسات الشمولية، واحساسها جميعاً بالخطر المشترك.

ولا نريد أن نكون متفائلين أكثر من اللزوم ولكننا ندرك هذه الرغبة لدى القسم الأكبر، ونرجو أن تتحقق خصوصاً وأنّ المسألة لم تعد بيد الحكومات وحدها فالعصر عصر الجماهير.

الثالثة: ارتفاع مستوى أهمية العالم الاسلامي في مختلف المجالات. صحيح أنّه أحياناً لا تدرك هذه الأهمية ولكنها حقيقة قائمة لايمكن انكارها أو التغاضي عنها، فلدى هذه الامة الكم البشري الهائل، والقدرات الاستراتيجية الفريدة، والمواقع الجغرافية المتحكمة، والعقول العلمية المتقدمة، وفوق كلّ ذلك لديها الطاقة الحرارية والحضارية الاسلامية التي لا تنضب.

كلمة أخيرة

إنّي أشعر بأنّ عالمنا الاسلامي ـ رغم بوادر القوة وطاقات صنع المستقبل فيه – بحاجة الى خطط استراتيجية تقوم على أساس الاعتبار من الماضي، واستشراف المستقبل استشرافا علمياً، وملاحظة الطاقات المتوفرة لديه، ويجب أن تلاحظ هذه الخطة إجمالاً:

أ – مسألة ربط الامة بمفاهيمها القرآنية ودفعها نحو تجسيدها في حياتها العامة بما يحقق التوازن المنشود بين علوّ ما تملكه من تراث، ومدى استفادتها منه، وسمو ما اراده

الله لها من مواقع الريادة والإمامة والشهود الحضاري ومقدار إسهامها في المسيرة الحضارية الانسانية، خطط الاسلام الوحدوية ومدى تطبيقها في الواقع، والطليعية العلمية المفروضة، والجهود المبذولة لذلك.

ب – الترابط الوثيق بين كلّ من العملية التربوية التعليمية والعملية الثقافية، والعملية الإعلامية، فلايتمّ التقدّم في أيٍّ منها دون التقدّم في الأخرى، وذلك لتحقيق: تربية أصيلة تلائم المعاصرة وفيها عناصر التغيير، وثقافة واضحة المعالم لها مرجعيتها الأصيلة التي تقرأ الحياة باسم الله تعالى، وإعلام بعيد النظر له مصداقيته.

صفحه سفيد

المقال الخامس

خلاصة الموقف الغربي من الصحوة

خلاصة الموقف الغربي من الصحوة الاسلامية

اطلعنا على تقرير خطير أعدته مؤسسة (راند) بتمويل من مؤسسة ريتشارد سون. ويلخص التقرير التخطيط الغربي الخطير لضرب الصحوة الاسلامية. وقد أثرنا نشر ملخصه فقط – كما لخصه معدو التقرير أنفسهم – مع التعليقات القصيرة لنعرف ابعاد المخطط الصهيو – أمريكي في هذا المجال:

ملخص التقرير

ليس هنالك من شك في أنّ الإسلام المعاصر يعيش في حالة من التقلّب وعدم الاستقرار بسبب الانخراط في صراعات داخلية وخارجية حول قيمه وهويته ومكانته في عالم اليوم. حيث إنّ هنالك العديد من القوى المتنافسة التي تسعى للحصول على الهيمنة الروحية والسياسية. كما أنّ لهذا الصراع تكاليفه الخطيرة ومضامينه الاقتصادية والسياسية والأمنية على الأجزاء الأخرى من العالم. ونتيجة لذلك يبذل الغرب جهوداً متزايدة للتوصل إلى اتفاق مع هذا الصراع وفهمه والتأثير على مخرجاته.

وكما هو واضح، فإنّ الولايات المتحدة والعالم الصناعي المتقدم، وبطبيعة الحال، المجتمع الدولي بأسره، يفضل عالماً إسلامياً متوافقاً مع باقي النظام الدولي، يكون ديمقراطياً، وقابلاً للنموّ اقتصادياً، ومستقراً سياسياً، ومتطوراً اجتماعياً، ومواكباً لأنظمة

وقوانين السلوك الدولي[١]. كما أنّ هذه الأطراف تسعى إلى منع «صراع الحضارات» – في كلّ أشكاله المحتملة – من اضطراب داخلي متزايد بسبب النزاع بين الأقليات المسلمة والسكان الأصليين في الغرب، إلى حالة الاقتتال المتزايد عبر العالم الإسلامي، وما يترتب عليها من عدم الاستقرار والإرهاب[٢].

وعليه يبدو أنّه من الحكمة تشجيع عناصر من داخل المزيج الإسلامي تكون أكثر ملائمة مع السلام العالمي والمجتمع الدولي، وصديقة للديمقراطية والحداثة. ولكنه ليس من السهل دائماً التعرّف على هذه العناصر بالشكل الصحيح وإيجاد الطرق المناسبة للتعاون معها[٣].

إنّ الأزمة الحالية للإسلام لها مكونان رئيسيان هما: «**قدرته على النموّ، وعدم الاتصال مع الاتجاه السائد في العالم**»[٤]. لقد اتسم العالم الإسلامي بفترة طويلة من التراجع والوهن النسبي، وللخروج من هذه الحالة كان تبني الكثير من الحلول المختلفة، وذلك مثل القومية، والعروبة، والاشتراكية العربية، والثورة الإسلامية، ولكنها لم تنجح. وقد أدّى ذلك إلى حالة من الإحباط والغضب. وفي نفس الوقت لم يستطع العالم الإسلامي مواكبة الثقافة العالمية المعاصرة، وهي حالة غير مناسبة للطرفين[٥].

---

(١) وهكذا تُعتبر القيم الغربية هي معيار التقدم، والنظام الدولي الانساني ويتم السعي لتطبيق هذا المعيار على العالم الاسلامي.

(٢) وكأنّ نظرية صراع الحضارات لم تنطلق من الغرب، ولم يعمل الغرب على اضطهاد الاقليات المسلمة وتضييع حقوقها.

(٣) وهكذا ينصب الغرب من نفسه قيماً على السلام والمجتمع الدولي والديمقراطية والحداثة ليبرر لنفسه تجنيد العناصر العميلة لصالح أهدافه.

(٤) هذه خلاصة أزمة العالم الاسلامي وهي: عجزه الذاتي عن النمو وعدم تواصله مع القيم الغربية.

(٥)يلخص هنا ردود الفعل على هذه الأزمة فيجمع بين الحلول التي قدمها هو كالقومية، والاشتراكية التي صبغها بالصبغة العربية لتكون مقبولة، وبين رد الفعل الطبيعي وهو الثورة الاسلامية، ليعتبرها جميعاً فاشلة في تحقيق المواكبة للثقافة العالمية المعاصرة (الغربية طبعاً).

ويختلف المسلمون حول كيفية التعامل مع هذا الوضع، كما يختلفون حول الشكل النهائي الذي ينبغي أن يكون عليه مجتمعهم. ويمكننا أن نحدّد ثلاثة تنظيمات رئيسية:

١. المتشددون الذين يرفضون قيم الديمقراطية والحضارة الغربية المعاصرة ويريدون دولة فاشية متزمّتة تطبّق وجهة نظرهم المتطرفة للقوانين والمبادئ الإسلامية.

وهم يريدون استخدام الابتكارات والتكنلوجيا الحديثة لتحقيق أهدافهم .

٢. التقليديون الذين يريدون مجتمعاً محافظاً ويشككون في الحداثة والابتكار والتغيير.

٣. الحداثيون الذين يريدون من العالم الإسلامي أن يكون جزءاً من التقدم الذي يسود العالم،كما يريدون أن يقوموا بتحديث الإسلام وإدخال الإصلاحات فيه حتى يكون مواكبا للعصر.

٤. العلمانيون الذين يريدون من العالم الإسلامي أن يتقبل فكرة فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الديمقراطية الغربية الصناعية، مع حصر الدين في النطاق الشخصي[١].

لكلٍّ من هذه المجموعات موقفه الخاص من المواضيع الرئيسية المختلف عليها اليوم في العالم الإسلامي، ومن هذه المواضيع: الحريات السياسية والشخصية، والتعليم، ووضع المرأة، والقوانين الجنائية، وشرعية الإصلاح والتغيير بالإضافة إلى تنظيماتها تجاه الغرب.

إنّ المتشدّدين معادون للغرب عموماً وللولايات المتحدة بشكل خاص، حيث إنّهم يهدفون، بدرجات مختلفة إلى تخريب وتدمير الديمقراطية الحديثة، وأنّ تشجيعهم ليس بالخيار الصائب، إلاّ أن يكون ذلك لاعتبارات تكتيكية مرحلية[٢].

أمّا التقليديون بشكل عام، فلديهم قدر أكبر من وجهات النظر المعتدلة، ولكن

(١) وهكذا يأتي هذا التقسيم الى متشددين يرفضون هذه القيم فهم فاشيون متطرفون، وتقليديون جامدون، وحداثيون في اطار الاسلام وعلمانيون يحصرون الاسلام في النطاق الشخصي، وهؤلاء هم من يصنعون التطور المنشود. وهنا يتوضح دور الغرب في تركيز العلمانية.

(٢) كما تم دعم حركة طالبان والقاعدة في بعض المراحل.

هنالك اختلافات هامة بين المجموعات المختلفة من التقليديين أنفسهم. حيث إنّ بعضهم أقرب إلى المتشددين، كما أنّه لا يوجد بين هذه المجموعة من يتقبل بإخلاص الديمقراطية الحديثة وثقافة وقيم الحداثة، وفي أحسن الأحوال يمكن التوصل إلى سلام غير مستقر معهم[١].

إنّ الحداثيين والعلمانيين هما أقرب هذه الفئات للغرب، من وجهة نظر المبادئ والسياسات. ولكنّهم بشكل عام في موقف أضعف من باقي المجموعات الأخرى، حيث إنّهم يفتقرون إلى من يؤيدهم بقوة، كما ينقصهم المال والبُنى التحتية الفعّالة، والبرنامج السياسي. إنّ العلمانيين إلى جانب كونهم غير مقبولين كحلفاء في بعض الأحيان بناءً على انتمائهم الفكري العام، يعانون كذلك من بعض المشاكل في التعامل مع القطاع التقليدي في المجتمع الإسلامي[٢].

إنّ الإسلام التقليدي (الأرثوذكسي) يتمتع ببعض العناصر الديمقراطية التي يمكن الاستفادة منها في تحجيم إسلام المتشددين القمعي الفاشيستي. ولكنه ليس ملائما لأن يكون الوسيلة الابتدائية للإسلام الديمقراطي. ولكن عبء هذا الدور يقع على الحداثيين الإسلاميين، الذين تتأثّر فعاليتهم ببعض القيود المفروضة عليهم، وهي ما سنحاول التعرض له في هذا التقرير[٣].

وللقيام بتشجيع التغيير الإيجابي في العالم الإسلامي نحو الديمقراطية والحداثة والانسجام مع النظام العالمي المعاصر، فإنّ الولايات المتحدة والغرب يحتاجان إلى التمعن وبحذر شديد في العناصر والميول والقوى الإسلامية التي يريدان تقويتها، وما هي أهداف وقيم مختلف الحلفاء المحتملين والذين تحت حمايتهم، وماهي الآثار العامة التي تترتب

(١) وهذا ما يبرر التصالح الموقت مع بعض القوى الرجعية، واستخدامها جسراً لتحقيق الاهداف الغربية.

(٢)اعتراف بأنّ التوجّه العام للامة يرفض العلمانية وتغافل عن أنّ طبيعة التعاليم الاسلامية لا تنسجم مطلقاً مع هذا التوجّه الغريب.

(٣) الهدف اذن اسلام غربي ينبذ التراث.

على تقديم أجندتهما الخاصة. إنّ المنهج المتنوع التالي والذي يتكون من العناصر التالية ربما يكون أكثر فاعلية في هذا الموضوع:

دعم الحداثيين أولاً:

ـ طباعة كتاباتهم مقابل تكاليف مدعومة.

ـ تشجيعهم على الكتابة للعديد من القراء وللشباب.

ـ طرح وجهات نظرهم في المناهج الدراسية الإسلامية.

ـ إعطاؤهم برنامجاً سياسياً يعملون من خلاله.

ـ طرح وجهات نظرهم وأحكامهم حول المسائل الرئيسية للتفسيرات الدينية وجعلها في متناول القراء (والمتلقين بشكل عام) وذلك لمنافسة وجهات نظر المتشددين والتقليديين الذين يمتلكون مواقع في الإنترنت ودور النشروالمدارس والمعاهد، والعديد من الوسائل الأخرى لنشر وجهات نظرهم.

ـ جعل العلمانية والحداثة بمثابة خيار ثقافي بديل بالنسبة للشباب الإسلامي المتمرد.

ـ تسهيل وتشجيع وعيهم لخلفيتهم التاريخية والثقافية غير الإسلامية في وسائل الإعلام وفي المناهج الدراسية في الدول المعنية.

ـ المساعدة في بناء منظمات مستقلة للمجتمع المدني وذلك من أجل تشجيع الثقافة المدنية ومنح المواطنين العاديين المجال لتثقيف أنفسهم حول العملية السياسية، والتعبير عن وجهة نظرهم[١].

(١) وكل هذه الخطط واضحة ولا تحتاج الى تعليق .

دعم التقليديين ضد المتشددين:

ـ نشر انتقادات التقليديين لعنف المتشددين وتطرفهم على نطاق واسع، وتشجيع عدم الاتفاق بين الطرفين.

ـ السعي لمنع التحالف بين التقليديين والمتشددين[١].

ـ تشجيع التعاون بين الحداثيين والتقليديين لأنهم الأقرب إليهم[٢].

ـ تعليم التقليدين، ما أمكن ذلك، لتحسين أدائهم في مواجهة المتشددين في المناظرات، حيث إنّ المتشددين متفوقون في الخطابة، بينما التقليديون غير قادرين على الإفصاح عن آرائهم ويتبعون المفهوم الشعبي للإسلام. وفي بعض الأماكن مثل وسط آسيا ربما يحتاج المسلمون إلى تعليمهم وتدريبهم على ممارسة الإسلام التقليدي حتى يتمكّنوا من المحافظة على وضعهم[٣].

ـ زيادة ظهور الحداثيين ووجهات نظرهم في مؤسسات التقليديين.

ـ التفرقة بين القطاعات المختلفة للتيار التقليدي. وتشجيع القطاعات التي تتمتع بميل أكبر إلى الحداثة، وذلك مثل المدرسة الحنفية في القانون، ضد القطاعات الأخرى. وتشجيعهم لإصدار فتاوى وتعميمها لإضعاف سلطة الوهابيين الرجعيين في تطلّعهم إلى نظام الحكم الديني. حيث أنّ ذلك يتعلق بالتمويل: فالأموال الوهابية تذهب لدعم المدرسة الحنبلية المحافظة. كما أن الأمر يتعلق أيضا بالمعرفة، حيث إنّ الأجزاء الأكثر رجعية في العالم الإسلامي غير واعية للتطور الحاصل في تطبيقات الفقه الإسلامي وتفسيراته[٤].

(١) زرع الخلاف بين العناصر المؤمنة بالاسلام.

(٢) لاضفاء صبغة مقبولة على الحداثيين.

(٣) متابعة للخطة حتى ولم تمّ ذلك باسم تعليم الاسلام للمسلمين.

(٤) وهكذا يتم خلط الاوراق، وتمزيق الصفوف.

ـ تشجيع شعبية الصوفية وتهيئة المجتمع لزيادة تقبلها[١].

مواجهة المتشددين ومعارضتهم:

ـ تحدّي تفسيرهم للإسلام والكشف عن أخطائهم.

ـ فضح ارتباطهم بمجموعات وأنشطة غير قانونية.

ـ إعلان ما يترتب على أعمال العنف التي يقومون بها.

ـ إثبات عدم قدرتهم على الحكم وتحقيق النمو الإيجابي في بلدانهم ومجتمعاته.

ـ توجيه هذه الوسائل إلى الشباب خصوصاً، وإلى المجتمعات التقليدية المتدينة، والأقليات المسلمة في الغرب، وإلى النساء.

ـ تجنّب إبداء التقدير أو الإعجاب بأعمال العنف التي يقوم بها المتشددون المتطرفون والإرهابيون. ويجب وصفهم بأنّهم أناس مضطربون وجبناء، وليسوا أبطالاً غاضبين.

ـ تشجيع الصحفيين لعمل تحقيقات صحفية في دوائر المتشددين حول الفساد والنفاق والأعمال غير الأخلاقية[٢].

دعم انتقائي للعلمانيين:

ـ تشجيعهم لاعتبار المتشددين كعدوٍّ مشترك، والسعي لمنع العلمانيين من إقامة تحالف مع القوى المعادية للولايات المتحدة وذلك مثل القوميين واليساريين.

ـ تشجيع وجهة النظر القائلة بأنّ فصل الدين عن الدولة ممكن أيضا في الإسلام، حيث إنّ ذلك لا يشكّل خطراً على الدين، بل على العكس من ذلك ربما يؤدي إلى تقويته[٣].

(١) فالانعزال هو اسلم الطرق وبعض الطرق الصوفية تشجع ذلك.

(٢) وهذا الأساليب جميعها نشهدها عياناً وخصوصاً في الساحة الصحفية .

(٣) هذا الاسلام الذي يريدون. اسلام بعيد عن الحياة ومعزول في المساجد.

وبصرف النظر عن المنهج أو المناهج المتنوعة التي يمكن أن يقع عليها الاختيار، نقترح أن يكون التطبيق على قدر كبير من الحذر والتروّي، مع الأخذ في الاعتبار الوزن الرمزي لمواضيع معينة. أمّا الوسائل فيجب إسنادها إلى صنّاع القرار في الولايات المتحدة وتخطيطهم لها، ولتنظيمات معينة في هذه الموضوعات، حيث إنّ النتائج المترتبة على هذا التخطيط بالنسبة للفعاليات الإسلامية الأخرى، بما فيه المخاطرة بالتعرّض للخطر أو التكذيب من قبل المجموعات والشعب التي نحاول مساعدتها. وتكاليف الفرص البديلة والنتائج غير المتوقّعة من تقبّل للموضوع والحالة التي ربما تبدو ملائمة على المدى القصير[١].

(١) وهكذا يصنع القرار هناك ويتم تطبيقه هنا، ومع كلّ هذا يراد منا أن لا نصدق نظرية المؤامرة .

صفحه سفید

ملحق

مقابلتان صحفيّتان

حول هموم الثقافة والمواجهة والتغيير[1]

❐ التوحيد: يبدي المسؤولون وأجهزة الإعلام في الجمهورية الإسلامية منذ فترة اهتماماً واسع النطاق بالهجمة الثقافية الغربية ضد الإسلام. هل تعدُّ هذه الهجمة ظاهرة جديدة في الصراع الإسلامي – الغربي؟ وما هي جذورها التاريخية؟

■ أعتقد أنّ للمسألة جذوراً تاريخية كما قلتم. فالاستعمار وجه الكفر والعصيان الإنساني للحقيقة المعنوية في الكون، ولذا فالعمل الطاغوتي يتسم بطابع واحد عبر التاريخ. ولّما كان الإنسان ذا جوانب مترابطة هي: (الجانب العقائدي، والجانب الاحساسي، والجانب السلوكي) فإنّ الطغيان استهدف كلّ هذه الجوانب لقتل الشخصية الإسلامية في الأمة.

وقد راح عبر التاريخ الطويل يزرع الشبهات تلو الشبهات في النفوس تجاه العقيدة والتصوّر الإسلامي، وهي شبهات تتدرج في التعقيد، كما استهدف الجانب الإحساسي العاطفي ليميت ذلك الشعور بالاخوّة الإسلامية، ويحل محلّه الإحساس المحلي أو القطري أو القومي أو حتى الوطني الضيّق، بالإضافة إلى عمله على إيجاد جو من المادية السلوكية والعلمانية على شتّى الصُّعد، ليتسنّى له بالتالي قتل كلّ هذه الجوانب في شخصية الإنسان المسلم. ويمكنكم أن تجدوا لهذه الكليات نماذج خلال تاريخ الصراع الإسلامي مع أوجه الكفر والطغيان.

هذا بشكل عام، أمّا عندما نركّز على تعامل الكفر مع الجمهورية الإسلامية وما حملته وبشّرت به من تصوّر أصيل للإسلام والحياة على أساسه نجد عمليتين متوازنتين يقوم بهما الاستكبار العالمي في هذا الصدد:

إحداهما : غير مباشرة، من خلال التصعيد للحملة ضد العقيدة الإسلاميّة، والتاريخ، والحضارة الإسلاميّة، وضد الخُلق والشريعة. وذلك على يد عملائه المفكّرين في المنطقة الإسلاميّة، أو على أيدي مفكّريه ومنظّريه هو وبشكل مباشر وطبيعي.

(١) لقاء مع مجلة التوحيد التي تصدر في طهران.

إن أيّ وهن أو شبهة توجَّه للعقيدة، أو يصاب به الخُلق العام، أو تبتلى به العملية التشريعية، يعدُّ ضربة للحركة الإسلامية العامة التي فجّرتها الثورة الإسلامية، والصحوة الإسلامية التي وسّعتها، وبالتالي فإنّ هذه الضربة سوف تتجه في النهاية إلى الجمهورية الإسلامية ومبادئها.

أما الخطة الثانية: فهي الخطة الهجومية المباشرة للبنى الثقافية في الجمهورية الإسلامية، ومحاولة التخريب الثقافي من داخل الجمهورية الإسلامية، وذلك عبر أساليب كثيرة، منها:

١ – تشجيع الأفكار البعيدة عن الإسلام والتي تحملها بعض التجمُّعات الصغيرة التي تأثرت بالفكر الماركسي أو الفكر القومي أو الوطني وأمثال ذلك، لكي يتم إضعاف الاتجاه الثوري الإسلامي الأصيل، وهي من قبيل حركة مجاهدي خلق (المنافقين) وما يسمى بـ (نهضة الحرية) وأمثالها.

٢ – العمل على تسريب عناصر عميلة فكرياً – على الأقل – تحمل عناوين معروفة لتطرح نفسها على الساحة الثقافية، ومن ثم لتقوم بمهمة الإضعاف المطلوبة، وما نشاهده من وجوه طرحت نفسها إعلامياً من خلال الصحافة المشبوهة هي مظاهر لهذه الخطة.

٣ – الارتفاع بمستوى الإرسال المسموع والمرئي، ليقوم بدور الوعاء القوي لحمل الثقافة الغربية إلى داخل الشعب الإيراني، وبالتالي تحقيق تلك الأهداف التي ذكرتها في المقدمة، واننا لنشهد جهوداً غريبة وعملية مكثفة لتحقيق هذا الهدف.

❐ التوحيد: كيف تقوّمون المدلولات السياسية والحضارية لهذه الهجمة، ماضياً وحاضراً؟ وما هي الدوافع التي تقف وراءها؟

■ إنّ المدلولات السياسية والحضارية لهذا الهجوم العريق هي هي لم تتبدل. إنّها صراع الطاغوت – بكلّ ما يمثله من مصالح بشرية ضيّقة، واستغلال بشع للقوة – ضد المستضعفين، وعمل على السيطرة وإشباع النهم السلطوي لدى الأفراد أو الجماعات أو حتى لدى الشعوب القوية على الشعوب الأخرى. إنّها صراع الحضارة المادية التي انحرفت عن خط الفطرة ضدَّ الحضارة الإنسانية التي حاولت أن تحقق في وجودها كلَّ ما أراده الخالق تعالى لها، لتسير نحو هدف الخلق المنشود.

❐ التوحيد: هل حقّق الغزو الثقافي أهدافه؟ وما هي الأسباب التي كانت وراء ذلك؟

■ يبدو أنّ الهجمة الثقافية – بشتّى صورها – لم تحقّق أهدافها، فها هي الجمهورية الإسلامية تقف اليوم مرفوعة الرأس، قوية الأركان، متلاحمة العناصر، عالية الصوت، مؤثّرة في بناء وعي الجماهير الإسلامية، وراسمة لكلّ طموحات هذه الأُمّة.

أمّا التشويه السياسي لمواقفها المبدئية فقد اضطرَّ الاستكبار للتراجع عنه، وكمثال على ذلك

اعتراف كلّ الأبواق التي طبّلت وزمّرت للطغمة البعثية العميلة بأنّها هي المعتدية وأنّ الجمهورية الإسلامية قد وقعت ضحية العدوان الغاشم.

وأمّا التشويه العقائدي فها هي الأوراق الصُّفر التي حاولت خلق الهوة الطائفية بين الثورة وجماهيرها تتمزّق وتتهرّأ، وها هو الهجوم الثقافي العام ضد العقيدة والتاريخ يواجه بصلابة كما حدث في قضية المرتد سلمان رشدي.

وأمّا التشويه التطبيقي، وأعني به التشكيك في قدرة الثورة على تنفيذ القوانين الإسلامية فإنّ العالم يشهد هذا التحرُّك السريع نحو تطبيق كلّ القوانين الإسلاميّة على شتّى مجالات الحياة دون هوادة.

❐ **التوحيد: الغزو الثقافي والهجمة الثقافية مصطلحان يستخدمهما الإسلاميون للدلالة على وجود صراع ثقافي بين الإسلام والغرب، بينما ينفي المتغرّبون في عالمنا الإسلامي وجود هذا الصراع ولا يرون ضرورة في استخدام هذين المصطلحين؛ لأنّهم يفسرون الوضع القائم بين الغرب والمسلمين: (تضايف الحضارات) ويرون أنّ الحضارة الإنسانية تتمثل دائماً بقطب معيّن في الأرض، وتسير البشرية تبعاً له. والمرحلة الحاضرة تعتبر دورة جديدة من التضايف الحضاري بين الغرب والمسلمين، فكما كانت أوروبا ضيفاً على حضارتنا، نحن اليوم ضيوف على حضارة الغرب. كيف تقوّمون هذا الادعاء؟**

■ هذا بالضبط ما أؤكد عليه، إنّ التضايف إنّما يمكن تصوره بين المساحات التي تتركها الأسس والمبادئ حرة ليتمَّ ملء فراغاتها في ضوء معطيات العلم ومقتضيات الزمان والمكان والتجارب الإنسانية الممتدة. وهذا ما نجد التشريع الإسلامي للحياة يخطط له بدقة وبشكل يعبّر عن أروع مرونة متصوّرة ويضمن استيعاب مختلف التصورات. أمّا التضايف بين المبادئ المتنافرة أصلاً بل والمتضادّة والمتناقضة فهو بالضبط ما حاولت الجاهلية القديمة أن تمرّره على الدعوة الإسلامية، فواجهها القرآن الكريم بعبارته الخالدة: (**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**). إنّ المرونة في هذا المجال تتحول إلى ميوعة وانقلاب رهيب.

❐ **التوحيد: ما هي استراتيجية الجمهورية الإسلامية لمواجهة الغزو الثقافي؟**

■ الاستراتيجية الوحيدة هي (صبغ الإعلام بالصبغة القرآنية) وأعني بذلك اتّباع الأساليب التي اتّبعها القرآن الكريم في مواجهة الهجوم الثقافي الكافر. ولا أستطيع أن أُشير إلى كلّ الخطوط الإعلامية القرآنية، لكن ذلك لا يمنع من ذكر الخطوط التالية:

١ – الدعوة والتبليغ (بما يحمله هذان اللفظان من مداليل) هي العمل الأول. يقول شهيد الثور الإسلامية الكبير آية الله الصدر في هذا الصدد: (والأمر الآخر أن يبدأ الدعاة الإسلاميون – قبل كلّ شيء – بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية وإيضاح معالمها الرئيسية معززة بالحجج

والبراهين، حتى إذا تمّت للإسلام حجّته ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم وظلوا بالرغم من ذلك مصرّين على رفض النور... عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية – بصفتها دعوة عالمية تتبنّى المصالح الحقيقية للإنسانية – إلاّ أن تشقّ طريقها بالقوى المادية).

٢ – استحضار النظرة الغيبية إلى جانب الحسابات المادية وذلك في كلّ تحليل أو توقّع مستقبلي.

٣ – الاتصاف بروح التبعية للحقيقة واجتناب ما يخالف الموضوعية.

٤ – الهدفية في كلّ خطوة.

٥ – التنسيق بين كلّ الخطى.

٦– الواقعية والتفاعل المستمر مع الأحداث الاجتماعية.

٧ – المنطقية في العرض والابتعاد عن السطحية.

٨ – التفاعل الوجداني مع الهدف، والعمل على تأجيج الحرارة الثورية في النفوس المؤمنة.

٩ – الأخلاقية الإعلامية.

١٠ – تنويع الأساليب الإعلامية بما يتناسب والمواقف المختلفة.

١١ – العالمية في الاهتمام.

١٢ – رصد التحركات التآمرية للشياطين على وجود الأمة الإسلامية.

١٣ ـ التأكيد على النقاط المشتركة... وغير ذلك.

إنّها خطوط قرآنية يسعى الإعلام الإسلامي للتحلّي بها، والله تعالى هو الموفّق لتحقيق هذا الهدف العظيم، وبمقدار وصولنا إليه نستطيع أن نضمن التصدّي للهجمة الثقافية.

❐ **التوحيد: بالنظر إلى توافر الإمكانات الثقافية في العالم الإسلامي، ما هي ــ بنظركم ــ الميّزات التي يمكن أن تحرّك هذه الإمكانات وتفيد منه؟**

■ طبعاً الإمكانات الثقافية والمعنوية أكبر وخصوصاً في العالم الإسلامي حيث الأرضية المناسبة، وحيث الإيمان الشامل بالإسلام على اختلاف درجات الوعي به، والالتزام بمقتضياته، وحيث آثار التربية الإسلامية تترك بصماتها الواضحة، وحيث التطلّع العام لسيطرة الإسلام على الحياة، وحيث الفطرة الأنقى، إلاّ أنّ المهم كون الإعلام الإسلامي يجب أن تتوافر فيه ميّزات حتى يستطيع أن يستثمر هذه الإمكانات ويستخدمها لتحقيق هدفه الكبير ومن هذه المميّزات:

أ – امتلاك القدرة الثقافية والعلمية إلى الحد الذي يستوعب فيه مقولات الإسلام وتصوراته.

ب – استيعاب الحوادث الجارية والإحاطة بالتحرك العلمي السياسي والإعلامي والثقافي.

جـ – استخدام أفضل أساليب العرض.

د – الإيمان العميق بتحقّق الإسلام.

هـ – التخلُّص من كلّ ذيلية أو ضيق أُفق أو مصالح شخصية.

و – ملاحظة الأرضية الإيمانيّة التي أشرنا إليها ومحاولة استثارة الطاقات الكامنة.

ز – التمتُّع بالخصائص القرآنية التي أشرنا إليها قبل هذا.

❐ **التوحيد: هل توفرتم على رصد الوسائل والأساليب المستخدمة من قبل الغرب في هذه الهجمة؟ ما هي النتائج التي توصلتم إليها بهذا الصدد؟**

■ أستطيع أن أقول بكل ثقة إنّ الغرب جرّب كلّ وسائله الممكنة لضرب الثورة الإسلامية، وألقى بكل أوراقه، ومن هنا يمكننا أن ندّعي المعرفة بشتى الوسائل وربما لم يكن الأمر بحاجة إلى كثير من الجهد.

أمّا نتائج هذا الرصد فما يمكنني التصريح به هو أننا نستخدم كلّ ما اكتشفناه ضدّه، طبعاً مع الالتزام بالحدود الإسلاميّة التي هي مرعبة حقاً ومؤلمة له، ولذلك نجده يقوم أحياناً بحركات هستيريّة يخالف بها كلّ مدّعياته، لكي يصمد أمام هذه الضربات.

❐ **التوحيد: في الثقافة الإسلامية مبدأ يقول: (لا ينتشر الهدى إلاّ من حيث انتشر الضلال) أين يقع هذا المبدأ في المواجهة الإسلامية للهجمة الثقافية؟**

■ لا أريد أن أرفض هذا المبدأ على اطلاقه أو أقبله كذلك على إطلاقه، وإنّما أقول: إنّ علينا أن ننظر في الأساليب ونطوّرها، بل ونبدع فيها ونكتشف الأساليب المعادية سعياً في إبطال مفعولها أولاً، واستخدامها ضد العدو ثانياً.

❐ **التوحيد: ما هي المبادئ الأساس التي يعتمدها الإعلام الإسلامي في الجمهورية الإسلامية؟**

■ نحن نعتمد أهم مبدأين في عملنا، وهما:

١ـ تأييد الله تعالى.

٢ـ تأييد المؤمنين عبر تعاطفهم وتلاحمهم ووعيهم للأهداف الثورية، وهذان العاملان هما اللذان ذكرتهما الآية المباركة:

(هُوَ الذي أيّدَك بنصرهِ وبالمؤمنين ★ وألَّفَ بين قُلوبهم لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بين قُلوبهم ولكنَّ الله ألَّفَ بينهُمْ إنَّهُ عزيز حكيم).

إنّ جماهير الأمة الإسلامية هي ساحتنا الطبيعية ووسيلتنا الكبرى لنشر الوعي الإسلامي وتحكيم شريعة الله في الأرض. وحينما تدخل الجماهير الساحة فلن تقف أمامها أيّة قوة،

وأمامكم الحالة الفلسطينية الثائرة حيث الجماهير المؤمنة تقارع أعتى القوى وأضخم الأسلحة، وتتحدّى كلّ التآمر وكل الخطط بيد عزلاء.

إنّ الجماهير هي صانعة الثورة الإسلامية وهي حاملتها إلى الواقع العام، وهذا ما أكده الإمام الخميني (رحمه الله) في مناسبات عديدة:

فمثلاً نجده في كلمته الموجّهة إلى العلماء في طهران عام ١٩٨١ يقول: «إنّنا جميعاً رهن لمحبة هذه الجماهير العظيمة، إنّها تعطي كلّ شيء في سبيل الإسلام ولا تطلب شيئاً».

وهذا بالتأكيد ما يطرحه آية الله الخامنئي قائد الثورة الإسلامية في كلّ مناسبة:

«إنّ الأمة يمكنها أن تصنع الثورة كما يمكنها أن تحتضنها وتمنع عنها كلّ عادية».

❐ **التوحيد: ما هو دور مبدأ (تصدير الثورة) الذي طرحته الثورة الإسلامية في مواجهة الهجوم الثقافي الغربي المعادي؟**

■ لقد كان الإمام الخميني يؤمن بمبدأ (تصدير الثورة) ولكن لم يكن يعني به الصورة التخريبية التي منحها إيّاه الإعلام الغربي، أي صورة التصدير بالسلاح. إنّه كان يركّز على الجانب الثقافي والحماسي في آن واحد وقد خاطب سفراء الأقطار الإسلامية بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ قائلاً:

«إنّنا نعتبر الأقطار الإسلامية جميعاً جزءاً من وجودنا دون أن يعني ذلك أن تفقد وجودها المستقل، وإنّما نريد لها أن تتمتّع بما يتمتّع به الشعب الإيراني من مزايا الخلاص من براثن القوى الكبرى وقطع أيديها عن منابعه الحياتية، نريد لهذه الحالة أن يتسع مداها لتشمل كلّ الشعوب، إنّنا نعني بتصدير الثورة أن تستيقظ كلّ الشعوب وكل الحكومات وتتخلص من قيود التبعية والتسلط».

إننا نعتقد ـ في ضوء هذا المبدأ المهم ـ أنّ النموذج الثوري الإيراني إذا تمّ تعميمه فإنّه يعمل على مقاومة أي غزو ثقافي من جهة، وتنمية الوجود الإسلامي على أرضه من جهة أخرى.

❐ **التوحيد: ما هو مستقبل الثقافة الإسلامية في ظل تهاوي أعمدة الثقافات المادية والانحرافية في عصرنا الراهن..؟**

■ أعتقد أنّ الثقافة الإسلامية ينتظرها مستقبل زاهر، باعتبار ما تتحلّى به من ميّزات وخصائص تجعلها الثقافة الإنسانية الوحيدة التي تعمل على إشباع الجوع المعنوي للبشرية، وهو ما نشعر به اليوم بشكل واضح، بالإضافة إلى هذا الإقبال العظيم لجماهير الأمة الإسلامية على الإسلام، الأمر الذي يفتح آفاقاً جديدة في هذا المجال.

حول الصحوة الإسلامية والإعلام [1]

❑ **السؤال الأول: إننّا نلاحظ إقبالاً عالمياً على الإسلام في الفترة الأخيرة، فبمَ تعلّلون ذلك؟**

■ أعتقد أنّ هناك عوامل كثيرة أوجدت هذا الإقبال العالمي على الإسلام في الفترة الأخيرة، وربما كان أهمّها ما يلي:

١ – ما يتمتع به الإسلام من تعاليم منسجمة تمام الانسجام مع الفطرة تشبع حاجة الوجدان، وتسمو بالأخلاق، وتتعامل مع طبيعة الإنسان تعاملاً واقعياً، وتنظر إليه ككل، وتعمل على حلّ كلّ مشكلاته، وتحقّق الانسجام بين الجانب العقائدي، والجانب العاطفي، والجانب السلوكي. وهذه الجوانب وإن كانت تتمثل في الإسلام منذ انطلاقه قبل أربعة عشر قرناً، إلاّ أنّ الذي أوجد هذا الإقبال الأخير عليه من خلالها ناتج عن نهضة فكرية عملية قام بها المفكرون الكبار، لشرح هذه الخصائص، وعرضها بأسلوب يتناسب ومتطلبات العصر، ويجيب عن تساؤلاته، ويشرح الجوانب المضيئة في هذه الشريعة، وهؤلاء هم من أمثال الإمام الخميني، والإمام الصدر، وسيد قطب، والشهيد المطهري، وأبي الأعلى المودودي، ومالك بن نبي وغيرهم.

٢ – فشل معظم الاطروحات اللادينية في إشباع حاجة الإنسان إلى المأمن الروحي الحقيقي، لا بل فشلها في إشباع حاجاته المادية وتحقيق ما يصبو إليه من سعادة. وقد أدّى تساقط هذه المذاهب الالحادية إلى تكوين موجة بشرية هائلة متجهة إلى الدين من جديد، ليشبع لها نهمها وجوعتها. ولمّا لم يكن هناك من دين فيه كلّ هذه الجامعية وهذا الشمول وهذه النظرة الحياتية المستوعبة وهذه الواقعية في التعامل غير الإسلام، كان من الطبيعي أن نجد الإقبال الواسع عليه وعلى تعاليمه.

---

(١) لقاء مع مجلة رسالة الثقافة (نامه فرهنك) الصادرة بطهران، باللغة الفارسية، العدد ٣/٢٣ بتاريخ ١٤١٧/١٠/٨، ١٣٧٥/١٢/١٠، ١٩٩٧/٣/١٢.

٣ – نجاح بعض التجارب الإسلامية في بعض المناطق، وفي طليعتها تجربة الثورة الإسلامية الكبرى في إيران بقيادة الإمام الخميني الراحل (قده)، حيث قدّمت هذه الثورة نماذج كبرى للثورة الشعبية الخالصة التي تتناسى كلّ المصالح المادية الضيّقة في سبيل تحقيق الأهداف المعنوية الكبرى، وحيث استطاعت أن تكسر الكثير من الأساطير من قبيل: أسطورة انحصار الثورة بالمبادئ المادية وبالخصوص في الاشتراكية، وأسطورة انقسام العالم – لا محالة – إلى قوتين لا ثالث لهما، وأسطورة عدم إمكان لاستقلال في المجال السياسي، وأسطورة (الدين افيون الشعوب) وأمثالها. وقدّمت للعالم تصوّراً جديداً عن مشاكله وحلولها، بعيداً عن التصوّرات السابقة، ممّا دفعه لتفهُّم هذه التصورات. كما أنّها استطاعت أن تعبّئ الجماهير المسلمة وتزرع في نفوسها الأمل الكبير بالمستقبل، مما فتح أمام العالم كلّه أُفقاً جديداً لم يكن ليتصوّره من قبل.

❑ **السؤال الثاني: ما هي العوامل التي انتجت هذا التوسع الكبير في حركة النهضة الإسلامية في السنين الأخيرة؟**

■ من الطبيعي أنّنا بهذا السؤال ننتقل إلى مجال العالم الإسلامي، ونركّز عليه. والذي نتصوّره أنّ أهم العوامل لهذه الظاهرة الكبرى – ظاهرة الصحوة الإسلامية – تكمن في ما يلي:

أولاً: نفس ما أشرنا إليه في جوابنا السابق. طبعاً مع ملاحظة التأثيرات الأوسع لتلك العوامل في عالمنا الإسلامي؛ لأنّ العالم الإسلامي أقرب كثيراً من غيره إلى تفهّم تراثه القيّم، والتعامل بكلّ تصوراته وعواطفه مع هذه الرسالة، من خلال إيمانه بها، حتى ولو كان هذا الإيمان ضعيفاً أو موروثاً، إلاّ أنّه – على أي حال – يوفر جواً طبيعياً للتعامل الأكبر مع القضية الإسلامية، خصوصاً بعد تبيان جوانبها من قبل أولئك المفكرين الذين أشرنا لهم آنفاً.

على أنّ فشل الأنظمة الأخرى أرجع الكثير من الشاردين عن المسيرة الإسلامية (من المسلمين) وأعاد لهم الثقة بإسلامهم العظيم.

ثم إنّ نجاح التجربة الإسلامية أوجد شعوراً جماهيرياً كبيراً بعظمة الإسلام، وأعاد للأمة اعتزازها بنفسها، وثقتها بمستقبلها، وقدرتها على صنع هذا المستقبل.

ثانياً: نضيف ــ في هذا المجال ــ عاملاً جديداً وهو الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأُمة. وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة أو تلك، إلاّ أنّها نجحت في تأجيج الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتدٍّ بها بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت والعودة إلى الإسلام.

ثالثاً: ردود الفعل التي أعقبت الهجوم الغربي الفاشل على العالم الإسلامي، فبالرغم من التخطيط الدقيق لهذا الهجوم، والعمل على أن يستوعب مختلف الجوانب، وبالرغم من التمزيق القومي، والوطني، والعنصري، والتاريخي، وبالرغم من أنه زرع في وجود الأمة البؤرة السرطانية الخبيثة، وأثقلها بالحكّام العملاء، وسرّب إليها سمومه الفكرية والعاطفية، وملأ حياتها بالمجون والترف والفسق، فإنّ هذا الهجوم أنتج نتائج عكسية، إذ أيقظ الأُمة وعلّمها أنّ عزتها تكمن في إسلامها، وقد كان تأثير الهجوم بشكل معكوس بأسلوبين:

الأول: أنّه كشف نفسه وحضارته وأخلاقه أمام أبناء هذه الأمة، وراح يحاول أن ينهب خيراتها، ويحطم شخصيّتها، ويعبث بقيمها.

الثاني: أنّه دفع الحريصين المؤمنين بمستقبل الأمة إلى اتخاذ موقف المواجهة، والتخطيط للصحوة. وكان من جملة ما انكشف زيفه للجماهير المسلمة تلك الصيغ الرجعية للحكومة الإسلامية، وتلك الاطروحات المموّهة للوحدة الإسلامية.

وهكذا أثّرت كلّ هذه العوامل أثرها الكبير في الإسراع بالصحوة والنهضة ممّا جعل الأمّة على أعتاب تحوّل تاريخي كبير، نسأل الله جل وعلا أن يحققه قريباً عاجلاً.

❐ **السؤال الثالث: أين ترون مركز هذه النهضة الإسلامية الدينية؟**

■ بطبيعة الحال لا أعدو إيران في هذا المجال. فهي اليوم قلب النهضة الإسلامية الأصيلة، ومنبعها الدفّاق. لا أقول هذا محاباة أو تعصباً، وإنّما أقول ذلك عن وقوف حسن على واقع العالم الإسلامي، وتلمُّس كامل لكلّ أبعاد الصحوة والنهضة الإسلامية. فالكل اليوم ينظر إلى إيران باعتبارها المحور والنموذج والإمام والموجّه، بل أستطيع أن أقول: إنّ العالم كلّه يذعن لهذه الحقيقة، ولا أدلّ على ذلك من تجمّع التآمر المادي للدين ضد إيران، وتمركزه على هذه الثورة الإسلامية. وربما أمكنني الإشارة إلى دور إيران في المؤتمرات العالمية كالقاهرة وبكين وغيرهما، حيث وقفت تحمل لواء الدفاع عن الدين عموماً والإسلام خصوصاً بكلّ قوة، وأذعن العالم لهذا الوقوف والصمود.

فإذا تجاوزنا إيران أستطيع القول بأنّ مظاهر النهضة تشمل كلّ العالم الإسلامي على اختلاف في ما بين مناطقه من حيث الوعي والإحساس.

❐ **السؤال الرابع: ما هو دور الفكر الإسلامي والفكر الثوري في العلاقات الدولية القائمة؟**

■ إذا أردنا أن ندرك عمق هذا الدور علينا أن نلاحظ الأمور التالية:

١ – مساحة التخطيط والتآمر ضدّ الإسلام وضدّ الثورة الإسلامية. وهي مساحة واسعة

حقاً تتمثل في تجمع العقول السياسية المخطّطة في مراكز علمية وسياسية لا تحصى لدراسة هذه الظاهرة، واتخاذ الاستراتيجيات الجامعة ضدّ نموها وانتشارها، ومحاولة الفصل بين الجماهير الإسلامية، لا بل الجماهير المستضعفة وبين قيادتها. كما تتمثل في وسائل الإعلام الموجّهة ضدّ الإسلام ومظاهره وضدّ كلّ ما يمتُّ بصلة إلى الإسلام. وتتمثل أيضاً بالمؤتمرات الدولية واسعة الأبعاد والتي تعمل على مسخ الهوية الإنسانية وتفكيك عرى العائلة الإنسانية، ونشر التفكّك والتميُّع، والفساد الأخلاقي، كما تتمثل في عشرات المعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بين الدول الكبرى نفسها، وبينها وبين دول المنطقة لوقف هذا التحرّك الإسلامي العظيم، بل إنّنا نجد الغرب يعطي الضوء الأخضر للشيوعيين لاستعادة دورهم القيادي في الجمهوريات الإسلامية المستقلة والتي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي، لا لشيء إلاّ خوفاً من وصول المدّ الثوري الإسلامي لهذه المناطق.

ولا نستطيع هنا أن نستوعب كلّ هذه المساحة، وإنّما نريد الإشارة إلى أنّ كلّ ردود الفعل هذه تترك أثرها الكبير على الساحة الدولية، وتغيّر من الاستراتيجيات الدولية والمعاهدات، وتفتح مجالاً لتصوير عدوّ كبير للعالم الغربي، وصبّ كلّ الاهتمامات لتدمير هذا العدو الكبير، كما تترك أثرها في سعي الدول الاستكبارية لاستغلال الأمم المتحدة والمحافل الدولية الأخرى للوقوف أمام هذه النهضة ومحاصرتها، والعمل على ضربها في مهدها، وقطع اتصالها بجماهيرها.

ولذلك أستطيع القول – بكل صراحة – إنّ الحركات الثورية الإسلامية هي الهاجس الأكبر للطامعين وهي حجر الزاوية في كلّ تخطيط استراتيجي عالمي.

❐ **السؤال الخامس: هل تعتقد بما يقوله بعض السياسيين من أنّ الإسلام قائم على أساس العداء للحضارة الغربية، أو أنّ الثورة الإسلامية جاءت لتدمير النظام الغربي؟**

■ لتلخيص العلاقة بين الإسلام والغرب أوضح ما يلي:

أ – أتصور أنّ الإسلام – بمقتضى واقعيته المعروفة – يسعى عن طريق الدعوة والعرض السليم إلى مخاطبة الفطرة الإنسانية، والتأكيد على أنّ كلّ ما جاء به من تصوّرات عن الواقع والحياة إنّما يقوم على أساس منطقي سليم وينسجم مع تطلّعات الفطرة الإنسانية، المفروض أن يحصل الجوّ الحرّ الموضوعي للاستماع إلى صوت الإسلام.

وبالرغم من الحرية التي يتمتّع بها العالم الغربي أو يدّعيها في فسح المجال للآراء في أن تعرض نفسها إلاّ أنّ الإسلام يواجه عقبات كبرى في هذا الصدد، وأهمها التشويش والتشويه الدعائي الواسع الأبعاد ضدّه وضدّ مقدّساته، وذلك عبر القنوات الإعلامية الواسعة وبمختلف الأساليب الماكرة التي كثيراً ما تستغل الفنّ والقصة والعلم لتمرير أفكار معادية للإسلام، وأؤكد أنّ هذه الحملة تنطلق من منطلقات:

الأول: تعصّبي، حيث نجد الجهات المتعصبة الصليبية تحمل حقداً تاريخياً ضدّ الإسلام، دونما تأمّل في ما يطرحه الإسلام من أفكار إنسانية.

الثاني: مصلحي، انطلاقاً من النظرة المادية الرأسمالية للحياة؛ لأنّ الإسلام بمقتضى مبادئه لا يسمح أولاً بخضوع الشعوب الإسلامية للمصالح التوسعية الغربية، كما لا يسمح – بشكل عام – باستغلال المستضعفين من قبل الأقوياء المستكبرين، الأمر الذي يقف عقبةً أمام الاستغلال المادي الوضيع.

الثالث: قومي وطني، انطلاقاً من تصوّر الغرب أنّ المسيحية أو بشكل عام الدين الذي لا يتدخل في معمعات الحياة هو من الخصائص الوطنية والقومية للشعوب الأوروبية، وهذا فهم خاطئ للدين والتراث الوطني والقومي، وهو الأمر الذي يرفضه المنطق التغييري للبنية الإنسانية، فالمهم أن يدين الإنسان بدين الحق بعيداً عن مسائل التعصب الطائفي والقومي والوطني.

وأخيراً: فإنّ امتلاك الإسلام لخصائص الدين القيّم على الحياة وأساليبه المعنوية والأخلاقية هي الحل البديل للفراغ المعنوي الذي تشعر به الإنسانية، وهو أحد العوامل المهمة التي حطّمت نظام الالحاد الشرقي وقضت على أحلامه، وبالتالي أعطت دوراً جديداً للتعاليم الإسلامية، لتملأ الفراغ بعد أن لم تكن باقي الأديان على مستوى الحاجة الحضارية الموجودة.

ب – أعتقد أنّ أفكار العالم الغربي قد طُرحت بشكل كافٍ في مجال العالم الإسلامي. فالمثقفون المسلمون يطالعون غالباً – وباستمرار – ما ينتجه هذا الفكر، بالإضافة إلى أنّ الجماهير الإسلامية اليوم مغرقة بأحداث العالم الغربي التي تبثُّ أخبارها وسائل الإعلام الغربية.

بل إنّي أعتقد أنّ ما يعرض في العالم الإسلامي عن الغرب فيه الكثير من المبالغة المقصودة، الأمر الذي قد يغوي الكثيرين بهذه الجنة الموهومة، وهم لا يعلمون ما تستبطنه هذه الحضارة المادية من نقاط ضعف كبرى تمزّق العلاقات العائلية، وتقضي على الروح الإنسانية، وتحرّك الكوامن الحيوانية الغريزية دونما سيطرة.

جـ – لا يمكننا أن ننكر كون الكادر الإعلامي الغربي مدركاً لرسالته ومنسجماً مع حضارته، ويعرف بدقّة ما هي واجباته بغض النظر عن مدى إنسانية هذه الرسالة وتلك الواجبات.

أما الكادر الإعلامي في العالم الإسلامي فالذي أظنه أنّه في الغالب بحاجة ماسّة لتفهُّم الرسالة الإسلامية وأهدافها الحضارية وواجباته تجاه هذه الرسالة، وأظنّ أنّ أكبر نقاط الضعف

التي ابتُلي بها هذا الكادر هو عدم توفُّر ذلك الفهم الكامل من جهة، والتبعية العمياء لأهواء الحكومات المصلحية بل والعميلة أحياناً من جهة أخرى. ومن هنا فإنّ عليه أن يحرر نفسه من هذه القيود، ويبدأ مرحلة جديدة تحكمها خطوط عمل أساسية مستمدة من معين الرسالة الإسلامية، وفي طليعتها: ضرورة نشر الروح التغييرية الثورية التي يريد الإسلام أن تنتشر في النفوس فتجعلها مستعدة لتطبيق كلّ تعاليم الإسلام على كلّ شؤون الحياة.

د – أعتقد أنّ كلاً منّا لا يدرك الآخر، وربما كان من الصعب أن نصل إلى قواسم مشتركة، وسرّ هذا الأمر أنّ مبادئنا ومنطقنا مختلف تماماً. فالعالم الإسلامي يقوم على أسس تصورية لا يؤمن بها الغرب، والعكس بالعكس.

وكمثال على ذلك لنلاحظ الأسس التالية:

١ – الفطرة الإنسانية: وهي وجود أصيل يسوق الإنسان إلى الحقيقة الإلهية بشكل طبيعي، وبدونها يفقد الإنسان إنسانيته.

٢ – الأخلاق الفاضلة: العدل، التعاون، الإخلاص للمبدأ وما إلى ذلك هي جزء لا يتجزأ من إنسانية الإنسان.

٣ – الإنسان الفرد والمجتمع محتاج لتنظيم شؤون حياته كلها للعودة إلى الله والى الدين والقيم في الحياة.

٤ – التكامل البشري من مقومات الحياة الاجتماعية، والفوارق الطبقية والعرقية، والقومية، والوطنية أمور منبوذة بشرياً.

٥ – الغرائز الجنسية بحاجة لضبط عاقل يضمن قيام علاقات عائلية متكافئة.

٦ – الاستغلال والاستعمار والاعتداء وتسخير مصادر الآخرين لمصالح ضيقة، واحتلال أراضي الغير، وإهانة المقدسات، كلها أمور مرفوضة.

هذه بعض الأسس فهل نتّفق عليها؟ المسلمون يقبلونها بشكل تام، ولكن هل ينسجم معها الغرب؟ أستطيع أن أؤكد كون الغرب قد لا يدرك كنهها؛ لأنّها بعيدة عمّا اعتاد عليه مع الأسف.

نعم إذا استطعنا أن نصل إلى مستويات من التفاهم حول هذه الأسس وأمثالها فقد يكون من الطبيعي أن نصل إلى قدر مشترك من الفهم المتبادل لبعضنا بعضاً. ولست متشائماً في تحقق هذا الهدف إذا توافرت النية المخلصة والموضوعية المطلوبة لمعرفة الحقيقة.

إنني أعتقد كون البشرية جمعاء تسير شيئاً فشيئاً نحو مرحلة فناء النزعات الالحادية والظواهر الإنكارية لله تعالى، بالرغم من وجود بعض النتوءات الصغيرة دائماً.

وهناك علامات كبرى تشير إلى هذا الاتجاه الحضاري نستطيع أن نشير منها إلى ما يلي:

١ – هذا الاتجاه العالمي لإقرار حقوق الإنسان، فإنّه وبرغم أنماط الاستفادة السيئة من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان من قبل الدول الكبرى، إلاّ أنّه يعبّر عن اتجاه معنوي نحو إقرار الحقوق الإنسانية التي نادت بها الأديان، وأي إنكار للجانب الروحي والفطري للإنسان يفقد الإنسان أي ادعاء للحقوق الإنسانية.

٢ – هذا الاتجاه العالمي للجماهير نحو الحلول الدينية بعد فشل كلّ الحلول المادية. إنّه اتجاه حضاري يحاول الماديون إنكاره. ويعمل المستعمرون على كبته وخنقه والتآمر عليه، إلاّ أنّه اتجاه حقيقي، فالجماهير – سواء في العالم الإسلامي أو في غيره – أدركت أنّ السعادة الإنسانية إنما تكمن في إحياء القيم المعنوية واستعادة وجودها في حال الإنسان.

والأمر في العالم الإسلامي أوضح، فالجماهير الإسلامية اليوم تعمل على استعادة دور الدين في الحياة، وهي تتوسل بكلّ الوسائل المشروعة لإقامة نظام إسلامي للحياة بالرغم من كلّ العقبات التي توجد في طريقها. فالعصر اليوم هو عصر الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهو عصر الاتجاه نحو المعنويات كما عبّر الإمام الخامنئي قائد الثورة الإسلامية في إيران.

٣ – هذا الانهيار الهائل للنظام الالحادي الشيوعي نتيجة مخالفته للفطرة الإنسانية، وهو ما أشار إليه الإمام الخميني في رسالته التي وجهها إلى غورباتشوف قبل الانهيار بأكثر من عامين، حيث قال له: إنّ الشيوعية مرشحة للدخول في متحف التاريخ، لأنّها تخالف الفطرة الإنسانية، ودعاه إلى الدين وبالخصوص إلى الدين الإسلامي، لأنّه الإشباع الحقيقي للجوعة الإنسانية، وهذا ما اعترف به غورباتشوف في خطاب الاستقالة حيث قال بأنّ الانهيار كان بسبب إنكارنا للنعم الإلهية.

وعلى أي حال فإنّنا نستبشر خيراً بعصر الدين والمعنويات، أمّا ما يقال أحياناً من أنّ الحكم الديني سوف يؤدي لاضطهاد الأقليات فهذا أمر موهون، فإن القواعد الدينية الإسلامية توجب على الدولة احترام حقوق الأقليات، ومنح أفرادها درجة المواطنة الكاملة وحمايتهم من أي اعتداء. وتاريخ الإسلام شاهد على هذه المعاملة بالرغم من أنّ الإسلام لم يكن مطبّقاً بشكل كامل إلاّ في فترات قصيرة. وتمتّع الأقليات في الجمهورية الإسلامية الإيرانية اليوم بكل الحقوق شاهد على هذه المعاملة.

إنّني أعتقد كون عودة الحكومات الدينية إلى الحياة سوف تترك آثاراً كبيرة على العلاقات الدولية، حيث ستسود روح التعاون المشترك لنشر الأخلاق الحميدة، وتتم عملية تحريك الطاقات الإنسانية الكامنة، وتقام الحياة على أسس متينة منسجمة مع الفطرة.

وإنّني لأنتظر عالماً تسوده العدالة، والتعاون والسلام والمحبة الدينية، والتفاهم الموضوعي، وهو ما بشّرت به كلّ الأديان وتمثّل في الإسلام بالاعتقاد بظهور المهدي الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ولهذا فاني أعتقد كون البشرية يجب أن تستعد بل وتعمل على إقامة نظام ديني عالمي يحقق الأهداف السامية للبشرية.

❐ **السؤال السادس: عندما يدخل الدين إلى عالم علماني تنفصل سياسته عن دينه فهل تتغير علاقاته الأساسية بشكل كامل؟**

■ أعتقد أنّ من المسلّم به كون النظام الاجتماعي لا يمكنه أن ينفصل عن الايديولوجية التي يحملها المجتمع (موضوع التطبيق لذلك النظام) بل لا يمكن تصوّر قيام نظام حياتي شامل دون أن يسبقه تحديد للموقف من الوجود والإنسان والحياة، أي دون أن تسبقه فلسفة معينة، وحتى الرأسمالية التي طرحت فكرة فصل المسألة الاجتماعية عن المسألة الواقعية لم تستطع مطلقاً أن تنجو من نظرة مادية خالصة للحياة.

وعليه فعندما يدخل الدين إلى الحياة فمعنى ذلك أنّه ينفذ إلى عمق الوجدان الاجتماعي، ويغيّر القاعدة التي يطبّق عليها النظام، ومعنى ذلك أيضاً أنّه يخطط لوضع الحلول الناجعة لكل مشكلات الحياة ويبادر إلى حلّها، وفقاً لتصوراته (طبعاً إذا كان هذا الدين ديناً واقعياً واجتماعياً يطرح حلوله لكلّ المشكلات الاجتماعية).

ومن هنا نستطيع التأكيد على أنّ الدين عندما يدخل إلى أي ساحة يعمل على تغييرها تغييراً جذرياً، ويحاول أن يصوغ علاقاتها وسياساتها وفقاً لمنطق جديد.

❐ **السؤال السابع: ما هو تصوّركم لمستقبل النهضة الإسلامية؟**

■ انطلق في تصوّري من أمور:

أولاً: من دراسة التاريخ الإنساني الذي يتسم – برغم كلّ النكسات – بالسير الصاعد لصالح الأهداف المعنوية.

ثانياً: من قناعتي باللطف الإلهي الذي يسير بالإنسانية نحو الكمال.

ثالثاً: من الوعود القرآنية القطعية بالنصر المؤكّد للحركة الإسلامية إذا صدقت مع نفسها وتحلّت بكلّ الخصائص القرآنية.

وأعتقد بعد هذا: أنّ الغد أمام النهضة الإسلامية مشرق، خصوصاً إذا لاحظنا ما تتمتع به عناصر النهضة من حيوية مبدعة، وإمكانات مادية ومعنوية، وإيمان جماهيري بمستقبل هذه النهضة، وثقافة حضارية مقرونة بالتضحية والإيثار. وأعتقد أنّ كلّ من له بصيرة يدرك تماماً أنّنا على أعتاب عالم يسوده حكم القرآن الكريم.